مكتبة | 281

تصدرت قائمتي
النيويورك تايمز
ووال ستريت جورنال
للكتب الأكثر مبيعاً

جون غرين

سلاحف
إلى ما لا نهاية

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلاحف إلى ما لا نهاية

مكتبة

للحصول على كتبنا قبل الجميع
بروابط تحميل مباشرة
تابعونا
على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
facebook.com/ktabpdf
على تيليجرام
telegram @ktabpdf

مكتبة

جون غرين

سلاحف

إلى ما لا نهاية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٨
ISBN: 978-9953-88-994-8

Originally published as: **Turtles All The Way Down.**
Copyright © 2017 by John Green
This edition published by arrangement with Dutton Books, a division of Penguin Young Readers Group, a member of Penguin Group (USA) LLC, a Penguin Random House Company

ترجمة: هاجر المصلح

تدقيق لغوي: علي حجازي

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: بسمة تقي

مكتبة

إلى هنري وآليس

مكتبة

مكتبة

بإمكان المرء أن يفعل ما يشاء،

لكنه لا يستطيع أن يقرر ما يشاء.

آرثر شوبنهاور

مكتبة

مكتبة

١

تزامن إدراكي أنني قد أكون شخصية من نسج الخيال مع الوقت الذي كنت فيه طالبةً بمدرسة حكومية في شمال إنديانا بوليس اسمها ثانوية النهر الأبيض، صرحٌ تعليمي يفرض عليّ تناول وجبة الغداء في وقت محدد، بين الساعة ١٢:٣٧ و١:١٤ ظهرًا، بأوامر صادرة من قوى تفوقني كثيرًا، حتى إنني، لو حاولت التعرّف إليها، فلن أستطيع. لو أن تلك القوى حدّدت لي وقتًا آخر لتناول الغداء، أو لو أن أولئك الذين جلسوا معي حول طاولة الطعام وساهموا في تحديد مصيري اختاروا موضوعًا آخر للحديث في ذلك اليوم من شهر أيلول/سبتمبر، لكانت نهايتي مختلفة، أو على الأقل لاختلف الشطر الأوسط من مصيري. لكنني كنت قد بدأت أدرك أن حياتَك قصة تُسرد عنك، لا قصة تحكيها أنت.

من المؤكّد أن تدّعي أنك المؤلف، بل من المفروض أن تتظاهر بذلك. ستفكّر، «لقد قررت أن أتناول وجبة الغداء الآن»، في الوقت الذي يدوّي فيه الجرس من علوّه معلنًا أن الساعة ١٢:٣٧. في الحقيقة،

مكتبة

الجرس هو الذي يتخذ القرار. تعتقدين أنك الرسام، لكنك لست إلّا خلفية مبهمة يُرسم عليها.

مئات الأصوات تتعالى وتتداخل بعضها ببعض في الكافيتريا، إلى درجة أن الحديث يتحوّل معها إلى ضوضاء صوتية فقط، كصوت مياه نهر تتدفّق فوق الصخور. جلست تحت الأضواء الاصطناعية المنبعثة من السقف وفكرت، كيف يظن كلّ منا أنه بطلٌ في ملحمة شخصية، في حين أننا لسنا إلّا كائنات متشابهة تستعمر غرفة كبيرة خالية من النوافذ تفوح منها رائحة المطهّرات والدهن.

كنت أتناول سندويشًا من زبدة الفستق والعسل وأشرب مشروب «دكتور بيبر». في الحقيقة، أنا أجد أن عملية مضغ النباتات والحيوانات ثم بلعها لتجري في بلعومي أمر مقرف نوعًا ما، لهذا حاولت التوقّف عن التفكير في أنني بالفعل أتناول الطعام، ولكنّ ذلك بدوره تفكير في الأمر.

كان ميكال تيرنر يجلس مواجهًا لي، يرسم على أوراق صفراء في دفتر أمامه. طاولة غدائنا أشبه بمسرحية تُعرض منذ زمن على خشبة برودواي: مسرحية يتغير معها طاقم الممثلين عبر السنوات، إلّا أن الأدوار تبقى كما هي. ميكال يؤدّي دور الفنان. كان يتحدث مع ديزي راميريز، التي أدّت دور صديقتي المقربة التي لا تخاف شيئًا منذ كنا في المدرسة الابتدائية، ولكنني لم أستطع متابعة حديثهما بسبب الأصوات والضوضاء حولنا.

ماذا كان دوري في هذه المسرحية؟ ممثلة إضافية. كنت صديقة ديزي، ابنة السيدة هولمز. كنت شيئًا ما لشخص ما.

شعرت بمعدتي تبدأ بالعمل على السندويش، حتى فوق الضوضاء،

استطعت الاستماع إلى صوتها وهي تهضم ـ كل تلك البكتيريا تمضغ لُزوجة زبدة الفستق. كأنها مجموعة من التلاميذ استوطنت جسمي، وراحت تأكل في الكافتيريا الخاصة بها داخل معدتي. تملّكتني قشعريرة هزّت بدني.

«ألم تكوني معه في المخيم؟»، سألتني ديزي.

«مع من؟»

«دايفيس بيكييت»، قالت.

«نعم»، أجبتها. «لماذا؟»

«ألم تصغي إلينا؟» سألتني ديزي. أنا مصغية، فكّرت، إلى نغمات جهازي الهضمي المتنافرة. منذ زمن وأنا أدرك أنني أستضيف كمًّا هائلًا من البكتيريا الطفيلية. ولكنني لا أحب أن يُذكّرني بها شيء. أعرف أنّ ٥٠٪ من الجسد البشري يتكوّن من الميكروبات، مقارنة بعدد الخلايا البشرية، ما يعني أنّ قرابة نصف الخلايا التي تكوّنك ليست لك مطلقًا. كما أنّ الميكروبات التي تسكن في بصمتنا الإحيائية أكثر بألف مرة على الأقل من عدد الكائنات البشرية على الأرض. وغالبًا ما أشعر بها تعيش وتتكاثر وتموت داخلي وفوقي. مسحت عرق كفّي ببنطلوني الجينز، وحاولت التحكم في تنفّسي. أعترف بأنني أعاني اضطراب القلق، ولكنني أصرّ على أنّ ثمة منطقًا يبرّر قلق المرء من كونه مستعمرة بكتيرية مغطّاة بالجلد.

تابع ميكال، «كان أبوه على وشك أن يُعتقل، أو شيء من هذا القبيل. ولكن، في الليلة التي سبقت اقتحام منزله، اختفى، وقد رُصدت مكافأة بقيمة مئة ألف دولار لمن يعثر عليه».

«وأنت تعرفين ابنه»، أضافت ديزي.

«كنت أعرفه»، أجبتها.

راقبت ديزي، وهي تغرس شوكتها بقطعة البيتزا والفاصوليا الخضراء، وجبة الطعام التي توفّرها المدرسة، بينما تُواصل اختلاس النظر إليّ، وكأنها تقول، حسنًا؟ كان من الواضح أنها أرادت أن أسألها عن شيء ما، ولكنني لم أعرف ما هو، لأن معدتي رفضت أن تخرس، ما سبّب لي قلقًا في أعماقي من أنني ربما قد أُصبت بعدوى طفيلية.

بالكاد وصل إلى سمعي حديث ميكال مع ديزي عن مشروعه الفني الجديد الذي كان يستخدم لتنفيذه الفوتوشوب معاينًا وجه مئة شخص يدعى كلّ منهم ميكال، ومستخلصًا من كلّ هذه الوجوه المجتمعة وجهًا جديدًا يمثّل «المعدّل» ويُسمّى ميكال الرقم مئة وواحد. فكرة مشوّقة أردت بالفعل أن أستمع إليها. إلّا أن الصوت في الكافيتريا كان مرتفعًا، ولم أستطع التوقف عن التساؤل عمّا إذا كانت القوى البكتيرية داخلي قد اختلّت لسببٍ ما.

الصوت العالي المنبعث من المعدة شيء غير مألوف. ولكنّ هذا لا يعني أنه لم يسبق له مثيل. وهو دلالة على الإصابة بالتهاب القولون الغشائي الكاذب(*) وهي إصابة قد تكون قاتلة. أخرجت هاتفي وأجريت بحثًا عن «الميكروبات البشرية». وأعدت قراءة مقدمة ويكيبيديا عن مليارات الميكروبات الدقيقة التي ترتع في داخلي حاليًا. ضغطت المقال الخاص بالتهاب القولون الغشائي الكاذب، وانتقلت إلى الجزء

(*) وهو التهاب ناتج من الإصابة بالبكتيريا المطثية العسيرة، أو الكلوستريديوم ديفيسيل.

مكتبة

الذي يذكر أنّ معظم حالات الإصابة تحدث في المستشفيات، ومنه إلى آخر المقال حيث توجد قائمة الأعراض، التي لم أكن أشتكي من أيّ منها، ما عدا تلك الأصوات العالية المنبعثة من معدتي، برغم أنني كنت أعرف من عمليات البحث السابقة التي أجريتها أنّ عيادة كليفلاند أبلغت عن حالة وفاة شخص بسبب هذه البكتيريا، بعد أن ذهب إلى المستشفى وهو يشتكي من حمّى وألم في المعدة فقط. ذكّرتُ نفسي أنني لا أشتكي من الحمّى، وأجابتني نفسي: ليس بعد. أنتِ لا تعانين من الحمّى حتى الآن.

في الكافتيريا، وبذلك المقدار الضئيل من الوعي الذي حافظت عليه، سمعت ديزي تخبر ميكال أن مشروعه بمعادلة الوجوه يجب ألّا يكون عن أشخاص يحملون اسم ميكال، ولكن عن مساجين جرت تبرئتهم في وقت لاحق. «في أي حال، سيجعل ذلك الأمر أسهل بكثير»، قالت ديزي، «فلجميع المساجين صور اعتقال جرى التقاطها من الزاوية نفسها، ثم إن الموضوع لن يعود مقتصرًا على الأسماء فقط، بل سيتعدّاه ليشمل العرق والطبقة الاجتماعية وازدياد أعداد المساجين أيضًا».

«ديزي، يا لك من عبقرية!» قال ميكال.

«وكأنك فوجئت بذلك!» ردّت عليه.

راودتني الفكرة الآتية: بما أن نصف الخلايا داخلك ليست أنت، ألا يمثل ذلك تحديًا تامًا لكلّ ما يرمز إليه الضمير المتكلّم المفرد «أنا»، ولفكرة أنني أنا من يقرر مصيري؟ تملّكتني هذه الأفكار حتى بدأت أهوي في الهاوية نفسها التي أسقط في أعماقها دائمًا، لتنقلني

مكتبة

تمامًا من كافتيريا ثانوية النهر الأبيض إلى مكان غير حسي لا يزوره إلّا المجانين بكل ما في الكلمة من معنى.

منذ صغري، تعوّدت أن أضغط بظفر إبهامي الأيمن باطن إصبعي الوسطى، حتى تكوّن مع الوقت نسيج متكلّس غريب حول بصمة إصبعي. بعد مرور عدد من الأعوام وأنا على هذا المنوال، أصبح بإمكاني أن أشقّ فتحة في جلدي بسهولة، لهذا أغطّي إصبعي بلصقة طبية في محاولة مني لحمايته من الالتهاب. أحيانًا يصيبني القلق من أن تكون إصبعي ملتهبةً وأن عليّ إزالة الالتهاب، والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي فتح الجرح مرة ثانية وتصفية أي دم من الممكن التخلص منه. ومتى بدأت بفتح جلدي، لا يعود بإمكاني ألّا أستمر. عذرًا لصيغة النفي المزدوجة، ولكنه بحقٍّ وضع نفي مزدوج، مأزق نفي وإنكار، السبيل الأوحد للخلاص منه هو النفي المزدوج. في أي حالٍ، غدوت في حاجة إلى أن أشعر بظفري ينغرس في جلد إصبعي، وكنت أعرف أن المقاومة غير مجدية. لهذا، وتحت طاولة الكافتيريا، أزحت اللصقة الطبية عن إصبعي وغرست ظفر إبهامي في الجلد المتكلّس حتى شعرت بالجرح ينفتح.

«هولمزي»، نادت ديزي. رفعت عينيّ ونظرت إليها. «أوشكنا أن ننتهي من تناول الغداء ولم تعلّقي على شعري». هزّت شعرها بصبغة الهايلايتس الوردية الغامقة بشدة لدرجة جعلته يبدو أحمر اللون. بالتأكيد، لقد صبغت شعرها.

طفوت على السطح من أعماق الهاوية وقلت، «حركة جريئة».

«أعرف، أليس كذلك؟ شعري يقول: سيداتي سادتي وأولئك الذين

مكتبة

لا ينتمون إلى صنف السيدات والسادة، ديزي راميريز لن تخلف بوعد ولكنها ستحطّم الوجد». شعار ديزي في حياتها هو «حطّم الوجد ولا تخلف الوعد». ظلّت تهدد بأنها ستضعه وشمًا على كاحل ساقها عندما تبلغ الثامنة عشرة. استدارت ديزي إلى ميكال وعدتُ أنا إلى أفكاري. ارتفع صوت قرقرة معدتي، وشعرت بأنني على وشك أن أتقيّأ. قياسًا على شخص يبغض السوائل الجسدية بشدة، كنت بلا شك كثيرة التقيؤ.

«هولمزي، هل أنتِ على ما يرام؟» سألت ديزي. أومأت لها موافقة. أحيانًا أتساءل لماذا تحبني، أو تتحمّلني. كيف يتحمّلني أي منهم، فأنا بالكاد أطيق نفسي.

شعرتُ بجبهتي تتعرّق، ومتى ما بدأت بالتعرّق، فمن المستحيل أن أتوقف. أستمرُّ في التعرّق لساعات، ليس فقط على وجهي وإبطي. رقبتي تتعرّق أيضًا. وصدري يتعرّق. ربما كنت أعاني من الحمّى.

تحت الطاولة، أخفيت اللصقة الطبية القديمة في جيبي، ومن دون أن أنظر، أخرجت لصقة جديدة، أزلت عنها الغطاء، واختلست النظر إلى إصبعي ووضعتها عليها. أثناء ذلك، تنفّستُ من أنفي وزفرتُ من فمي، كما نصحتني د. سينغ، أن أزفر بدرجة «تجعل شعلة الشمعة تهتز من دون أن تطفئها. تخيلي تلك الشمعة يا آزا، تتمايل شعلتها من تنفسك ولكنها تظل مشتعلة، دائمًا مشتعلة». حاولت ذلك، إلّا أن لولبة أفكاري واصلت انقباضها. كنت أسمع صوت د. سينغ تقول إنه ينبغي لي ألّا أُخْرِجَ هاتفي، وألّا أبحث عن الأسئلة نفسها مرارًا وتكرارًا، ولكنني أخرجته على أي حال، وأعدت قراءة موضوع «الميكروبات البشرية» على ويكيبيديا.

مكتبة

ذلك هو شأنُ الدوّامة، إذا تتبعتها في داخلك، فلا تنتهي أبدًا. تواصل الانقباض إلى الأبد.

أغلقت كيس البلاستيك حول آخر ربع من سندويشي، وقفت، ورميته في سلة القمامة الفائضة بالنفايات. سمعت صوتًا ورائي. «هل عليّ أن أقلق لأنكِ لم تنطقي سوى بكلمتين متتابعتين طوال اليوم؟»

«دوّامة الأفكار اللولبية»، تمتمتُ مجيبة. تعرفني ديزي منذ كنا في السادسة من عمرنا، فترة كافية لتفهم ما أعني.

«هذا ما ظننته. آسفة. فلنقضِ بعض الوقت معًا اليوم».

توجّهت نحونا فتاة اسمها مولي، مبتسمة، وقالت، «أوه، ديزي، لمعلوماتك، لقد ترك مشروب الكول إيد(*) بقعًا على قميصك».

نظرت ديزي إلى كتفيها، وبالفعل، كانت هناك بقع على قميصها المقلّم. جفلت لثانية فقط، ثم نصبت ظهرها وقالت، «أعرف. هذا جزء من إطلالتي. القمصان المبقّعة آخر صرعات الموضة في باريس الآن». ثم أدارت ظهرها لمولي وقالت، «حسنًا، سنذهب إلى بيتك ونشاهد فيلم حرب النجوم: المتمرّدين». كانت ديزي مهووسة بحرب النجوم - ليس الأفلام فقط، ولكن أيضًا الكتب والعروض المتحركة وبرامج الأطفال التي يُصنع كل شيء فيها من قطع الليغو. بل إنها تكتب روايات للهواة عن حياة تشوباكا العاطفية. «وسنعمل على تحسين مزاجك حتى تستطيعي النطق بثلاث كلمات أو حتى أربع كلمات متتالية. اتفقنا؟»

(*) يُستعمل هذا المشروب أحيانًا في صبغ الشعر.

مكتبة

«اتفقنا».

«ثم بإمكانكِ بعدها توصيلي إلى العمل. آسفة، لكنني بحاجة إلى من يقلّني».

«حسنًا». أردت أن أقول أكثر، إلّا أن الأفكار تتابعت، غير مطلوبة وغير مرغوبة. لو أنني كنت المؤلّفة، لتوقّفت عن التفكير في ميكروباتي. لكنت أخبرت ديزي عن مدى إعجابي بفكرتها لمشروع ميكال الفني، ولأخبرتها أنني أتذكر دايفيس بيكيت، أتذكر عندما كنت في الحادية عشرة، أعيش خوفًا غامضًا يكبّلني باستمرار. لكنتُ أخبرتها أنني أتذكّر ذات مرة في المخيم وأنا متمدّدة بجوار دايفيس على حافة رصيف خشبي، سيقاننا متدلّية، ظهرانا متّكئان على ألواح الخشب الخشنة، محدّقين معًا بسماء الصيف الخالية من النجوم. لكنت أخبرتها أنني لم أتحدّث كثيرًا مع دايفيس، بل إن أحدنا لم ينظر حتى إلى الآخر، ولكنّ ذلك لم يكن مهمًا، لأننا كنا نتأمل السماء ذاتها معًا، وذلك قد يكون أكثر حميمية من التقاء العيون. بإمكان أيّ شخص أن ينظر إليك، ولكن يندر أن تجد شخصًا يرى العالم نفسه الذي تراه.

مكتبة

تسلّل معظم الخوف مني وتلاشى مع عرقي، ولكن بينما أنا متوجّهة من الكافتيريا إلى حصّة التاريخ، لم أستطع منع نفسي من إخراج هاتفي وإعادة قراءة قصة الرعب التي يشكّلها لي مقال «الميكروبات البشرية» على ويكيبيديا. كنت أقرأ وأمشي عندما سمعت صوت أمي تناديني عبر باب فصلها المفتوح. كانت تجلس وراء مكتبها المعدني، منعكفة على كتابٍ أمامها. أمي معلمة رياضيات، إلّا أن القراءة حبها الأول.

«الهواتف ممنوعة في الممرّات، يا آزا». خبّأتُ هاتفي ودخلت إلى فصلها. معي أربع دقائق قبل انتهاء استراحة الغداء، وهو الزمن المثالي لمحادثة مع أمي. رفعت نظرها إليّ ولا بدّ أنها رأت شيئًا في عينيّ. «هل أنتِ على ما يرام؟»

«نعم»، قلت.

مكتبة

«لستِ قلقة؟» سألت. في مرحلة ما، نصحت د. سينغ أمي ألّا تسألني إن كنت قلقة، لهذا توقفت عن طرح السؤال بصيغة الإيجاب.

«أنا بخير».

«تتناولين أدويتك»، قالت. مرة ثانية، لم تَخْتَر سؤالًا مباشرًا.

«نعم»، قلت، وهي الحقيقة بوجه عام. بعد أن عانيتُ من تدهورٍ شديد وأنا في الصف الأول الثانوي، وُصفت لي حبوب بيض مستديرة على أن أتناولها مرة في اليوم. تناولتها بمعدل ثلاث مرات أسبوعيًا تقريبًا.

«تبدين..». متعرّقة، هذا ما عَنَتْه.

«من يقرر متى تُقرع الأجراس؟» سألت. «مثل أجراس المدرسة؟»

«تعرفين، ليس لديّ أدنى فكرة. أعتقد أنه قرارٌ يتخذه شخصٌ ما في هيئة التفتيش».

«مثلًا، لماذا تدوم فترة الغداء سبعًا وثلاثين دقيقة لا خمسين؟ أو اثنتين وعشرين؟ أو أيّ مدة أخرى؟»

«يبدو أنّ عقلك مكان بالغ الانفعال»، أجابت أمي.

«إنه أمر غريب فقط أن يتخذ شخص لا أعرفه هذا القرار وعليّ بعدها أن أعيش بحسب ما يتطلّبه مني. أي إنني أعيش متّبعة جدول أشخاصٍ آخرين لم ألتق بهم يومًا».

«نعم، حسنًا، في هذا الشأن وغيره، تشبه الثانويات الأميركية السجون».

مكتبة

اتّسعت عيناي. «يا إلهي، أمي، أنت على حق تمامًا. أجهزة كشف المعادن. الجدران الخرسانية الرمادية».

«كلتاهما مكتظة ولا تتلقّى الدعم المالي الكافي»، قالت أمي. «ولكلتيهما أجراس تدقّ لتخبرك متى تتحرّكين».

«وليس لديك حق الاختيار متى تريدين تناول الغداء»، قلت، ثم أضفت: «وفي السجون حراس فاسدون يلهثون وراء السلطة، مثلما يوجد معلمون في المدارس».

رمتني بنظرة ثاقبة، ثم ضحِكَتْ. «ستتوجّهين، إلى المنزل بعد المدرسة مباشرة؟»

«نعم، ثم سأقلّ ديزي إلى العمل».

أومأت أمي. «أشتاق أحيانًا إلى الفترة التي كنتِ فيها طفلةً، ثم أتذكّر تشاك إي تشيز(*)».

«هي تحاول التوفير للكلية فقط».

نظرت أمي إلى كتابها. «تعرفين، لو أننا نعيش في أوروبا، لما كانت الكلية مكلفة لهذه الدرجة». استعددت للاستماع إلى محاضرة أمي عن تكاليف الجامعة. «هناك جامعات مجانية في البرازيل. في معظم أوروبا. في الصين. لكن هنا، يريدون منك أن تدفعي خمسة وعشرين ألف دولار سنويًا، لرسوم الجامعات داخل الولاية. انتهيت من سداد قروضي قبل بضع سنوات فقط، وعما قريب سنضطر للاقتراض من أجلك».

(*) سلسلة مطاعم وصالات ترفيه أميركية مخصّصة للعائلات.

مكتبة

«ما زلت في الصف الثاني الثانوي ولا يزال أمامي متسع من الوقت للفوز باليانصيب. وإن لم يحصل ذلك، فسأبيع ميثامفتيامين لأدفع مصاريف الكلية».

ابتسمت أمي ابتسامة واهنة، فقد كانت قلقة بالفعل بشأن تكاليف التحاقي بالجامعة. «هل أنت متأكدة أنك على ما يُرام؟» سألتْ.

أومأتُ في الوقت الذي قُرع فيه الجرس من علوّه، ليرسلني إلى حصة التاريخ.

عندما وصلت إلى سيارتي بعد المدرسة، وجدتُ ديزي في المقعد الأمامي، وقد غيّرت قميصها المبقّع وارتدت قميص تشاك إي تشيز الأحمر. جلست وحقيبتها في حجرها، ترشف من علبة الحليب المدرسيّ. ديزي هي الشخص الوحيد الذي أثق بترك مفتاح «هارولد» معه. حتى أمي لا تمتلك مفتاحًا لهارولد، ولكنّ ديزي تفعل.

«الرجاء ألّا تشربي أي سوائل غير شفّافة داخل هارولد»، قلت لها.

«الحليب سائل شفّاف». قالت.

«كذب»، أجبت، وقبل أن ننطلق، قدتُ هارولد إلى مدخل المدرسة وانتظرت حتى رمت ديزي علبة حليبها.

قد تكونين وقعتِ في الحب مرة. أقصد الحب الحقيقي. الحب الذي وصفته جدتي باقتباس كلمات القدّيس بولس الرسول الأولى لأهل كورنثوس، المحبة التي تتأنى وترفُقُ، التي لا تحسدُ ولا تتفاخرُ، التي تحتمل كل شيء وتصدّق كل شيء .وتصبر على كلّ شيء. لا أحبّ

مكتبة

أن أقحم كلمة الحب في كل ما أقول؛ إنه شعور أروع وأندر من أن أقلّل من قيمته باستهلاكه. من الممكن أن تعيش حياة راضية من دون أن تعرف الحب الحقيقي، الحب الكورنثوسي. لكنني كنت محظوظة لأنني وجدته مع هارولد.

هارولد سيارة تويوتا كورولّا عمرها ١٦ سنة بطلاء يُدعى أزرق الميكا الروحاني ومحرّك يدور بوتيرة منتظمة مثل دقّات قلب هارولد المعدنية الطاهرة. هارولد سيارة أبي ـ في الحقيقة، أبي سماها هارولد. لم تبعها أمي، لهذا ظلت في الكاراج ثماني سنوات، حتى عيد ميلادي السادس عشر.

حتى يعود محرّك هارولد إلى الدوران بعد هذه المدة الطويلة، كلّفني الأربعمئة دولار التي وفّرتها طوال عمري ـ مصاريفي، الفُراطة التي خبّأتها عن أمي عندما كانت ترسلني لشراء غرض ما من محل سيركل ك في آخر شارعنا، عملي طيلة أشهر الصيف في مطعم صب واي، هدايا عيد الميلاد المجيد من جدي وجدتي ـ لهذا، بطريقة ما، كان هارولد ثمرة كياني بأسره، ماليًّا على الأقل. وكنت أحبه وأحلم به كثيرًا. لهارولد صندوق واسع جدًا، عجلة قيادة بيضاء كبيرة مُركّبة خصيصًا، ومقعد جلد خلفي باللون البيج ونقش بنتوءات بارزة. كان يقطع الطريق بهدوء راهب بوذي يؤمن أنه ما من شيء يستحق العجلة، وتئن مكابحه مثل آلة موسيقى الميتال، وكم كنت أحبه.

لكن، لم تكن هناك وصلة بلوتوث في هارولد، أو مسجل لتشغيل الأقراص المدمجة، ما يعني أن رفقة هارولد تترك لك ثلاثة خيارات: ١ القيادة بصمت؛ ٢. الاستماع إلى الراديو؛ ٣. الاستماع إلى الوجه الثاني

مكتبة

من شريط كاسيت أبي لألبوم ميسي إيليوت الرائع «سو أديكتيف[*]»، الذي ـ لاستحالة إخراجه من المسجّل ـ سمعته مئات المرات في حياتي.

في نهاية الأمر، نظام هارولد السمعي المعطوب هو آخر نوتة في موشّحات الصدف التي غيّرت حياتي.

تنقّلت أنا وديزي بين محطّات الراديو بحثًا عن أغنية لفرقة شبابية رائعة جدًا لم تتلقّ التقدير الذي تستحقه عندما وقعنا على نبأ إخباري. «ـ بيكيت للأعمال الهندسية، ومقرها إنديانا بوليس، شركة البناء التي توظّف أكثر من عشرة آلاف شخص حول العالم، اليوم ـ «حركت يدي لزر البحث، فأزاحتها ديزي.

«هذا ما كنت أحدثك عنه!» قالت بينما استمرّ بث الخبر على الراديو، «ـ مئة ألف دولار مكافأة لمن يدلي بمعلومات تدلّ على مكان رئيس الشركة التنفيذي راسيل بيكيت. اختفى بيكيت في الليلة التي سبقت غارة الشرطة على منزله إثر التحقيقات الجارية بتهمة الاحتيال والرشوة، وقد شوهد لآخر مرة في مسكنه في ريفر سايد في الثامن من أيلول/سبتمبر. وعلى أي شخص بحوزته معلومات تدلّ على مكانه الاتصال بدائرة شرطة إنديانا بوليس».

«مئة ألف دولار»، قالت ديزي. «وأنت تعرفين ابنه».

«كنت أعرفه»، قلت. على مدى صيفين، بعد الصفين الخامس

(*) So Addictive، ألبوم لِـ Missy Elliott.

مكتبة

والسادس، ذهبت أنا ودايفيس إلى المخيم الحزين معًا، وهو الاسم الذي أطلقناه على مخيم سبيرو للأيتام الواقع في مقاطعة براون.

إضافةً إلى رفقتنا في المخيم الحزين، كنت ألتقي أنا ودايفيس أحيانًا خلال السنة الدراسية، لأن مسكنه يقع على ضفة النهر بالقرب منا، ولكن على الضفة المقابلة. عشت أنا وأمي على الضفة التي يصيبها الفيضان أحيانًا. أمّا آل بيكيت، فكانوا يعيشون على الضفة المحمية بالجدران الحجرية المرصوصة، التي تدفع مياه النهر المرتفعة باتجاهنا.

«على الأرجح أنه لا يتذكّرني».

«الكلّ يتذكّرك يا هولمزي»، قالت.

«هذا ليس ـ»

«ليس حكمًا عليك. أنا لا أقول إنكِ لطيفة أو كريمة أو طيبة أو أي شيء من هذا القبيل. كل ما أقوله إنّ من الصعب نسيانك».

«إلّا أنني لم أره منذ سنوات»، قلت. لكن من المؤكّد أن المرء لا ينسى رفاق اللعب في قصر يضم ملعب غولف، بركة سباحة تتوسّطها جزيرة وخمس زحاليق مائية. كان دايفيس أقرب شخص إلى قائمة المشاهير ألتقيه على الإطلاق.

«مئة ألف دولار»، كرّرت ديزي. انطلقنا بالسيارة على الطريق ١-٤٦٥، الحزام الدائري الذي يلتفّ حول إنديانا بوليس. «أعمل على إصلاح آلات الكرات الصغيرة لأقبض ثمانية دولارات في الساعة، وهناك مئة ألف دولار بانتظارنا».

مكتبة

«لن أقول بانتظارنا. على كل حال، عليّ أن أقرأ عن تأثير الجدريّ في الشعوب الأصلية الليلة، لهذا لن أستطيع حل قضية الملياردير المطارَد». زدت سرعة هارولد لتناسب السرعة على الخط السريع. لم أتجاوز معه حدّ السرعة أبدًا، فقد كنت أحبه كثيرًا جدًا.

«أنت تعرفينه أفضل مني، ولأقتبس من كلمات أعظم فرقة موسيقية في العالم، 'أنت الشخص المقصود'». وهي أغنية سخيفة كنت أكبر سنًا من أن أحبها، ولكني أحببتها برغم ذلك.

«أخالفك الرأي، علمًا أنها أغنية رائعة».

«أنت. الشخص. المقصود. أنت من أختاره. الشخص الذي لن أفقده. أنت أبدي. نجومي. سمائي. هوائي. أنت».

ضحكنا وغيّرتُ محطة الراديو واعتقدت أن الأمر قد مرّ على خير، ولكنّ ديزي بدأت تقرأ لي جريدة إنديانا بوليس ستار من هاتفها. «راسيل بيكيت، الرئيس التنفيذي ومؤسّس بيكيت للأعمال الهندسية المثير للتساؤلات، لم يكن في منزله عندما أغارت عليه شرطة إنديانا بوليس وبحوزتها تصريح للبحث صباح الجمعة، ولم يعد إلى منزله منذ ذلك الحين. وقد صرّح محامي السيد بيكيت، سايمون موريس، بعدم وجود معلومات لديه عن مكان بيكيت، وخلال مؤتمر صحافي اليوم، أفاد المحقّق دوايت آلين بأنه لم يُلحظ أي نشاط على بطاقات بيكيت الائتمانية أو حساباته المصرفية منذ الليلة التي سبقت غارة الشرطة». إلخ إلخ إلخ... «كما أكد آلين أنه إلى جانب الكاميرا الموضوعة عند البوابة الأمامية، ما من كاميرات مراقبة في المسكن. وتشير نسخة من

مكتبة

تقرير الشرطة حصلت عليها «ذا ستار» إلى أن ابني بيكيت، دايفيس ونوا، كانا آخر من شاهده مساء الخميس»، إلخ إلخ إلخ. «القصر الواقع شمال الشارع ثلاثة وثمانين، عدد كبير من الدعاوى القضائية، يدعم حديقة الحيوان»، إلخ إلخ إلخ. «الاتصال بالشرطة إذا كنت تعرف أي شيء»، إلخ إلخ إلخ. انتظري، كيف لا توجد كاميرات مراقبة؟ أيّ صنف من المليارديرات لا يضع كاميرات مراقبة؟»

«الصنف الذي لا يريد أن تُسجَّل أعماله المشبوهة»، قلت. بينما واصلنا القيادة، تابعتُ تقليب القصة في رأسي. كنت أعرف أن بعض أجزائها متنافرة، ولكني لم أعرف أيها، حتى تذكّرتُ قيّوطًا أخضر مخيفًا أبيض العينين. «بلى، كانت هناك كاميرا. ليست كاميرا مراقبة، ولكن كان لدى دايفيس وأخيه كاميرا برؤية ليلية تلتقط صورة لأي شيء يتحرك في الغابة القريبة من النهر ـ غزال أو قيّوط أو أي شيء آخر».

«هولمزي»، قالت. «لدينا خيط بداية».

«وبسبب الكاميرا الموضوعة عند البوابة الأمامية، من الأرجح أنه لم يغادر بسيارته»، قلت. «لهذا، إما أن يكون قد تسلّق على حائطه، أو مشى عبر الغابة باتجاه النهر وغادر من هناك، أليس كذلك؟»

«نعم..».

«لهذا من الممكن أن يكون قد مرّ من أمام تلك الكاميرا. لقد مضت عدة سنوات منذ كنتُ هناك، وربما لم تعد موضوعة».

«وربما ما زالت!» قالت ديزي.

مكتبة

«نعم، ربما ما زالت».

«المخرج هنا»، قالت فجأة، فسلكته. كنت أعرف أنه المخرج الخطأ، ولكنني أخذته على أي حال، ومن دون أن تخبرني ديزي، توجّهت إلى المسار الأيمن عائدةً باتجاه منزلي. باتجاه بيت دايفيس.

أخرجت ديزي هاتفها ورفعته إلى أذنها.

«مرحبًا إريك. معك ديزي. اسمع، آنا آسفة حقًا، ولكني أعاني من إنفلونزا المعدة، ومن المحتمل أنه فيروس نورو».

«..».

«نعم، أنا متفهّمة. آسفة مرة أخرى». أغلقت الخط، وضعت هاتفها في حقيبتها، وقالت، «إذا لمّحتِ للإسهال فقط، يطلبون منك البقاء في المنزل لأنهم يتخوفون من تفشي المرض. حسنًا، سنقوم بهذا. هل ما زلتم تحتفظون بالزورق؟»

مكتبة

٣

في ما مضى، اعتدتُ أن أجذّف مع أمي أحيانًا على النهر الأبيض، لنتعدّى منزل دايفيس باتجاه المتنزّه الواقع خلف متحف الفن. كنا نربط الزورق ونتمشّى قليلًا، ثم نعود إليه ونجذّف في الاتجاه المعاكس للتيار الكسول في طريقنا إلى المنزل. ولكني لم أجذّف في النهر منذ سنوات. النهر الأبيض جميل من وجهة نظر تجريدية ـ مالك الحزين الأزرق والطيور والغزلان وغيرها ـ ولكن رائحة الماء نفسه تشبه رائحة المجاري. في الواقع، رائحته لا تشبه رائحة المجاري؛ بل تنبع منها رائحة المجاري، لأنه كلما هطل المطر، فاضت المجاري وصبّت نفايات إنديانا الوسطى كلها في النهر مباشرة.

توقّفنا في ممر منزلي. نزلتُ من السيارة، مشيت إلى باب الكاراج، قرفصت، ثم رفعته. عدت إلى السيارة وركنتها في الكاراج، كل هذا وديزي لم تتوقّف عن إخباري أننا سنصبح ثريّتين.

مكتبة

تركني المجهود الذي بذلته لفتح باب الكاراج متعرّقة شيئًا ما، لهذا عندما دخلت المنزل توجهت مباشرة إلى غرفتي وأدرت وحدة التكييف المركّبة على النافذة. تربّعتُ على سريري، وتركت الهواء البارد يلفح رقبتي. كانت الفوضى تعمّ غرفتي، ملابس قذرة في كل ناحية وأوراق مبعثرة ـ أوراق الواجب، امتحانات قديمة، منشورات عن الكليات أحضرتها أمي إلى المنزل ـ تغطي مكتبي ومنشورة على الأرض. وقفت ديزي في إطار الباب. «هل لديك ملابس بقياسي؟» سألت. «أشعر أنه من غير اللائق أن أقابل مليارديرًا بزيّ تشاكي تشيز، أو بقميص ملطّخ بصبغة شعري الوردية، وهذان الغياران هما كل ما لدي الآن».

كانت ديزي وأمي بالحجم نفسه تقريبًا، لهذا قرّرنا أن نشنّ غارة على خزانتها. حاولنا العثور على أي قميص أو بنطلون جينز لا ينمّان عن شخصية أمّ، بينما واصلت ديزي الحديث. ديزي كثيرة الكلام. «عندي نظرية عن الأزياء الموحّدة. أعتقد أنهم يصمّمونها لكي لا تظلّي كائنًا بشريًا، كي لا تصبحي ديزي راميريز، الإنسان، بل شيئًا يُحْضر البيتزا للناس ويعطيهم ديناصورات بلاستيكية مقابل تذاكرهم. وكأن الأزياء الموحّدة مصمّمة أساسًا لتُخفيني».

«نعم»، قلت.

«قمعٌ منهجيٌّ لعين»، تمتمت ديزي، وسحبت بلوزة بنفسجية بشعة من الخزانة.

«أمّك ترتدي ملابس وكأنها معلّمة رياضيات للصف التاسع».

«هي معلّمة رياضيات للصف التاسع».

مكتبة

«هذا ليس عذرًا».

«فستان، ربما؟» أمسكت بفستان أسود يصل إلى بطة الساق بنقوش بيزلي وردية. في قمة البشاعة.

«أعتقد أني سأقنع بالزيّ الموحّد». قالت.

«نعم».

سمعت صوت سيارة أمي تقترب على الممر، وبرغم أنها لن تمانع استعارتنا لملابسها، إلّا أنني شعرت بشيء من التوتر. لاحظت ديزي ذلك فقبضت على معصمي وتسلّلنا إلى الفناء الخلفي قبل أن تدخل أمي إلى المنزل، ثم تلمّسنا طريقنا بين شجيرات العسلة الصغيرة على أطراف الفناء.

اتّضح أننا بالفعل ما زلنا نحتفظ بالزورق، مقلوبًا وممتلئًا بالعناكب الميتة. قلبته ديزي، ثم حرّرت المجاذيف وسترتي نجاة كان لونهما برتقاليًا في وقت ما لكنه تغيّر بسبب أغصان اللبلاب المتسلق التي نمت عليها. مسحت الزورق بيديها، ووضعت المجاذيف وسترتي النجاة فيه، وسحبته باتجاه ضفة النهر. برغم أن ديزي كانت قصيرة ولم تبدُ مرنة، كانت قوية جدًا.

«النهر الأبيض شديد القذارة»، قلت.

«هولمزي، أنت غير عقلانية. ساعديني هنا».

أمسكت بجزء الزورق الخلفي. «٥٠٪ منه بول. وهذا هو النصف النظيف».

«أنت الشخص المقصود»، ردّدت ديزي، ثم رفعت الزورق عن

ضفة النهر ووضعته في الماء. قفزت بعدها عن ضفة النهر واستقرّت فوق شبه جزيرة صغيرة من الطين، ولفّت حول رقبتها سترة نجاة حجمها أصغر منها بكثير، وركبت في مقدّمة الزورق.

تبعتُها وجلست في المقعد الخلفي، ثم استخدمتُ المجذاف لدفعنا على مجرى النهر. لقد مضى وقت طويل منذ جذّفت زورقًا، إلّا أن مستوى الماء كان منخفضًا، والنهر عريض فلم أكن مضطرةً لبذل جهد كبير. أدارت ديزي رأسها ونظرت إليّ وابتسمت وفمها مغلق. وجودي على النهر جعلني أشعر بأنني صغيرة مرةً ثانية.

عندما كنا صغيرتين، كنتُ ألعب أنا وديزي على طول ضفّة النهر عندما ينخفض مستوى الماء فيه كما هي الحال الآن. نلعب لعبة اسمها «أطفال النهر». نتخيّل أننا نعيش وحدنا على النهر، نجمع طعامنا ونختبئ من البالغين الذين يسعون لوضعنا في ملجأ للأيتام. تذكّرتُ ديزي وهي ترميني بحشرة تعرف أني أكرهها، وأنا أصرخ وأهرب، ملوّحةً بذراعيّ، إلّا أنني لم أكن خائفة فعلًا حينها، لأن كل المشاعر وقتها كانت أشبه باللعب، وكأنها مجرّد مشاعر أختبرها دون أن تلازمني. الرعب الحقيقي ليس أن تكون خائفًا؛ بل ألّا يكون لك خيار في الأمر.

«تعرفين أن هذا النهر هو السبب الرئيسي وراء وجود إنديانا بوليس أصلًا؟» قالت ديزي. استدارت في الزورق لمواجهتي. «حالما أُعلنت إنديانا ولايةً، أرادوا أن يبنوا مدينة جديدة تكون عاصمةً لها، وتجادل الجميع بشأن أفضل موقع للمدينة. كان الحل الواضح لإرضاء الجميع هو أن تقع في الوسط. تمعّن عددٌ من الأفراد في خريطة ولايتهم الجديدة وتنبّهوا لوجود نهرٍ جارٍ في وسط الولاية تمامًا. وعلى الفور،

مكتبة

قرروا أنه المكان المثالي للعاصمة، لأنّ كل هذا جرى في ١٨١٩ أو ما يُقارب، حين كانت أي مدينة فعلية بحاجة إلى الماء للشحن البحري وما إلى ذلك.

«ثم أعلنوا: سنبني مدينة جديدة! على نهر! وسنتذاكى ونطلق عليها اسم إنديانا بوليس». لم يلاحظوا إلّا بعد إعلانهم أن عمق النهر الأبيض بالكاد يبلغ خمسة عشر سنتيمترًا، وليس بإمكان أيّ زورق كاياك حتّى أن يطفو فوقه، فما بالك بسفينةٍ بخارية. ولفترة بعدها، بقيت إنديانا بوليس أكبر مدينة في العالم لا تقع على مياه ملاحية».

«كيف تعرفين كل هذا أصلًا؟» سألتها.

«أبي مشغوف بالتاريخ». لحظتها، رنّ هاتفها. «اللعنة! لقد استحضرتُه». ألصقت هاتفها على أذنها. «مرحبًا، بابا. نعم، بالتأكيد... لا، لن يمانع.... حسنًا، نعم، سأعود إلى المنزل الساعة السادسة». أعادت هاتفها إلى جيبها واستدارت نحوي، مغمضة عينيها نصف إغماضة من وهج الشمس. «أراد أن يعرف إذا كان بإمكاني مبادلته نوبة مراقبة 'إلينا' لأن أمي ستعمل لساعات إضافية، ولم أضطر للكذب بأنني لست في العمل فعلًا، والآن أبي يعتقد أنني أهتمّ بأختي. هولمزي، كلّ شيءٍ يجري على ما يرام. بدأ مصيرنا يتّضح. نحن على وشك أن نعيش الحلم الأميركيّ، ألا وهو الاستفادة من سوء حظ شخص آخر».

ضحكت، وبدا صوت ضحكتي عاليًا بطريقة غريبة عندما تردّد صداه عبر النهر المهجور. على شجرة نصف مغمورة قريبة من ضفة النهر، انتبهت لنا سلحفاة ذات غطاء أملس وغاصت في الماء. كان النهر يعجّ بالسلاحف.

مكتبة

بعد أول منعطف في النهر، مررنا على جزيرة ضحلة مكوّنة من آلاف حبات الحصى البيض. وقف طائر مالك الحزين أزرق على إطار سيارة قديم باهت اللون، وعندما رآنا، فرد جناحيه وحلّق مبتعدًا. كان أشبه بديناصور البتيروداكتيلوس منه إلى طائر. دفعت بنا الجزيرة إلى قناة ضيّقة على الجزء الشرقي من النهر، لنطفو تحت أغصان أشجار الجمّيز المائلة فوق الماء بحثًا عن أشعة الشمس.

كانت معظم الأشجار لا تزال محتفظة بأوراقها، بعضها مموّج باللون الوردي، أولى علامات الخريف. إلّا أننا عبرنا تحت شجرة ميّتة، خالية من الأوراق ولكنها لا تزال صامدة، ونظرت إلى الأعلى عبر أغصانها التي تشابكت لتقسم السماء الزرقاء الخالية من السحب إلى مضلّعات غير منتظمة.

ما زلت أحتفظ بهاتف أبي. أحتفظ به وبسلك الشحن في صندوق هارولد قرب العجل الاحتياطي. هناك عدد كبير جدًا من الصور على هاتفه لأغصان خالية من الأوراق تقسم السماء، مثل المنظر الذي تأمّلتُه ونحن نطفو تحت شجرة الجميّز تلك. لطالما تساءلت عمّا رآه في ذلك، في السماء المُقسّمة.

في كل حال، كان يومًا رائعًا جدًا ـ أشعة الشمس الذهبية تغمرنا بالدفء الكافي. أنا لست مغرمةً بأن أكون في الطبيعة، لهذا بالكاد أفكر في الطقس؛ ولكن في إنديانا بوليس، ننعم بثمانية أيام إلى عشرة أيام جميلة بحق في العام، وكان هذا أحدها. بالكاد جذّفتُ عندما انعطف النهر غربًا. تلألأ الماء تحت أشعة الشمس، وانتبه لنا زوج من بطّ الغياض وحلّق طائرًا، أجنحته ترفرف بلا توقّف.

أخيرًا، وصلنا إلى بقعة من الأرض سمّيناها «جزيرة القراصنة» عندما كنا صغارًا. كانت جزيرة نهرية بحق، ليست مثل شاطئ الحصى الذي مررنا به سابقًا. هناك أجمات من شجيرات العسلة في جزيرة القراصنة وأشجار عالية بجذوع مترابطة من جرّاء فيضانات الربيع السنوية. ولأن النهر يحتوي على كميات كبيرة من مخلّفات الصرف الزراعي، كانت هناك محاصيل أيضًا: نبتت الطماطم الصغيرة ونبتات فول الصويا في كل مكان، مخصّبة بأفضل سماد بفضل المجاري.

وجّهتُ الزورق نحو الشاطئ المغطّى بالطحالب وغادرناه لنتمشّى. شيء ما عن النهر جعلني وديزي صامتتين، وكأنّ أيًّا منا لم تكن واعية لوجود الأخرى معها، وتجوّلنا في اتجاهين مختلفين.

قضيت جزءًا من عيد ميلادي الحادي عشر هنا. يومها، جهّزت أمي خارطة كنز، وبعد تناول الكيك في المنزل، ركبنا أنا وديزي وأمي في الزورق وجذفنا نحو جزيرة القراصنة. حفرنا بالمجارف عند جذور شجرة ووجدنا صندوقًا صغيرًا مليئًا بعملات الشوكولاتة المغطّاة بالقصدير الذهبي. التقينا دايفيس هناك، مع أخيه الصغير نوا. أتذكّر أنني حفرت حتى ارتطمت مجرفتي بصندوق الكنز البلاستيكي، وسمحت لنفسي بأن أشعر بأنه كنز حقيقي، برغم أنني كنت أدرك أنه غير ذلك. كم كنت رائعة في أداء دور الطفولة وكم أتعثّر اليوم في كون ما أنا عليه.

مشيت على طول طرف الجزيرة حتى وجدتُ ديزي جالسة على شجرة من دون لحاء مخلوعة من جذورها قد استقرّت هناك بعد انحسار فيضان ما. جلست بجوارها ونظرت إلى بركة صغيرة من الماء تحت

أقدامنا يسبح داخلها جراد البحر منطلقًا في كل اتجاه. بدت البركة كأنها تتقلّص ـ لقد كان صيفًا أجفّ من المعتاد، وأشدّ حرارة.

«تتذكّرين حفلة عيد ميلادك هنا؟» سألت.

«نعم»، قلت. أثناء الحفلة، فقد دايفيس، لفترة وجيزة، الرجل الحديدي الذي حمله معه دائمًا. كان بحوزته منذ زمن طويل لدرجة أن جميع الرموز الموضوعة عليه قد انطمست ولم يبق منه إلّا جذع أحمر وأطراف صفر. تذكّرتُ أنه استاء كثيرًا عندما فقده، لكنّ أمي عثرت عليه.

«هل أنتِ على ما يرام يا هولمزي؟»

«نعم».

«هل بإمكانكِ أن تقولي أيّ شيء أكثر من نعم؟»

«نعم»، قلت، وابتسمت قليلًا.

جلسنا لبرهة من الزمن، ثم وقفنا معًا من دون أن نتكّلم ومشينا في المياه التي بلغت رُكبنا حتى وصلنا إلى حافة النهر. كيف لا يضايقني المشي في المياه القذرة في حين أني قبل ساعات وجدت أن قرقرة بطني أمر لا يُطاق. ليتني كنت أعرف الإجابة.

تسلّقت حاجزًا من الصخور المشدودة بسلاسل حديدية للحماية من الفيضانات ومددت يدي لمساعدة ديزي. زحفنا إلى ضفة النهر ووجدنا أنفسنا في غابة من أشجار الجمّيز والإسفندان. على مسافة، رأيت عشب ملعب غولف آل بيكيت المشذّب، ووراءه قصر بيكيت الزجاجي الفولاذي الذي صمّمته مهندسة معمارية شهيرة.

مكتبة

تجوّلنا قليلًا وأنا أحاول التأقلم مع ما حولي، حتى سمعت ديزي تهتف، «هولمزي». تلمّست طريقي عبر الأشجار باتجاهها. كانت قد عثرت على كاميرا الرؤية الليلية، مرفوعة على شجرة، على علوّ أكثر من متر بقليل فوق الأرض تقريبًا. كانت حلقة سوداء، قد يبلغ قطرها سنتمترين ونصف سنتمتر تقريبًا، أحد تلك الأشياء التي لا تنتبه لها مطلقًا إلّا إذا كنت تعرف عمّا تبحث.

فتحت هاتفي وأوصلته بكاميرا الرؤية الليلية التي لم تكن محميّة بكلمة سر. خلال ثوان، بدأ تحميل الصور على هاتفي. حذفتُ أول صورتين، وهما صورتان لنا التقطتهما الكاميرا، وتجاوزت عشرات الصور الأخرى من الأسبوع الماضي ـ غزلان وحيوانات القيوط والراكون والبوسوم، كلها صور التُقطت في النهار أو مجرد ظلال ليلية خضر بعيون بيض لامعة.

«لا أريد أن أفزعك، ولكن هناك عربة غولف متوجّهة نحونا»، قالت ديزي بهدوء. نظرت. كانت العربة لا تزال بعيدة عنا. اطّلعت بسرعة على المزيد من الصور حتى وصلت إلى ٩ أيلول/سبتمبر، وهناك، بدرجات من اللون الأخضر، رأيت ظهر رجل ممتلئ يرتدي قميصًا مسائيًا مقلّمًا. الوقت: ١:٠١:٠٣ صباحًا. التقطتُ صورة للشاشة.

«لقد لمحنا الرجل بالتأكيد»، قالت ديزي بقلق.

نظرت إليها مرة أخرى وتمتمت، «سأسرع». أعدتُ تصفّح الصور للاطّلاع على الصورة السابقة، إلّا أن ظهورها على الشاشة استغرق وقتًا طويلًا. سمعتُ خطوات ديزي تركض مبتعدة، ولكنني بقيت، بانتظار الصورة. شيءٌ غريب أن أحتفظ بهدوئي وأنا أشعر بأعصاب

مكتبة

ديزي تتهاوى، إلّا أنّ الأشياء التي تسبّب التوتر للناس لم تخفني يومًا. لا أخاف من رجال في عربات الغولف أو من أفلام الرعب أو من قطار الملاهي. لم أكن أعرف ما الذي يخيفني بالتحديد، ولكنه بالتأكيد لم يكن هذا. بدأت الصورة تظهر بالحركة البطيئة، نقطةً نقطة. حيوان القيوط. رفعت بصري، رأيت الرجل في عربة الغولف ينظر إليّ، وانطلقت راكضة.

ركضت باتجاه النهر، ونزلت متسلّقة الحائط الموازي لضفة النهر، لأجد ديزي واقفة فوق الزورق المقلوب، ملوّحة بحجر كبير فوق رأسها.

«ماذا تفعلين بحق السماء؟» سألتها.

«أيًّا كان ذلك الرجل، فقد رآكِ بالتأكيد»، قالت، «لهذا، أصنع لك ذريعة».

«ماذا؟»

«لا خيار لنا هنا إلّا اللجوء إلى ذريعة إنقاذ فتاة في محنة، يا هولمزي»، قالت، وقذفت الحجر بكل قوتها على الزورق، ما قشّر دهانه الأخضر وعرّى الألياف الزجاجية تحته. ثم أعادت قلب الزورق، وبدأ الماء يتسرّب فيه فورًا. «حسنًا، سأختبئ الآن وستتحدثين أنت مع ذلك الشخص الآتي في عربة الغولف».

«ماذا؟ لا، ولن!»

«يجب ألّا يكون هناك أي رفاق مع فتاة تمر في محنة»، قالت.

«لا. ولن».

عندها انطلق صوتٌ مناديًا من أعلى الحائط. «هل أنتما بخير

مكتبة

هناك؟» رفعت نظري ورأيت رجلًا عجوزًا نحيلًا بتجاعيد عميقة على وجهه، مرتديًا بدلة سوداء وقميصًا أبيض.

«زورقنا»، قالت ديزي. «مثقوب. نحن صديقتا دايفيس بيكيت. ألا يعيش هنا؟»

«أنا لايل»، قال الرجل. «رجل الأمن. وأستطيع إعادتكما إلى المنزل».

مكتبة

٤

أخذنا لايل في عربة الغولف على طريق أسفلتي ضيق بطول ملعب الغولف، عبورًا بكوخ خشبي كبير أمامه لافتة تعلن أنه «الكوخ».

لم أزر مسكن آل بيكيت منذ أعوام، أصبح خلالها أكثر فخامة. بدت المساحات الرملية على ملعب الغولف مجروفة، وطريق العربات الذي قطعناه خالٍ من التصدّعات والمطبّات، بينما اصطفّت أشجار الإسفندان الحديثة الغرس على امتداد الطريق. ولكن أينما نظرت العين، يمتد العشب أمامها إلى ما لا نهاية ـ عشبٌ خالٍ من الأعشاب الضارّة، مقصوص حديثًا بطريقة هندسية. بدا مسكن آل بيكيت قاحلًا، وبلا نهاية ـ مثل إسكان حديث البناء لم يسكنه أحدٌ بعد. كم أحببته.

بينما نحن في طريقنا داخل العربة، بدأت ديزي محادثة جريئة. «أنت من يشرف على الأمن هنا؟»

مكتبة

«أنا الأمن هنا»، أجابها.

«منذ متى تعمل مع السيد بيكيت؟»

«منذ زمن كافٍ لأعرف أنك لست صديقة دايفيس»، أجاب.

ديزي، التي كانت تنقصها القدرة على الشعور بالإحراج، لم تُثبَط. «هولمزي هي صديقته. هل كنت تعمل يوم اختفى بيكيت؟»

«السيد بيكيت لا يحب بقاء الموظفين في المسكن بعد حلول الظلام أو قبل الفجر»، أجاب.

«كم موظفًا هناك بالضبط؟»

أوقف لايل عربة الغولف. «من الأفضل أن تعرفا دايفيس، وإلّا فسآخذكما إلى مقر الشرطة وأسجنكما بتهمة التعدي على ممتلكات الغير».

انعطفنا ورأيت مجمّع بركة السباحة، مساحة زرقاء متلألئة والجزيرة نفسها التي أتذكّرها من طفولتي، إلّا أنها الآن مغطّاة بقبّة جيوديسية زجاجية. زحاليق الماء ـ أسطوانات تنعطف ويلتفّ بعضها حول بعض ـ ما زالت هناك أيضًا، وإن كانت جافّة.

في فناء على جانب بركة السباحة، اصطفّت دزينة مقاعد خشبية، تغطي كلًّا منها منشفةٌ بيضاء تكسو المخدّات البيض فوقها. واصلنا القيادة حول المسبح نحو فناء آخر، حيث جلس دايفيس بيكيت متّكئًا على مقعد، مرتديًا قميص المدرسة البولو وبنطلونًا كاكيًا، وممسكًا بكتاب بزاوية تحجب عنه الشمس وهو يقرأ.

مكتبة

عندما سمع صوت العربة، جلس ونظر إلينا.

ساقاه نحيلتان لفحتهما الشمس وركبتاه بارزتان، وكان يرتدي نظارات بإطار بلاستيكي وقبّعة لفريق «إنديانا بايسيرز»(*).

«آزا هولمز؟» سأل.

وقف. كانت الشمس وراءه لهذا بالكاد تمكّنتُ من رؤية وجهه. ترجّلت من عربة الغولف ومشيت باتجاهه.

«مرحبًا»، قلت. لم أعرف إذا كان عليّ أن أحتضنه، وبدا أنه هو أيضًا لم يعرف إذا كان عليه احتضاني، لهذا وقفنا من دون أن نتلامس، وهذه، بصراحة، طريقتي المفضّلة لإلقاء التحية.

«لمن أدين بهذا الشرف؟» سأل، صوته خال من التعبير، وحيادي، ولا يمكن التكهّن بمعانيه.

تقدّمت ديزي من ورائي ومدّت يدها لتصافح دايفيس بحرارة. «ديزي راميرز، صديقة هولمزي المقرّبة. هناك ثقب في زورقنا».

«اصطدمنا بصخرة ورسونا على جزيرة القراصنة». قلت.

«هل تعرف هؤلاء الأشخاص؟» سأل لايل.

«نعم. كل شيء على ما يرام. شكرًا يا لايل. هل بإمكاني أن أحضر لكما أي شيء؟ ماء؟ مشروب دكتور بيبر؟»

«دكتور بيبر»، قلت، بشيء من الحيرة.

«ألم يكن ذلك مشروبك الغازي المفضّل؟»

(*) Indiana Pacers هو فريق كرة سلّة من إنديانا بوليس.

مكتبة

رمشتُ لثانية باتجاهه ثم قلت، «نعم. سآخذ مشروب دكتور بيبر».

«لايل، هل بإمكانك أن تحضر لنا ثلاثة مشروبات دكتور بيبر؟»

«بالتأكيد، سيدي»، أجاب لايل، وانطلق مغادرًا في عربة الغولف.

رمتني ديزي بنظرة تقول، أخبرتك أنه سيتذكّر، ثم مشت مبتعدة. لم يبدُ أن دايفيس قد لاحظ. كان هناك شيء خجولٌ ولطيف بالطريقة التي نظر بها نحوي، لمحة سريعة ثم يزيح نظره عن وجهي، عيناه البنيتان الكبيرتان أكبر من حجمهما الطبيعي وراء نظاراته. عيناه، أنفه، ملامح وجهه كلها بدت أكبر منه شيئًا ما، وكأنها واصلت نموّها بينما بقي وجهُه وجه طفل.

«لا أعرف ما عليّ أن أقوله»، قال. «أنا... لست بارعًا فِي الدردشة».

«حاول أن تقول ما يخطر على بالك»، قلت. «وهو الشيء الذي لا أفعله أبدًا».

ابتسم وهزّ كتفيه. «حسنًا. أنا أفكر، أتمنّى أنها لا تسعى وراء المكافأة».

«أيّ مكافأة؟» سألت، بطريقة غير مقنعة.

جلس دايفيس على أحد المقاعد الخشبية، وجلست مقابلة له. اتكأ إلى الأمام، مرافق هزيلة على ركب هزيلة. «فكّرتُ فيكِ قبل أسبوعين»، قال. «عندما اختفى، صرتُ أسمع اسمه في الأخبار دائمًا، وكانوا يقولون اسمه بالكامل ـ راسيل دايفيس بيكيت ـ وفكرت، تعرفين، هذا اسمي. كان أمرًا غريبًا جدًا، أن أسمع مذيعي الأخبار يقولون: تفيد التقارير بأن راسيل دايفيس بيكيت مفقود، لأنني لستُ مفقودًا».

«وهذا جعلك تفكر فيّ؟»

«نعم، لا أعرف. أتذكّرك تقولين لي ـ سألتكِ مرة عن اسمك وقلت لي إنّ أمك سمتك آزا لأنها أرادت أن يكون لك اسمك الخاص، صوت تجعلينه لك».

«في الواقع، كان ذلك أبي». ما زلت أتذكّر أبي يحدّثني عن اسمي ويقول لي، إنه يغطّي حروف الأبجدية كلها، لأننا أردنا أن تعرفي أن باستطاعتك عمل أي شيء. «بينما، أبوك..». قلت.

«نعم، جعلني جونيور. حكم عليّ بالتصغير».

«أنت لست اسمك»، قلت.

«أنا اسمي بالتأكيد. ليس بإمكاني ألّا أكون دايفيس بيكيت. ليس بإمكاني ألّا أكون ابن أبي».

«معك حق»، قلت.

«وليس بإمكاني ألّا أكون يتيمًا».

«آسفة».

التقت عيناه المتعبتان بعينيّ. «تواصل معي عدد كبير من الأصدقاء القدامى في الأيام الأخيرة، وأنا لست مغفلًا. أعرف السبب. ولكنني لا أعرف أين أبي».

«الحقيقة هي ـ» قلت، ثم توقّفت عندما لاح لنا ظل. التفتّ لأجد ديزي تقف على مقربة مني.

«الحقيقة هي»، قالت، «أننا كنا ننصتُ إلى الراديو عندما سمعنا

تقريرًا إخباريًا عن أبيك، وعندها قالت لي هولمزي إنها كانت مغرمة بك وأنتما صغيران».

«ديزي»، تلعثمت.

«فقلت، فلنذهب لرؤيته. أراهنك أنه حب حقيقي. لهذا دبّرنا أمر تحطّم زورقنا، ثم تذكّرتَ أنها تحب مشروب دكتور بيبر، وهذا هو الحب الحقيقي بالتأكيد. تمامًا مثل مسرحية العاصفة، ولهذا سأترككما الآن لتعيشا في راحة وهناء». اختفى ظلّها، لتحل محلّه أشعة الشمس الذهبية.

«هل هذا ـ حقًا؟» سأل دايفيس.

«ليس مثل العاصفة تمامًا»، قلت. لكنني لم أتمكّن من إخباره الحقيقة. على كل حال، لم يكن الأمر كذبة. ليس كله. «أعني، كنا طفلين».

بعد دقيقة، قال، «لا تبدين حتى كأنك الشخص نفسه».

«ماذا؟»

كنت نحيلة مثل العود، والآن أنت..».

«ماذا؟»

«مختلفة. بالغة». بدأت معدتي تتقلّب، ولم أعرف السبب. لم أفهم جسمي أبدًا ـ هل هو خائف أم متحمّس؟

كان دايفيس ينظر إلى الأفق ورائي، إلى خط الشجر على طول حافة النهر. «أنا بالفعل آسفة بشأن أبيك»، قلت.

مكتبة

هزّ كتفيه. «أبي شخصٌ دنيء. هرب قبل أن يُلقى القبض عليه لأنه جبان». لم أعرف كيف أردّ على ذلك. الطريقة التي يتحدث بها الناس عن آبائهم تجعلك تشعر بالسعادة تقريبًا لأنه لا أب لك. «أنا لا أعرف مكانه حقًا، يا آزا. وإذا كان هناك من يعرفون، فلن يتفوّهوا بأي شيء لأن بإمكانه أن يدفع لهم أكثر من قيمة المكافأة. أعني، مئة ألف دولار؟ مئة ألف دولار ليست مبلغًا كبيرًا». رمقتُه بنظرة. «آسف»، قال. «ربما كان أحرى بي ألّا أقول ذلك».

«ربما؟»

«حسنًا، نعم»، قال. «أعني فقط... سيتنصّل من كل شيء. إنه يتنصّل من كل شيء دائمًا».

كنت على وشك أن أردّ عندما سمعت ديزي عائدة، وبرفقتها رجل ـ طويل، عريض المنكبين، يرتدي قميص بولو وبنطلونًا كاكيًا متطابقي اللون.

«سوف نلتقي توَتارا»، قالت ديزي بحماسة.

وقف دايفيس وقال، «آزا، هذا مالك مور، خبيرنا في علم الحيوان». قال «خبيرنا» وكأنها كلمة من المعتاد التفوّه بها في سياق محادثة يومية، وكأنّ معظم الأشخاص الذين بلغوا مستوى معيّنًا في الحياة عيّنوا لديهم خبيرًا في علم الحيوان.

وقفت وصافحت مالك. «أتولّى رعاية التوَتارا»، شرح لي. كان يبدو أن الكل يتوقع أني أعرف ما هي التوَتارا. مشى مالك إلى حافة المسبح ورفع بابًا مخفيًا في بلاط الفناء، وضغط زرًّا، فظهر ممرّ مشبّك مصنوع من مادة الكروم من حافة البركة وتقوّس فوق الماء ليصل إلى

مكتبة

الجزيرة. قبضت ديزي على ذراعي وهمست، «هل هذه حياة واقعية؟» ثم لوّح خبير علم الحيوان بيده بطريقة دراماتيكية مشيرًا لنا كي نمشي على الجسر.

تبعَنا مالك فوق الجسر المعدني إلى القبّة الجيوديسية، ثم مرّر بطاقة قرب الباب الزجاجي. سمعت صوت قفل يفتح، ثم فُتح الباب. خطوت إلى الداخل وأصبحتُ فجأة في مناخ استوائي أدفأ على الأقل بعشرين درجة وأشدَّ رطوبة من الطقس الخارجي.

وقفت أنا وديزي قرب المدخل بينما انطلق مالك في الأرجاء وظهر أخيرًا يحمل سحلية كبيرة يبلغ طولها سبعين سنتمترًا تقريبًا، وقد التفّ ذيلها الأشبه بذيل التنين حول ذراع مالك.

«بإمكانك التربيت عليها»، قال مالك، وهذا ما فعلته ديزي، ولكنني لمحتُ آثار خدش على يد مالك ما يدلّ على أن السحلية لا تحبّ التربيت كثيرًا، لهذا عندما أدارها نحوي، قلت، «أنا لا أحب السحالي».

شرح لي مالك عندها بتفاصيل مملّة أن توا (كان هذا اسمها) ليست سحلية على الإطلاق، بل مخلوق بخصائص وراثية مميزة يعود تاريخه إلى الحقبة التاريخية الوسطى قبل مئتي مليون عام، وأنها بالأساس ديناصور حي، وأن بإمكان التوَتارا أن تعيش مئة وخمسين عامًا على الأقل، وأن جمع توَتارا هو توَتارا، وأنها الجنس الوحيد الباقي من سلسلة المنقاريات، وأنها مهدّدة بالانقراض في موطنها الأصلي نيوزيلندا، وأنه كتب موضوع رسالة الدكتوراه عن معدّل التطور الجزيئي للتوَتارا، و... و... و...، حتى انفتح الباب ثانيةً،

مكتبة

وقال لايل، «مشروب دكتور بيبر، سيدي». أخذتُها منه وناولت واحدةً لدايفيس وواحدة لديزي.

«هل أنت متأكدة أنك لا تريدين التربيت عليها؟» سأل مالك.

«أنا أيضًا أخاف من الديناصورات». أضفت شارحة.

«تعاني هولمزي من معظم المخاوف الشائعة»، قالت ديزي وهي تربّت على توا. «على كُلٍّ، يجب أن نغادر. تنتظرني مهمة مجالسة الصغار».

«سأوصلكما»، قال دايفيس.

أخبرنا دايفيس أن عليه أن يذهب إلى المنزل أولًا، وأردت أن أنتظره في الخارج، إلّا أن ديزي دفعتني إلى الأمام بشدّة حتى وجدت نفسي أمشي بمحاذاته.

فتح دايفيس الباب الأمامي، وهو عبارة عن لوح زجاجي هائل يبلغ علوّه ثلاثة أمتار على الأقل، ودخلنا غرفة ضخمة مبلّطة بالرخام. عن يساري، كان نوا بيكيت متمدّدًا على أريكة، منهمكًا في لعبة فيديو عن صراع الفضاء على شاشة ضخمة. «نوا»، قال دايفيس، «تتذكر آزا هولمز؟»

«أهلًا»، قال، من دون أن يلتفت عن الشاشة.

صعد دايفيس الدرج الرخامي بسرعة وتركني وحدي مع نوا ـ أو هكذا ظننت ـ حتى قالت امرأة لم أرها، «هذه لوحة أصلية لبيكاسو». كانت ترتدي ملابس بيضًا، وتقطّع التوت في مطبخ ساطع البياض.

مكتبة

«أوه، واو»، قلت متابعة نظرة عينيها إلى اللوحة المعنية. رجلٌ من الخطوط المتموّجة يركب حصانًا من الخطوط المتموّجة.

«وكأنني أعمل في متحف»، قالت. نظرتُ إليها وفكرت في ملاحظة ديزي عن الزي الموحّد.

«نعم. إنه بيت جميل»، قلت.

«لديهم أحد أعمال روشنبرغ أيضًا»، قالت، «في الطابق العلوي». أومأتُ، برغم أني لا أعرف من يكون. على الأرجح أن ميكال يعرفه. «تستطيعين مشاهدته». أومأتْ باتجاه الدرج، فصعدت، ولكني لم أتوقف للتمعن في الشكل الذي تم تصميمه من القمامة المعاد تدويرها والموضوع أعلى الدرج، بدلًا من ذلك، ألقيت نظرة سريعة داخل أول باب مفتوح مررت به. كان يبدو أنها غرفة دايفيس، نظيفة تمامًا. ما زالت خطوط المكنسة الكهربائية على السجادة إثر تنظيفها. سرير كبير الحجم بمخدّات كثيرة، وغطاء أزرق داكن. في إحدى زوايا الغرفة، قرب حائط من النوافذ، تلسكوب، موجّه إلى الأعلى نحو السماء. صور عائلته على مكتبه ـ كلّها من سنوات مضت، عندما كان صغيرًا. صور «مبروزة» على الحائط لحفلات غنائية ـ البيتلز، ثيلونيس مونك، أوتيس ريدينغ، ليونارد كوهن، بيلي هوليداي. رفٌّ مرصوصٌ بالكتب بأغلفة من الورق المقوّى، رف كامل من مجلّدات القصص المصوّرة داخل أكياس بلاستيكية. وعلى طاولة السرير الجانبية، بجوار كومة من الكتب، الرجل الحديدي.

التقطتُه، وقلّبته بين يديّ. كان بلاستيك إحدى ساقَيْه مهترئًا من

الخلف، تاركاً وراءه مكانًا فارغًا، إلّا أن الذراعين والساقين ما زالت تتحرّك.

«انتبهي»، قال من ورائي. «أنت تمسكين الشيء الوحيد الذي أحبه بالفعل».

أعدت الرجل الحديدي إلى مكانه واستدرت. «آسفة»، قلت.

«مررتُ أنا والرجل الحديدي بتجارب قاسية معًا»، قال.

«يجب أن أبوح لك بسر»، قلت. «طوال عمري لم أُعجب يومًا بالرجل الحديدي».

تبسّم دايفيس. «وبهذا تنتهي صداقتنا يا آزا». ضحكتُ وتبعتُه إلى الطابق الأرضي. «روزا، هل بإمكانك البقاء حتى أعود؟»

«نعم، بالتأكيد»، قالت. «هناك دجاج تشيلي وسلطة للعشاء في الثلاجة».

«شكرًا»، قال دايفيس. «نوا، سأعود في غضون عشرين دقيقة. حسنًا؟»

«حسنًا»، قال نوا، وهو لا يزال محلّقًا في الفضاء الخارجي.

بينما نحن في طريقنا إلى سيارة دايفيس الكاديلاك إسكاليد، التي كانت ديزي متّكئة عليها، سألت، «أهي مدبّرة المنزل؟»

«هي مديرة المنزل. هذا عملها منذ ولدت. هي ما لدينا الآن عوضًا عن الأب والأم، نوعًا ما».

مكتبة

«ولكنها لا تعيش معكما؟»

«لا، تغادر كل يوم الساعة السادسة، فهي ليست تمامًا مثل الأب أو الأم». فتح دايفيس أبواب السيارة. ركبت ديزي في المقعد الخلفي وقالت لي أن أجلس في المقعد الأمامي. وأنا ألتفُّ حول مقدمة السيارة، لمحتُ لايل يقف بجوار عربة الغولف ويتحدث مع رجل يعمل على جرف أولى أوراق الخريف الساقطة، إلّا أنه كان يحدّق بدايفيس وبي.

«سأوصلهما إلى المنزل»، أخبره دايفيس.

«حفظتك السلامة، سيدي»، أجاب لايل.

حالما أُغلقت أبواب السيارة قال، «الجميع يراقبني. يا له من أمر مرهق».

مكتبة الرمحي أحمد

«آسفة»، قلت.

فتح دايفيس فمه وكأنه يوشك أن يتكلّم، تريّث مفكّرًا، وتابع بعد لحظة، «تعرفين كيف نشعر في المرحلة الإعدادية بأنّ الكلّ يحدق بنا طوال الوقت ويتحدثون عنّا بالسر؟ هذا مثل ذلك الشعور في الإعدادية، إلّا أن الكل بالفعل يحدق بي ويتهامس عني».

«من المحتمل أنهم يعتقدون أنك تعرف مكان أبيك»، قالت ديزي.

«لا أعرف. ولا أريد أن أعرف». قالها بتأكيد، بلا تردّد.

«لمَ لا؟» سألت ديزي.

مكتبة

كنت أراقب دايفيس وهو يتكلّم، ولمحتُ شيئًا يعتري تعابير وجهه ولا يزول تمامًا. «في هذه المرحلة، أفضل شيء بإمكان أبي أن يفعله لنوا ولي هو أن يظل غائبًا. فهو لم يهتمّ بنا يومًا على أي حال».

برغم أن النهر هو فقط ما يفصل بيننا، استغرق منا الالتفاف للعودة إلى منزلي عشر دقائق لأن هناك جسرًا واحدًا فقط في جادّتنا. قضينا الوقت صامتين، في ما عدا توجيهاتي من حين لآخر. عندما توقفنا أمام مدخل بيتنا أخيرًا، طلبتُ منه هاتفه وخزّنتُ فيه رقم هاتفي. غادرت ديزي من دون أن تقول مع السلامة، وكنت على وشك أن أفعل الشيء ذاته، ولكن عندما أعدت إليه هاتفه، أمسك دايفيس بيدي اليمنى وأدار باطن كفّي للأعلى. «أتذكّر هذا»، قال، وتابعتُ نظرة عينيه إلى اللصقة الطبية التي تغطّي رأس إصبعي. سحبت يدي وأغلقت قبضتي.

«هل يؤلمك؟» سأل.

لسبب ما، أردت أن أخبره الحقيقة. أن يؤلمك شيءٌ ما أو لا أمرٌ لا أهمية له.

«هذا شعارٌ رائعٌ للحياة»، قال.

ابتسمت. «نعم، لا أعرف. عليّ أن أذهب».

قبل أن أغلق الباب قال، «سرتني رؤيتك يا آزا».

«نعم»، قلت. «ورؤيتك أيضًا».

مكتبة

٥

أثناء رحلتنا في حضن هارولد الدافئ متوجّهتين إلى شقة ديزي، لم تتوقّف عن الكلام عن الوله الذي كانت متأكدة أنه يستعر فيّ، «هولمزي، أنت متوهّجة. أنت مشعّة. أنت مبتسمة».

«لستُ كذلك».

«بلى أنت كذلك».

«بصراحة، لا أستطيع حتى أن أقول إنه وسيم».

«هو في الخانة المتوسطة»، قالت. «وسيم بدرجة كافية تجعلني مستعدة لقبوله. مشكلة الصبيان هي أن تسعة وتسعين بالمئة منهم بالكاد مقبولين. إذا أقنعتهم بارتداء الملابس الملائمة والاهتمام بنظافتهم، والوقوف منتصبين والإصغاء إليك وعدم التغابي، فعندئذٍ يصبحون مقبولين تمامًا».

«أنا لا أتطلّع إلى مرافقة أيّ شخص». أعرف أن الكثيرين يتفوّهون

مكتبة

بذلك غالبًا بينما يتوقون في السر لشريك عاطفي، ولكنني كنت أعني ما قلت. شعرتُ بالانجذاب إلى بعض الأشخاص، بالتأكيد، وفكرة أن أكون مع أحدهم تروقني، إلّا أن الميكانيكية الفعلية لتلك العملية لا تناسبني. مثلًا، بعض عناصر العلاقات العاطفية التي تقلقني تشمل ١. التقبيل؛ ٢ الاضطرار للتفوّه بما هو مُرْضٍ لتجنّب إيذاء المشاعر؛ ٣. التفوّه بالمزيد من الأشياء المؤذية عند محاولة الاعتذار؛ ٤. الجلوس في دار سينما والاضطرار إلى الإمساك باليدين حتى بعد أن تتعرّق اليدان ويختلط العرق بعضه ببعض؛ و٥. الجزء الذي يقولون فيه، «فيمَ تفكرين؟» ويتوقعون منك أن تقولي، «أفكر فيك يا حبيبي»، بينما أنت في الواقع تفكرين في أن الأبقار ما كانت لتبقى على قيد الحياة لولا وجود البكتيريا في أحشائها، وأن ذلك يعني أن الأبقار لا تعيش كأشكال حياة مستقلة، ولكن هذا شيء لا تستطيعين فعلًا التفوّه به بصوت عال، لهذا فأنتِ مجبرة على الاختيار بين الكذب أو أن تظهري غريبة الأطوار.

«لكنني أريد أن أرافق شخصًا ما»، قالت ديزي. «ومستعدة لتجربة حظي مع الملياردير اليتيم الصغير، إلّا أنه لم يكفّ عن التحديق فيك. بالمناسبة، عندي لك سؤال مدهشّ: خمّني لمن ستؤول مليارات بيكيت عندما يموت؟»

«دايفيس ونوا».

«لا»، قالت ديزي. «خمّني مرة أخرى».

«خبير علم الحيوان».

«لا».

مكتبة

«أخبريني».

«خمّني».

«حسنًا. إليكِ».

«للأسف، لا، وهذا ليس عدلًا. أنا مليارديرة بلا مليارات يا هولمزي. عندي روح من يمتلك طائرة خاصة، وحياة مستخدم المواصلات العامة. إنها مأساة حقيقية. ولكن، لا، لست أنا من ستؤول إليه الأموال، ولا دايفيس. ولا خبير علم الحيوان. بل التوَتارا».

«على مهلك. ماذا؟»

«التوَتارا الملعونة، يا هولمزي. أخبرني مالك أنه أمرٌ يعرفه الكل وهو بالفعل كذلك. اسمعي». أمسكت هاتفها. مقال جريدة إنديانا ستار من العام الماضي. «صَعَق الملياردير راسيل بيكيت، رئيس ومؤسّس شركة بيكيت للأعمال الهندسية، الجمهورَ الرفيع ليلة أمس خلال حفل جوائز إنديانا بوليس عندما أعلن أن جميع ممتلكاته ستؤول إلى حيوانه الأليف التوَتارا، قائلًا إن تلك المخلوقات التي تعيش لأكثر من مئة وخمسين عامًا «حيوانات سحرية». صرّح بيكيت بأنه أنشأ مؤسّسة لدراسة التوَتارا الخاصة به وتقديم أفضل رعاية ممكنة لها. «فمن خلال البحث في أسرار توا»، قال مشيرًا إلى حيوانه الأليف باسمه، «سيتعلّم البشر سر الحياة الطويلة ويفهمون بصورة أفضل تطوّر الحياة على الأرض». وعندما طلب منه مراسل جريدة ستار أن يؤكّد عزمه على ترك كامل ممتلكاته في صندوق ائتمان لمنفعة حيوان واحد، أكّد بيكيت، «سوف تقتصر منفعة ثروتي على توا، وتوا فقط ـ إلى أن تموت. بعد ذلك، ستودع الثروة في صندوق ائتمان لمنفعة التوَتارا في

مكتبة

كل مكان». كما أفاد ناطق باسم شركة بيكيت للأعمال الهندسية بأن «شؤون بيكيت الخاصة لا تأثير لها في اتجاه الشركة». «لا شيء يقول سحقًا لك ولأبنائك مثل ترك ثروتك لسحلية».

«تذكّري أنها ليست سحلية»، أوضحتُ لها.

«هولمزي، ذات يوم ستفوزين بجائزة نوبل للحذلقة المدهشة، وسأكون فخورة بك».

«شكرًا»، قلت. وصلت إلى المكان الذي تقع فيه شقة ديزي وركنت هارولد. «إذن، إذا توفي والد دايفيس، فلن يحصل هو وأخوه على أي شيء؟ ألَيس ملزمًا على الأقل بدفع مصاريف تعليم أبنائه في الجامعة أو بشيء من هذا القبيل؟»

«لا أدري»، قالت، «إلّا أنّ ذلك يجعلني أعتقد أن دايفيس سيسلّم أباه حتمًا لو أنه يعرف مكانه».

«نعم»، قلت. «هناك من يعرف. لا بُدّ أنه احتاج إلى المساعدة، أليس كذلك؟ لا يستطيع التلاشي هكذا بكل بساطة».

«نعم، ولكنْ هناك الكثير من المتواطئين المحتمَلين. لدى بيكيت مئات الموظفين. ومن يعرف عدد العاملين في مسكنه؟. أقصد، عندهم خبير في الحيوان».

«من المزعج أن يعيش كل هؤلاء الأشخاص في منزلك طوال اليوم. أشخاص ليسوا من عائلتك لكنهم يظلّون حولك باستمرار».

«بالفعل، يا هولمزي، كيف يمكن لأي شخص أن يتحمّل حماسة الخدم؟» ضحكتُ، وصفّقت ديزي وقالت، «حسنًا. قائمة الأشياء التي عليّ القيام بها: محاولة الاطلاع على الوصايا. الحصول على تقرير

مكتبة

الشرطة. قائمة الأشياء التي عليكِ القيام بها: الوقوع في غرام دايفيس، وهو ما جرى تقريبًا. شكرًا لتوصيلي؛ حان وقت التظاهر بأنني أحبّ أختي». حملت حقيبتها، نزلت من هارولد، وأغلقتْ بابه الغالي وراءها بقوة.

عندما عدتُ إلى المنزل، شاهدتُ التلفزيون مع أمي، ولكنني لم أستطع التوقف عن التفكير في دايفيس وهو ينظر إلى إصبعي، ممسكًا يدي في يده.

كانت تتملّكني أفكار تسمّيها د. كارين سينغ «جامحة»، ولكن عندما قالتها أول مرة، اعتقدت أنها تقول «اجتياحية»، وهذا يروقني أكثر، إذ يبدو أن هذه الأفكار، شأنها شأن الأعشاب الاجتياحية، تغزو محيطي الحيوي آتية من بقاعٍ بعيدة، ثم تنتشر بطريقة يصعب التحكم فيها.

يُفترض أنها أفكارٌ تراود الجميع ـ أن تنظر من فوق جسر ويخطر لك من حيث لا تدري أن بإمكانك القفز. وعندها، إذا كنت مثل غالبية الناس، فستفكّرين، يا لها من فكرة غريبة، وتمضي في حياتك. إلّا أن الفكرة الاجتياحية تتغلّب على البعض، طاردةً كل الأفكار الأخرى حتى تبقى هي فكرتك الوحيدة، الفكرة التي تفكر فيها أو تحاول تجاهلها طوال الوقت.

تشاهد التلفزيون مع أمك ـ برنامجًا عن أشخاصٍ يسافرون عبر الزمن لحلّ الجرائم ـ وتتذكّر شخصًا وهو يمسك يدك، ينظر إلى إصبعك، وتخطر لك عندها فكرة: يجب أن تزيل اللصقة الطبيّة لتتأكّد إن كان هناك التهاب.

أنت لا تريد فعل ذلك حقًّا؛ هي فقط فكرة اجتياحية. هذه الأفكار تراود الجميع. لكنك لا تستطيع إخراس فكرتك. وبما أنك جرّبت كمًّا كبيرًا من جلسات السلوك الإدراكي العلاجية، تقول لنفسك، أنا لست أفكاري، برغم أنك لست متأكّدًا في الصميم ممّا يعنيه ذلك تمامًا. ثم تقول لنفسك اضغط إشارة الـ× الصغيرة في أعلى زاوية أفكارك واجعلها تتلاشى. وقد تختفي لحظة؛ تعود إلى منزلك، تجلس على الأريكة، بجوار أمك، فيقول عقلك، حسنًا، لكن لحظة. ماذا لو أن إصبعك ملتهبة؟ لمَ لا تتأكد فقط؟ لم تكن الكافتيريا أكثر الأماكن نظافة لإعادة فتح ذلك الجرح فيها. كما أنك كنت في النهر.

أنت متوتر الآن، لأنك مررت بهذا السيناريو آلاف المرات، ولأنك تريد انتقاء الأفكار التي تُدعى أفكارك. لقد كان النهر قذرًا بالفعل. هل وصلت مياه النهر إلى يدك؟ لن يتطلّب الأمر الكثير. حان وقت إزالة اللصقة الطبية. تقول لنفسك إنك كنت حذرًا ولم تلمس الماء، ولكن نفسك تجيب، لكن ماذا لو أنك لمست شيئًا قد لامس الماء، ثم تخبر نفسك أنك شبه متأكّد أن الجرح غير ملتهب، إلّا أن الحيّز الذي خلقته من هذا التردّد يمتلئ بالفكرة، عليك أن تتأكّد إن كان هناك التهاب؛ افحصه حتى نهدأ، لكنك تستسلم وتذهب إلى الحمام وتزيل اللصقة الطبية وتكتشف أنه ما من دم، لكن قد يكون هناك بعض الرطوبة على باطن اللصقة. تمسك باللصقة أمام ضوء الحمام الأصفر، نعم، تبدو رطبة بالتأكيد.

من المحتمل أنها عرق، طبعًا، أو قد تكون ماء من النهر، أو أسوأ من ذلك، إفرازات قيحية، وهي الدلالة الأكيدة على وجود التهاب، فتعثر على معقّم اليدين في خزانة الأدوية وتعصر بعضه على طرف

مكتبة

إصبعك، ويلسعك ذلك بشدّة، ثم تغسل يديك بإمعان وأنت تُنشد أبجد هوّز حتى تتأكد أنك فركت لعشرين ثانية كاملة كما ينصح مركز مكافحة الأمراض، وتجفّف يديك بعناية بمنشفة. ثم تغرس ظفر إبهامك في الجرح المتكلّس حتى يبدأ بالنزف، وتبدأ بعصر الدم حتى يتوقّف تمامًا، ثم تنشّف الجرح بمنديل. تُخرج لصقة طبية من جيب بنطلونك الجينز، حيث ما من نقص منها أبدًا، وتضع اللصقة بعناية. تعود إلى الأريكة لمشاهدة التلفزيون، ولدقائق معدودة أو عديدة، تشعر برعشة مع تلاشي التوتر، الراحة الناجمة عن الاستسلام لشياطين نفسك.

ثم تمر دقيقتان أو خمس دقائق أو ستمئة دقيقة قبل أن تبدأ بالتفكير، مهلًا، هل عصرت كل القيح؟ هل كان هناك قيح أم أنه كان عرقًا فقط؟ إذا كان قيحًا، فعليك عصره من الجرح مرة ثانية.

تضيقُ اللولبة، على هذا المنوال، إلى الأبد.

مكتبة

٦

بعد المدرسة في اليوم التالي، انضممت إلى الحشود التي تملأ ممرات ثانوية النهر الأبيض المزدحمة وتوجهت إلى هارولد. غيّرتُ اللصقة الطبية، واستغرق ذلك بضع دقائق، ولكنني فضّلتُ الانتظار حتى يخفّ الازدحام المروري قبل أن أتوجه إلى المنزل على أي حال. ولقطع الوقت، بعثت برسالة نصية إلى ديزي، وطلبتُ منها لقائي في أبلبيز، المطعم الذي نقصدهُ معًا للدراسة.

ردّت بعد لحظات. أنا في العمل حتى الساعة الثامنة. نلتقي حينها؟

أنا: هل تحتاجين إلى من يوصلك؟

هي: أقلّني أبي من المدرسة وسيوصلني. هل راسلك دايفيس؟

مكتبة

أنا: لا، هل أبعث له برسالة؟

هي: قطعًا لا.

هي: انتظري بين ٢٤ ساعة و٣٠ ساعة. المسألة بسيطة. أنت مفتونة لا مهووسة.

أنا: فهمت. لم أكن أعرف أن هناك وصايا للرسائل النصية.

هي: بل هناك. لقد أوشكنا على الوصول وعلّي الذهاب. أول متطلّبات العمل، إجراء سحب لنرى من سيضطر إلى ارتداء زي تشاكي. دعواتك.

انطلقتُ أنا وهارولد باتجاه المنزل، ثم خطر ببالي أنّ بإمكاني أن أذهب إلى أي مكان. ليس أي مكان، ولكن تقريبًا. أستطيع القيادة إلى أوهايو، لو أردت، أو كنتاكي، والعودة إلى المنزل قبل الموعد المحدّد لي. بفضل هارولد، أمامي مئتا ميل مربع من وسط الغرب الأميركي. لهذا، بدل الانعطاف والتوجه إلى المنزل، واصلت القيادة شمال شارع ميريديان حتى اندمج مع ١-٤٦٥. رفعت صوت الراديو عندما بدأ يبث أغنية أحبّها اسمها «لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيك»، تردّد الصوت عبر سمّاعات هارولد العالية، كلمات غبية وسخيفة وهو ما كنت أحتاج إليه.

أحيانًا تعثر على سلسلة من الأغاني الرائعة على الراديو، وكلّما بدأت الإعلانات على محطة ما، انتقلت إلى محطة أخرى بدأت للتو في بث أغنية تحبّها وكنت على وشك أن تنساها، أغنية لم تكن لتختارها

مكتبة

أبدًا ولكنها الأغنية الأمثل لتردّدها مع المغني. واصلتُ القيادة مع قائمة من تلك الأغاني الرائعة، من دون أن أقصد مكانًا بعينه. اتّبعتُ الطريق السريع باتجاه الشرق، ثم الجنوب، ثم الغرب، ثم الشمال، ثم الشرق مرة أخرى، وانتهى بي المطاف على مخرج شارع ميريديان نفسه حيث بدأت.

تكلّف الرحلة حول إنديانا بوليس سبعة دولارات من البنزين تقريبًا. أعرف أنه تبذير، لكني شعرت بأنني أفضل بكثير بعد القيام بلفّةٍ حول المدينة.

عندما أوقفت السيارة في الممرّ لأفتح باب الكاراج، انتبهت لوجود عددٍ من الرسائل النصية من ديزي.

وقع السحب عليّ والآن عليّ ارتداء زي تشاكي اللعين.

أراك لاحقًا إذا بقيتُ على قيد الحياة.

إذا متّ فاذرفي الدموع على قبري كل يوم حتى تنبت شتلة في التربة، ثم اذرفي الدموع عليها حتى تنمو وتصبح شجرة جميلة تحيط جذورها بجسدي.

طلبوا مني الذهاب الآن وسيأخذون هاتفي، تذكّريني يا هولمزي.

تحديث: لقد عشت. سأجد من يقلّني إلى أبلبيز بعد العمل. إلى اللقاء.

مكتبة

في غرفة الجلوس، جلست أمي تصحّح أوراق الامتحانات وقدماها مرفوعتان على طاولة القهوة. جلست بجوارها، ومن دون أن ترفع نظرها، قالت، «أعاد شخص اسمه لايل من قصر آل بيكيت زورقنا اليوم، بعد إصلاحه. قال إنك كنت تجذّفين مع ديزي عبر النهر الأبيض واصطدمتما بصخرة».

«بالفعل»، قلت.

«أنتِ وديزي»، قالت، «تجذّفان على النهر الأبيض».

«نعم»، قلت.

رفعت بصرها إليّ أخيرًا. «يبدو من صنف الأشياء التي تقومين بها فقط عندما، مثلًا، تريدين لقاء دايفيس بيكيت».

هززتُ كتفي.

«هل حالفك الحظ؟» سألتْ.

هززت كتفي مرة ثانية، ولكنها لم تكفّ عن التحديق إليّ حتّى استسلمت وتحدّثت. «كنت أفكر فيه أخيرًا وأردت سببًا لأطمئن عليه».

«كيف تسير أموره في غياب أبيه؟»

«أعتقد أنه بخير»، قلت. «يبدو أنّ معظم الناس لا يحبون آباءهم كثيرًا».

مالت تجاهي، كتفها تلامس كتفي. أعرف أننا كنا نفكّر في أبي، ولكننا لم نُجِدِ الحديث عنه يومًا. «أتساءل لو أنك كنت ستصطدمين مع أبيك».

مكتبة

لم أقل أيّ شيء.

«كان سيفهمك، هذا أمر مؤكّد. كان يفهم أسئلتك بطريقة عجزتُ أنا عنها. ولكنه كان شديد القلق، وربما كان سيُرهقك ذلك. لقد أرهقني، أحيانًا».

«أنت تقلقين أيضًا»، قلت.

«أعتقد. عليك غالبًا».

«القلق لا يضايقني»، قلت. «القلق هو النظرة الصحيحة إلى العالم. الحياة مدعاة للقلق».

«وكأنك هو»، تبسّمت قليلًا. «ما زلت لا أصدّق أنه غادرنا». نطقتها وكأنه قرار اتخذه، وكأنه كان يجزّ العشب يومها وفكّر، أعتقد أنني سأسقط ميتًا الآن.

طهوت العشاء تلك الليلة، معكرونة مع خضروات معلّبة بجبن الشيدر، وأكلنا ونحن نشاهد برنامجًا واقعيًا عن أشخاص يحاولون البقاء على قيد الحياة في العراء. رنّ هاتفي أخيرًا بينما كنت أغسل الأطباق مع أمي ـ ديزي تبلغني أنها وصلت إلى أبلبيز ـ فأخبرت أمي أنني سأرجع عند منتصف الليل وعدتُ إلى هارولد، الذي كان كعادته، سعادتي الغامرة.

أبلبيز سلسلة من المطاعم المتوسّطة الجودة التي تقدّم «المأكولات الأميركية»، ما يعني باختصار أنّ كل شيء يحتوي على الجبن. في العام الماضي، جاء صبيّ إلى بيتنا وأقنع أمي بشراء كتيّب كوبونات سميك لدعم فرقة الكشافة التي ينتمي إليها، واتضح أن الكتيّب يحتوي

مكتبة

على ستين كوبونًا لأبلبيز تقدّم «برغرين بقيمة ١١ دولارًا». ومنذ ذلك الوقت وأنا وديزي نستخدمها باستمرار.

وجدتها تنتظرني في أحد الأكشاك وقد غيّرت قميص عملها وارتدت قميصًا تركوازيّ اللون بقبّة دائرية، وجلست تحدّق في هاتفها. لم يكن لدى ديزي كمبيوتر، لهذا أنجزت كل شيء على هاتفها، من الرسائل النصية إلى كتابة روايات الهواة. كانت تستطيع الطباعة عليه أسرع مني على لوحة الحروف العادية.

«هل سبق أن تلقيت صورة عضوٍ ذكري في حياتك؟» سألتني بدل أن تلقي التحية.

«لقد سبق أن رأيت واحدًا»، قلت، وجلستُ على المقعد المقابل لها.

«بالتأكيد رأيتِ واحدًا يا هولمزي. بحق السماء، أنا لا أتساءل إن كنت راهبة في القرن السابع عشر. أعني هل بُعثت لك بصورة عضوٍ من دون أي سياق ومن دون أن تطلبيها؟ مثل، صورة عضوٍ ذكري كفاتحة تقديم».

«لا»، قلت.

«انظري إلى هذا»، قالت وأعطتني هاتفها.

«نعم، هذا عضو ذكري»، قلت، مغمضة عينيّ نصف إغماضة وأنا ألفّ الهاتف عكس اتجاه عقارب الساعة بعض الشيء.

«نعم، لكن هل من الممكن أن نتحدّث عن الأمر لدقيقة؟»

«هل من الممكن ألّا نفعل ذلك رجاءً؟»، أرخيتُ الهاتف عندما

مكتبة

ظهرت هولي، نادلتنا، بجوار الطاولة. كانت هولي نادلتنا المعتادة، ولم تكن تحبّ أيًا منا، ربما بسبب استراتيجية الكوبونات التي نستخدمها في أبلبيز ومصادر البقشيش المحدودة لدينا.

بدأت ديزي الحديث كعادتها. «هولي، هل سبق أن استلمت ـ »

«لا»، قلت. «لا لا لا». نظرتُ إلى هولي. «أريد كوب ماء بلا طعام، لو سمحت، لكن عند التاسعة وخمس وأربعين دقيقة تقريبًا سآخذ برغرًا نباتيًا، من دون مايونيز أو توابل على الإطلاق، فقط أريد برغرًا نباتيًا على خبز في كرتونة لآخذه معي. مع بطاطا مقلية».

«وبرغر تكساس الحرّاق لك؟» وجّهت هولي السؤال إلى ديزي.

«مع كأس من النبيذ الأحمر، لو سمحت».

حدّقت إليها هولي.

«حسنًا. ماء».

«أفترض أن معكما كوبونًا؟» سألت هولي.

«بالفعل، لدينا»، قلت ومرّرته لها فوق الطاولة.

حالما استدارت هولي مغادرة عادت ديزي إلى الموضوع. «أعني، ما المفروض أن يكون ردّ فعلي تجاه عضوٍ شبه منتصب من أحد المعجبين برواياتي؟ هل عليّ أن أشعر بالإثارة؟».

«على الأرجح أنه يفكر في أنّ الأمر سينتهي بالزواج. أنكما ستلتقيان في العالم الواقعي وتقعان في الغرام وذات يوم ستخبران أطفالكما أن كل ذلك بدأ بصورة لعضوٍ بلا جسد».

مكتبة

«هذا تجاوب غريب مع مؤلّفاتي. أقصد، حسنًا، تتّبعي خيط أفكاري معي: «لقد تمتّعتُ حقًا بهذه القصة عن مغامرة راي وتشوباكا العاطفية وهما يفتّشان في حطام سفينة الفضاء تولغا على الكوكب إندور بحثًا عن جرعة تولغا الشهيرة للصبر؛ ولأشكر مؤلّفة القصة، سأبعث إليها بصورة لعضوي التناسلي. كيف تنتقلين من نقطة ألف إلى نقطة باء في سياق التفكير هذا يا هولمزي؟».

«الصبيان مقرفون»، قلت. «الكل مقرف. الناس وأجسامهم المقرفة؛ كل ذلك يجعلني أرغب في التقيّؤ».

«على الأرجح أنه أحد معجبي كايلو الفاشلين»، تمتمتْ. لم يكن عندي أيّ فكرة عن لغة روايات الهواة التي تستخدمها.

«أرجوكِ، هل من الممكن أن نتحدث عن شيء آخر؟».

«حسنًا. خلال وقت استراحتي في العمل، أصبحت خبيرة في الوصايا. إليكِ ما وجدت: ليس بإمكانك فعلًا أن تتركي أي أموال لحيوانٍ غير بشري عندما تموتين، ولكنك تستطيعين ترك جميع أموالك لشركة تُؤسَّس فقط لفائدة حيوان غير بشري. وأساسًا، ولاية إنديانا لا تعدّ الحيوانات الأليفة بشرًا، ولكنها تَعُدّ الشركات بشرًا. لهذا ستذهب أموال بيكيت إلى شركة تنفع التوَتارا. كما اتضح أنكِ غير ملزمة أن تتركي لأبنائك أي شيء عندما تموتين. بغض النظر عن حجم ثروتك ـ لا منزل، لا أموال للكلية، لا شيء».

«ماذا يجري إذا دخل أبوهما السجن؟»

«عندئذٍ يحصلان على وصيّ. قد تكون مديرة المنزل أو أحد أعضاء العائلة، ويحصل ذلك الشخص على أموال لتغطية مصاريف الأطفال.

إذا لم أتمكّن من شقّ طريقٍ لي في مهنة العثور على الفارين من العدالة بالنجاح، فقد أباشر العمل في الوصاية على أطفال المليارديرات».

«والآن، ستبدئين بجمع ملفّات عن القضية وعن عائلة آل بيكيت، بينما أبحث أنا عن تقرير الشرطة وأؤدّي واجب حساب التفاضل والتكامل، لأن هناك عددًا معيّنًا من الساعات في اليوم الواحد وأنا مجبرة على قضاء الكثير منها في تشاك إي تشيز».

«كيف تنوين الحصول على نسخة من تقرير الشرطة؟»

«بالخداع»، قالت.

كنت صديقة دايفيس بيكيت على فيسبوك، وبرغم أنّ صفحته مهجورة، إلّا أنها زوّدتني بأحد الأسماء التي يستخدمها، وهو dallgoodman، ما أوصلني إلى إنستغرام.

لم تحتوِ صفحة الإنستغرام على أي صور فعلية، فقط مقتبسات مكتوبة بخطٍ جميل على خلفية مغبشّة وكأنها أوراق مجعّدة. أولها أضيفت قبل عامين وكانت لشارلوت برونتي. «أهتمّ بنفسي. كلما زادت وحدتي، وانعدم الأصدقاء، وقلّ الدعم لي، احترمت نفسي أكثر».

أحدث اقتباس أضافه هو، «من لا يخاف الموت فإنه يموت مرة واحدة فقط». فكرت في أنه إشارة خفية إلى أبيه، ولكنني لم أستطع فهمه تمامًا. (يجدر التنويه إلى أنّ من يخاف الموت يموت أيضًا مرة واحدة فقط، لكن هذا لا يهمّ).

بينما كنت أطّلع على الاقتباسات، لاحظت أن هناك عددًا من المتابعين الذين يعجبون بمقولات دايفيس دائمًا، ومن ضمنهم فتاة

مكتبة

باسم anniebellcheers، التي تمتلئ صفحتها بصور المشجّعات. تصفّحت إلى الوراء لأكثر من عام ووجدت سلسلة من صورها مع دايفيس مصحوبة بالكثير من الصور الإلكترونية للقلوب.

يبدو أن علاقتهما بدأت في الإجازة بين الصفين التاسع والعاشر واستمرت عدة أشهر. احتوى حسابها على إنستغرام على رابط لحسابها على تويتر، حيث كانت لا تزال تتبع مستخدمًا اسمه nkogneato، الذي تبيّن أنه اسم دايفيس على تويتر ـ اكتشفت ذلك لأن هناك صورة لأخيه وهو يقفز في الهواء مثل قذيفة كروية نحو المسبح.

أوصلني اسم nkogneato إلى صفحة يوتيوب ـ بدا أن صاحبها يحب آخر أخبار كرة السلة ومقاطع الفيديو الطويلة التي تشاهد فيها شخصًا منهمكًا بلعبة فيديو ـ ثم أخيرًا، بعد أن تصفّحت عددًا من الصفحات التي دلّني عليها البحث، وصلت إلى مدوّنة.

في البداية، لم أستطع أن أجزم بأنّ المدوّنة لدايفيس. بدأ كل تحديث بمقولة مقتبسة ثم فقرة قصيرة لا تروي أبدًا شيئًا محدّدًا عنه يمكّنني من التأكد أنه هو، مثل هذا المقطع:

«في مرحلة ما من العمر، يصبح جمال العالم كفاية. لا حاجة لالتقاط صورٍ لهذا الجمال، أو لرسمه أو حتى تذكّره. هو فقط كفاية».

ـ توني موريسون

ليلة البارحة تمدّدت على الأرض المتجمّدة، محدّقًا في السماء الصافية التي شوّهها تلوّث الضوء والضباب الناتج من تنفّسي ـ لا تلسكوب أو أي شيء، وحدي أنا والسماء

مكتبة

الواسعة ـ وفكرت في كيف أن السماء اسم مفرد، وكأنها شيء واحد، لكنّ السماء ليست شيئًا مُفردًا. السماء كل شيء. وليلة البارحة، كانت السماء تكفي.

لم أكن متأكدة أنه هو حتى بدأت ألاحظ أن الكثير من الاقتباسات الموضوعة على صفحة إنستغرام الخاصة به مدرجة أيضًا في المدوّنة، بما فيها مقولة شارلوت برونتي:

أهتمّ بنفسي. كلّما زادت وحدتي، وانعدم الأصدقاء، وقلّ الدعم لي، احترمت نفسي أكثر».

ـ **شارلوت برونتي**

في آخر المطاف، عندما أصبح المشي متعِبًا، جلسنا على مقعد وتأمّلنا النهر يجري أمامنا بمستوى مياهه المنخفض، وقالت لي إن الجمال في جوهره ليس سوى مسألة انتباه. «النهر جميل لأنك تنظر إليه»، قالت.

تحديث آخر كُتب في شهر تشرين الثاني/نوفمبر السابق، في الفترة التي توقّف هو وanniebellcheers عن الردّ أحدهما على تغريدات الآخر على تويتر:

«اتُّفق على أنه ساخن، اتُّفق على أنه بارد، اتُّفق على أنه لون، لكنه في الحقيقة ذرّات وفراغ».

ـ **ديموقريطوس**

عندما تفشل الملاحظة في مجاراة الحقيقة، بمن تثق:

مكتبة

بحواسّك أم حقيقتك؟ لم يكن لدى الإغريقيين كلمة للون الأزرق. اللون لم يكن متوافرًا لهم. لم يتمكّنوا من رؤيته من دون وجود كلمة له.

أفكر فيها طوال الوقت. تنعصر أحشائي حين أراها. لكن هل هو حب، أم أنه ليس إلّا شيئًا لا نملك كلمة له؟

التحديث التالي جمّدني في مكاني:

«أعظم أسلحة التصدّي للإجهاد هو قدرتنا على اختيار فكرة على الأخرى».

ـ وليام جيمس

لا أعرف أيّ قوى خارقة تمتّع بها وليام جيمس، إلّا أنني لا أستطيع اختيار أفكاري مثلما أنني لا يمكنني اختيار اسمي.

الطريقة التي تحدّث بها عن الأفكار ذكّرتني بما أشعر به: فالأفكار ليست خيارًا بل قدر. ليست فهرسًا لوعيي، بل تفنيد له.

وأنا صغيرة، كنتُ أخبر أمي عن أفكاري الاجتياحية، وكانت تقول لي دائمًا، «لا تفكري في هذه الأمور يا آزا»، إلّا أنّ دايفيس استوعب الأمر. ليس بإمكانك الاختيار. هذه هي المشكلة.

النقطة الأخرى المثيرة للاهتمام بشأن كون دايفيس أونلاين هي أنّ كل شيء توقّف يوم اختفى أبوه. كان يكتب شيئًا جديدًا في المدوّنة كل يوم تقريبًا لأكثر من عامين، وفي ظهيرة اليوم التالي لاختفاء أبيه، كتب:

مكتبة

«ناموا بعمق أيها الحمقى».

ـ ج. د. سالنيغر

أعتقد أن هذا هو الوداع يا أصدقائي، لكن: لا أحد يقول وداعًا إلا إذا كان يريد رؤيتك ثانية.

كان ذلك منطقيًا. على الأرجح أن الناس بدأوا بمراقبته ـ إذا تمكّنتُ أنا من العثور على مدوّنته السرية، فباعتقادي أن الشرطة قادرة على ذلك أيضًا. لكنني تساءلت إذا كان دايفيس بالفعل قد هجر الإنترنت بالكامل، أو أن العثور عليه أصبح أصعب فقط.

لكنني لم أتمكّن من اقتفاء أثره. علقت وأنا أبحث عن الأسماء التي استخدمها وتشعّباتها، وانتهيت بالعثور على عدد كبير من الأشخاص لكنهم ليسوا دايفيس بيكيت الذي أبحث عنه ـ دايف بيكيت ذو الثلاثة والخمسين عامًا سائق الشاحنات في ويسكونسين؛ دايفيس بيكيت الذي مات بسبب التصلّب الجانبي الضموري بعد سنوات من الخواطر القصيرة في مدوّنة تُكتب بمساعدة برنامج كمبيوتر يعتمد على تتبّع حركة العين؛ مغرّد على تويتر اسمه dallgoodman مدوّنته ليست إلّا تهديدات لاذعة موجّهة لأعضاء الكونغرس. وجدت حسابًا على ريديت يعلّق على فريق بتلر لكرة السلة وعلى الأرجح أنه لدايفيس، لكنّ ذلك أيضًا كان خاملًا منذ اختفاء الأب بيكيت.

«لقد اقتربت جدًا»، قالت ديزي فجأة. «جدًا جدًا. لو أنني فقط بارعة في الحياة براعتي على الإنترنت». رفعت نظري عائدةً إلى مستوى أبليز الحسي. كانت ديزي تطبع على هاتفها بيد بينما تمسك

مكتبة

بكوب الماء بالأخرى. كلّ ما حولي كان صاخبًا وساطعًا. حول البار، النقاش يحتدم تعليقًا على حدث رياضي.

«ماذا وجدتِ؟» سألتني وهي تضع كوب الماء على الطاولة.

«كان لدايفيس صديقة، إلّا أنهما انفصلا في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي تقريبًا. لديه مدوّنة، لكنه لم يحدّثها منذ اختفى أبوه. لا أدري. في المدوّنة، يبدو... لطيفًا».

«أنا سعيدة لأنك استخدمت مهاراتك التحقيقية على الإنترنت لتقرري أن دايفيس لطيف. كم أحبّك يا هولمزي، لكن اعثري على معلومات عن القضية».

وهذا ما كان. كتبت جريدة إنديانا بوليس ستار عن راسيل بيكيت كثيرًا لأن شركته واحدة من أكبر الشركات الموظِّفة، وأيضًا لأنه قوضِيَ باستمرار. كان لديه اتفاقية عقارية كبيرةٍ في وسط المدينة انتهت بعدد من الدعاوى القضائية؛ رفعتْ عليه كلٌّ من مساعدته التنفيذية السابقة ومديرة التسويق الرئيسي في شركة بيكيت للأعمال الهندسية دعاوى قضائية بتهمة التحرش الجنسي؛ رفع عليه جنائنيٌّ في قصره دعوى قضائية بتهمة انتهاك قانون المعوّقين الأميركيين؛ اللائحة طويلة ولا تنتهي.

نقلت جميع المقالات الإخبارية أقوالًا للمحامي نفسه ـ سايمون موريس. وصف موقع موريس الإلكتروني شركته بأنها «شركة محاماة صغيرة تركّز على كلّ متطلّبات الأفراد ذوي الناتج المرتفع».

سألت ديزي: «هل أستطيع تعبئة هاتفي بواسطة حاسوبك؟» ومن دون أن تترك عيناها هاتفها، مدّت يدها في جزدانها، أخرجت كابل

مكتبة

شحن، وأعطتني إياه. شبكته بكمبيوتري المحمول، وتمتمت هي، «هذا أفضل، شكرًا. لقد اقتربت كثيرًا هنا».

انتبهت أن هولي قد أحضرت طلبي. فتحت الوعاء البلاستيكي وأخذت قطعتي بطاطا مقلية وعدت إلى تحرياتي عن بيكيت. عثرت على موقع إلكتروني اسمه غلاسدور أي 'الباب الزجاجي'، يستطيع الموظفون الحاليون والسابقون عليه إبداء آرائهم في الشركة والبقاء مجهولين. شملت الملاحظات المكتوبة عن راسيل بيكيت نفسه:

«الرئيس التنفيذي حقير جدًا».

«راسيل بيكيت مصاب بجنون العظمة».

«لا أدّعي أن مديري بيكيت يجبرونك على مخالفة القانون، ولكننا كثيرًا ما نسمع عن مديرين يبدؤون جملهم بـ «لا أقول إنّ عليك مخالفة القانون، لكن..»».

إذن، هذا هو بيكيت. وبرغم أنه تنصّل من كل الدعاوى القضائية بتسويتها، إلّا أنّ التحرّيات الجنائية لم تتوقّف. من ضمن المعلومات التي جمعتها أن الشركة دفعت رشوة إلى مجموعة من المسؤولين في الولاية مقابل الحصول على عقود لبناء نظام صرف صحي أفضل في إنديانا بوليس.

قبل خمسة عشر عامًا، خصّصت الحكومة مبلغًا كبيرًا لتنظيف النهر الأبيض وذلك ببناء برك أكثر لحجز الماء وتوسيع نظام الأنفاق الممتدّ تحت الأرض، وتغيير اتجاه جدول يدعى 'مجرى بوغ'. كانت الفكرة

أنه في غضون عشر سنوات ستتوقّف المجاري عن الصبّ في النهر كلما أمطرت. حصلت شركة بيكيت للأعمال الهندسية على العقد الأوّلي، إلّا أنهم لم يكملوا العمل أبدًا، بل تجاوز المشروع الميزانية، لهذا سحبت الحكومة العقد من شركة بيكيت وسمحت لأي شخص بطرح مناقصة لإنهاء المشروع.

ثم، برغم أنهم ارتكبوا عملًا سيّئًا أول مرة، فازت شركة بيكيت للأعمال الهندسية بالعقد الجديد، على الأرجح عبر رشوة مسؤول حكومي ما. جرى اعتقال مديريْن في شركة بيكيت ويبدو أنهما تعاونا مع الشرطة. لم توجَّه أيّ تهمة لبيكيت نفسه، برغم أنّ مقالًا في الجريدة قبل ثلاثة أيام من اختفائه انتقد السلطات: «لدى إديانا وليس ستار أدلة كافية لإدانة راسيل بيكيت؛ لمَ إذن لا تدينه السلطات؟»

«يا سلام. هكذا. نعم. على مهلك. أنا في انتظار تحميل الملف المضغوط، نعم، وفتحه، و...نعم! نعم!» رفعت ديزي نظرها أخيرًا إليّ وابتسمت. كانت أسنانها الأمامية معوّجة قليلًا، ومائلة تجاه بعضها بعضًا، ولأنها تدرك ذلك، من النادر أن تبتسم بالكامل. إلّا أنني تمكّنت من رؤية لثتها الآن. «هل بإمكاني أن أفعل الشيء الذي يفعلونه عند نهاية سكوبي دو، وأقول لك كيف أنجزت الأمر؟»

أومأت بـ «نعم».

«يشير أول مقال عن اختفاء بيكيت إلى تقرير للشرطة حصلت عليه جريدة إنديانا بوليس ستار. كتبت تلك القصة ساندرا أوليفيروس، مع تقارير إضافية من آدم بيترلي، وهو اسم عائلي غبي، لكن على أيّ حال،

مكتبة

من الواضح أنه أقل رتبة من أوليفيروس، وبحث سريع على غوغل يبيّن أنه متخرّج جديد في جامعة إنديانا بوليس.

«لهذا فتحت بريدًا إلكترونيًا باسم يشبه كثيرًا عنوان بريد ساندرا أوليفريوس الإلكتروني وبعثت إلى بيترلي أمرًا بأن يرسل إليّ نسخة عن تقرير الشرطة. وردّ قائلًا، «لا أستطيع؛ إنه ليس موجودًا على كمبيوتري المنزلي»، فقلت له أن يتوجه إلى المكتب ويرسله إليّ؛ ردّ، «لكنها ليلة الجمعة»، فقلت له «أعرف أنها ليلة الجمعة، لكن الأخبار لا تتوقف في عطلة نهاية الأسبوع؛ قم بعملك، وإلّا فسأجد شخصًا آخر يقوم به». فذهب إلى المكتب وأرسل إليّ مسوحًا ضوئية لتقرير الشرطة».

«يا إ'لهي».

«مرحبًا بك في المستقبل يا هولمزي. الأمر ليس محصورًا في اختراق الكمبيوترات فقط: بل اختراق أرواح البشر أيضًا. الملف في بريدك الإلكتروني». تساءلت أحيانًا إن كانت ديزي مازالت صديقتي لأنها بحاجة إلى شاهد فقط.

وأنا أنتظر تنزيل الملف، نظرت بعيدًا عن شاشتي، عبر فتحات ستارة الشباك باتجاه موقف السيارات في الخارج. كان أحد أضواء الشارع مواجهًا لنا، ما جعل كل شيء آخر حوله يبدو معتمًا تمامًا.

كنت أحاول طرد فكرة من رأسي، لكن الفكرة كبرت بمجرّد أن فتحت تقرير الشرطة وبدأت تصفّحه.

«ما الأمر؟» سألت ديزي.

«لا شيء»، قلت وحاولت ابتلاع الفكرة مرة ثانية. لكني لم

أستطع. «لكن، ألن يقع في ورطة؟ أقصد، عندما يذهب إلى العمل يوم الاثنين، ألن يسأل رئيسته لماذا احتاجت إلى الملف، وستقول له، «أي ملف»، ألن يقع في ورطة بعدها؟ أقصد، قد يُطرد».

قلّبت ديزي عينيها، ولكنني كنت في الحالة اللولبية الآن، وبدأ يراودني القلق من أن السيد بيترلي سيجد طريقة للوصول إلى ديزي، وسيُلقى القبض عليها، وربما عليّ أيضًا، لأنه من المحتمل أنني شريكتها. كنا نلعب لعبة سخيفة، إلّا أن الناس يدخلون السجن طوال الوقت لجرائم أقل. تخيّلت قصة إخبارية عنّا ـ فتيات هاكرز مهووسات بالشباب المليارديرات.

«سيعثر علينا»، قلت بعد فترة.

«من؟» سألتْ.

«الرجل»، قلت. «بيترلي».

«لا، لن يفعل؛ أنا أستخدم واي فاي عامًّا في مطعم أبلبيز، وبروتوكولًا يضعني في بيلو هوريزونتي، البرازيل. أمّا إذا عثر عليّ، فسأقول إنه لم تكن لديك أدنى فكرة عما كنت أقوم به، وسأذهب إلى السجن بدلًا منك، ولشكري على عدم الوشاية بك، ستضعين وشم وجهي، على عضلة ذراعك. يا للروعة».

«ديزي، كوني جادّة».

«أنا جادّة. عضلة ذراعك النحيلة بحاجة إلى وشم وجهي. إضافةً إلى ذلك، لن يُطرد ولن يعثر علينا. أكثر ما سيجري أنه سيتعلّم درسًا مهمًا عن الاحتيال بأسلوبٍ يسبّب ضررًا أقل لحياته وللشركة التي يعمل

مكتبة

فيها. اهدئي. عليّ أن أتابع جدلًا في غاية الأهمية مع شخص غريب على الإنترنت بشأن إذا ما كان تشوباكا شخصًا».

جاءت هولي بالحساب، تذكير غير خفي بأننا أطلنا المكوث. وضعت بطاقة السحب التي أعطتني إياها أمي. لم يكن لدى ديزي نقود أبدًا فيما سمحت لي أمي بأن أصرف خمسة وعشرين دولارًا أسبوعيًا شرط الحفاظ على علامة تقدير ممتاز. تحت الطاولة، فركت إبهامي على التكلّس فوق إصبعي. قلت لنفسي إنّ ديزي قد تكون على حق، وإنّ كل شيء سيكون على ما يُرام. ربما.

لم ترفع ديزي عينيها عن هاتفها، لكنها قالت، «بجد، يا هولمزي، لن أدع أي شيء يحدث. أعدكِ».

«لا تستطيعين التحكم في ذلك». قلت. «الحياة خارجة عن السيطرة».

«بل ليست كذلك»، تمتمت وهي لا تزال غارقة في هاتفها. «يا إلهي، هناك شخص يقول إنّ مؤلفاتي همجيّة».

«مهلًا، ماذا؟»

«في روايتي، تشوباكا وراي مغرمان. يقول إنّه فِعْلٌ ـ وأنا أقتبس هنا ـ «إجرامي» لأنه حب بين أجناس مختلفة. هو حتى ليس جنسًا، فأنا أراعي أن تظل مؤلّفاتي مصنّفة للمراهقين لتناسب صغار السن. هو حب فقط».

«إلّا أن تشوباكا ليس بشرًا»، قلت.

«المسألة ليست إن كان تْشُوِي بشرًا، يا هولمزي؛ بل إن كان

مكتبة

شخصًا». كانت أقرب إلى الصراخ. كانت تأخذ كلّ ما له علاقة بحرب النجوم بجدية. «ومن الواضح أنه شخص. ما الذي يجعلك شخصًا؟ إن له جسمًا وروحًا ومشاعر، ويتحدّث لغة، وهو بالغ، وإذا كان هو وراي في علاقة حب ساخنة مستمرة، فلنشكر الله أن اثنين بالغين واعيين راضيين متوافقين تقابلا في مجرّة محطّمة مظلمة».

في معظم الأوقات، لا يتمكّن أيّ شيء من تخليصي من الخوف، لكن فقط الاستماع إلى ديزي قد يحقّق ذلك أحيانًا. تمكّنت من تغيير شيء في داخلي، وما عدت أشعر بأنني في دوّامة أو أنني أمشي في لولبة تضيق أكثر وأكثر. لم أكن بحاجة إلى تشابيه. كنت حاضرة في نفسي ثانية. «إذن هو شخص لأن له وعيًا؟»

«لا أحد يشتكي عندما يقيم رجال البشر علاقات مع نساء التوايليكز(*). لأن بإمكان الرجال طبعًا اختيار مع من يريدون ممارسة الجنس. لكن أن تقع امرأة آدمية بحب رجل من الووكي، لا سمح الله. أقصد، أعرف أني أغذّي المتصيّدين يا هولمزي، ولكن ليس بإمكاني الصمت عن ذلك».

«أعني، الطفل ليس واعيًا، إلّا أن الطفل لا يزال شخصًا».

«لم يقل أي أحد شيئًا عن الأطفال يا هولمزي. نحن نتحدث عن شخص بالغ صدف أنه فتاة وقعت في غرام بالغ آخر صدف أنه ووكي».

«هل بإمكان راي التحدّث بلغة الووكي؟»

(*) من «حرب النجوم»، Starwars.

مكتبة

«تعرفين، من المزعج بعض الشيء أنك لا تقرأين كتاباتي. لو أنك قرأتها، لأدركت أن الووكي ليست لغة، بل جنس. كانت هناك على الأقل ثلاث لغات ووكي. تعلّمت راي لغة الشايري ووك من كائنات الووكي التي جاءت إلى جاكو، لكنها لم تمارسها لأن أهل ووكي كانوا يفهمون اللغة الرئيسية».

كنت أضحك. «ولماذا تستخدمين فعل الماضي؟»

«لأن هذا كله حدث قبل زمن بعيد في مجرّة بعيدة، بعيدة جدًا يا هولمزي. تستخدمين الفعل الماضي دائمًا عند الحديث عن حرب النجوم».

«انتظري، هل بإمكان البشر التحدّث بلغة الشاير ـ لغة الووكي؟»

كردّ، بدأت ديزي بتقليد شخصية تشوباكا، ثم ترجمت نفسها. «سألتك إن كنت ستأكلين البطاطا المقلية». مرّرت لها وعاء الطعام، فقبضت على حفنة، ثم أدت صوتًا آخر لتشوباكا وفمها شبه ممتلئ.

«ما معنى ذلك؟»

«لقد انقضت أكثر من أربع وعشرين ساعة. حان وقت البعث برسالة نصية إلى دايفيس».

«لدى كائنات الووكي مراسلات نصية؟»

«كان لديهم»، صحّحت كلامي.

مكتبة

٧

صباح الاثنين، أوصلت أمي إلى المدرسة لأن سيارتها كانت في ورشة التصليح. شعرتُ بحرقة في إصبعي الوسطى بسبب معقّم اليدين الذي وضعته قبل مغادرتي مباشرة، لهذا كنت أضغط اللصقة الطبية على إصبعي ما فاقم من حدّة الألم وخفّفه في الوقت نفسه. لم أبعث برسالة نصية إلى دايفيس خلال عطلة نهاية الأسبوع. فكرت في الأمر كثيرًا، ولكن بعد أن مرت ليلة أبلبيز، بدأت أشعر بالتوتر إزاء الأمر، فقد مرّ وقت طويل، ولم تكن ديزي حولي لتجبرني على فعل ذلك لأنها كانت تعمل طوال عطلة نهاية الأسبوع.

لا بدّ أن أمي انتبهت أنني أضغط على اللصقة الطبية، لأنها قالت، «لديك موعد مع الدكتورة سينغ غدًا، أليس كذلك؟»

«نعم».

«ما رأيك في الأدوية؟»

مكتبة

«لا بأس بها، أعتقد». لم أقل الحقيقة كاملة، ذلك أنني من جهة لم أكن مقتنعة بأنّ الحبوب البيض تؤدي أيّ شيء عندما أتناولها، ومن جهة أخرى لم أكن أتعاطاها بالكمية المفروضة. إلى حدّ ما، كنت أنسى، لكن كان هناك أيضًا شيء آخر لم أستطع تحديده، خوف خفيّ من أن تناول حبة دواءٍ يجعلني أصبح شخصًا آخر.

«هل ما زلت هنا؟»، سألت أمي.

«نعم»، قلت. بعضٌ مني ـ لكنّ البعض القليل مني فقط ـ كان لا يزال موجودًا في هارولد ليصغي إلى صوتها، ليتبع الطريق المألوف إلى المدرسة.

«كوني صادقة مع د.سينغ، اتفقنا؟ ليس هناك أي ضرورة للمعاناة». وهو ما أستطيع أن أجادل في أنه إساءة فهم جذرية للمعضلة البشرية، لكن على أي حال.

ركنتُ السيارة في مواقف الطلاب، وافترقت عن أمي، ثم اصطففت للعبور تحت كاشفات المعادن. حالما جرى التأكد من أنني لا أحمل مسدّسًا انضممت إلى تيار الأجساد التي تملأ الممرات مثل كريات الدم في العروق.

وصلت إلى خزانتي الصغيرة مبكّرة بضع دقائق واقتطعت لحظة لأجري بحثًا عن الصحافي الذي احتالت عليه ديزي، آدم بيترلي. نشر رابطًا في ذلك الصباح لقصة جديدة كتبها عن تصويت مجلس مدرسي لحظر بعض الكتب، لهذا خمّنتُ أنه لم يُطرد. كانت ديزي محقة. لم يحصل شيء.

مكتبة

كنت على وشك أن أتوجّه إلى الصف عندما أسرع ميكال تجاه خزانتي وسحبني إلى مقعد. «كيف حالك يا آزا؟»

«بخير»، قلت. كنت أفكر كيف أنه قد يكون جزءٌ منك في مكان ما بينما تكون أهم الأجزاء الأخرى في مكان آخر، مكان لا يمكن الوصول إليه بالحواس. مثل، كيف قدت طوال الطريق في المدرسة من دون أن أكون بالفعل داخل السيارة. كنت أحاول النظر إلى ميكال، أحاول الإصغاء، إلى الضوضاء في الممر، لكنني لم أكن هناك، ليس فعليًا، ليس كليًا.

«حسنًا»، قال. «اسمعي، لا أريد إرباك صداقتنا لأننا مجموعة رائعة بالفعل، لكن، هذا محرج، هل تعتقدين، بصراحة، طبعًا تستطيعين الرفض..». لم يكمل ولكني فهمت بما يفكّر.

«لا أظن أن بإمكاني الخروج مع أيّ شخص الآن»، قلت. «أنا، أعني ـ»

قاطعني. «أصبح الوضع الآن في غاية الإحراج حقًا. أردتُ أن أسألك إن كنت تعتقدين أن ديزي ستقبل الخروج معي، أو إن كان ذلك الجنون بعينه. أقصد، أنت رائعة يا آزا..».

كنت أعرف ميكال كفاية حتى لا أموت حرجًا، بالكاد. «نعم»، قلت. «نعم. إنها فكرة رائعة. لكن يجب أن تتحدّث معها في الأمر، لا معي. لكن نعم. بالتأكيد، اطلب منها أن تخرج معك. أشعر بالإحراج. كان هذا أمرًا محرجًا. عليك أن تطلب من ديزي أن تخرج معك. سأقف الآن وأخرج من هذه المحادثة بما تبقى لي من فتات كرامة».

مكتبة

«أنا آسف حقًا»، قال بينما وقفت وبدأت بالتراجع. «أقصد، أنت جميلة يا آزا. هذا لا علاقة له بالأمر».

«لا»، قلت. «لا. لا تتفوّه بأي شيء آخر. الحق عليّ. أنا فقط... سأغادر الآن. اطلب من ديزي أن تخرج معك». لحسن الحظ، رنّ جرس من الأعالي ما أعطاني الفرصة للإسراع إلى حصة الأحياء. كانت معلمتنا متأخرة والكل يتحدث. جلست على مقعدي وبدأت على الفور بإرسال رسالة نصية إلى ديزي.

أنا: ظننت أن ميكال يريد الخروج معي لذا حاولت أن أرفض من دون إيذاء مشاعره لكنه لم يكن يريدني أنا. كان يسأل إن كان من الممكن أن أسألك أن تخرجي معه نيابة عنه. مستوى الخزي ـ الأعلى على الإطلاق. لكن يجب أن تقبلي. إنه لطيف.

هي: يا إلهي. يا للهول. إنه يبدو كطفل ضخم.

أنا: ماذا؟

هي: إنه يبدو كطفل ضخم. هذا ما قالته مولي كراوس ذات مرة ومن حينها لم أستطع محو الصورة من مخيّلتي. لا أستطيع الخروج مع طفل ضخم.

أنا: بسبب رأسه الحليق؟

هي: لكل الأسباب يا هولمزي. لأن شكله تمامًا مثل طفل ضخم.

مكتبة

أنا: شكله ليس كذلك.

هي: عندما تنظرين إليه في المرة المقبلة تأمّليه وحاولي أن تؤكدي لي أنه لا يبدو كطفل ضخم. شكله تمامًا كطفلٍ ضخم أنجبه دريك وبيونسي.

أنا: سيكون عندئذٍ طفلًا ضخمًا وفاتنًا.

هي: سأحتفظ بهذه الرسالة إذا اضطررت إلى ابتزازك. على فكرة، هل ألقيت نظرة على تقرير الشرطة؟

أنا: ليس تمامًا. وأنت؟

هي: نعم، برغم أنني عملت حتى وقت الإغلاق البارحة ويوم السبت وكان عليّ دراسة حساب التفاضل والتكامل الذي يشبه قراءة السنسكريتية وأُجبرت على ارتداء زي تشاكي اثنتي عشرة مرة متفرّقة، لكنني لم أعثر على أيّ أدلة، رغم أني قرأت التقرير بالكامل، وهو مملّ جدًا. أنا بالتأكيد البطل المجهول في هذا التحقيق.

أنا: أعتقد أنك لست مجهولة أبدًا. سأقرأه اليوم، عليّ الذهاب، الآنسة بارك تنظر نحوي بطريقة غريبة.

طوال فترة حصّة الأحياء، وكلّما استدارت الآنسة بارك إلى السبورة، تابعتُ قراءة تقرير الأشخاص المفقودين على هاتفي.

طول التقرير بضع صفحات فقط، وعلى امتداد اليوم المدرسي، تمكّنت من إنهاء قراءته. الشخص المفقود ذكر بعمر ثلاثة وخمسين

عامًا، شعر رمادي، عينان زرقاوان، على كتفه اليسرى وشم باللاتينية يقول «لا تسمح للأوغاد بإحباطك»، وثلاث ندوب جراحية على بطنه من آثار عملية المرارة، طوله متر وثمانون سنتمترًا، وزنه مئة كيلوغرام تقريبًا، شوهد آخر مرة مرتديًا ملابس نومه المعتادة: قميص مقلّم بالأزرق الغامق والأبيض وشورت أزرق فاتح. تبيّن أنه مفقود في الساعة ٥:٣٥ صباحًا عندما أغارت الشرطة على منزله على ضوء تحقيق بالفساد.

تألّف معظم التقرير من «إفادات الشهود» لشهود لم يشهدوا شيئًا. لم يكن هناك أيّ شخص تلك الليلة سوى نوا ودايفيس. التقطت الكاميرا في مدخل المنزل صورًا لاثنين ممّن يعتنون بالحديقة يغادران الساعة ٥:٤٠ مساءً. مالك خبير علم الحيوان غادر ذلك اليوم في الساعة ٥:٥٢. لايل غادر الساعة ٦:٠٢، وروزا الساعة ٦:٠٤ إذن ما أخبرنا به لايل أن بيكيت لا يترك طاقم عمل في الليل كان صحيحًا.

وهناك صفحة مكرسّة لملخّص شهادة دايفيس:

تركت لنا روزا بيتزا. أكلت أنا ونوا ونحن نلعب لعبة فيديو معًا. نزل أبي لبضع دقائق وجلس معنا وأكل البيتزا، ثم عاد وصعد إلى الطابق العلوي. لم يكن هناك أي شيء خارج عن المألوف. لم يبدُ متوترًا. كان يومًا عاديًا. بعد أن انتهيت أنا ونوا من تناول العشاء، وضعنا أطباقنا في المغسلة. ساعدته على أداء بعض الواجبات المدرسية ثم قرأت على الأريكة بعض المواضيع للمدرسة بينما استمر هو في لعبة فيديو. صعدت إلى الطابق العلوي حوالى الساعة العاشرة، اشتغلت

مكتبة

على بعض الواجبات المدرسية في غرفتي، ورصدتُ نجمين باستخدام تلسكوبي ـ فيغا وإبسيلون لاراي. ذهبت إلى النوم قرابة الحادية عشرة ليلًا. حتى وأنا أسترجع الأحداث، لم يكن هناك أي شيء غريب ذلك اليوم.

[صرّح الشاهد بأنه لم يلحظ أي شيء خارج عن المألوف عبر التلسكوب، مضيفًا، «تلسكوبي ليس للنظر باتجاه الأرض، وإلّا فسترى كل شيء مقلوبًا ومعكوسًا»].

تبعت ذلك إفادة نوا:

لعبت «جبهة القتال» لفترة مع دايفيس. أكلنا بيتزا على العشاء. انضم إلينا أبي لمدة قصيرة، وتحدّث عن فريق بايسبول الأشبال. قال لدايفيس إن عليه أن يهتمّ بي بصورة أفضل، فأجاب دايفيس، أنا لست أباه. غالبًا ما يتشاجران هو وأبي. وضع أبي يده على كتفي عندما وقف ليغادر، وبدا غريبًا. كنت بالفعل أشعر به يتشبّث بكتفي. ما كان مؤلمًا تقريبًا. ثم أرخى قبضته وتوجّه إلى الطابق العلوي. ساعدني دايفيس على أداء واجب الجبر ثم لعبت جبهة القتال لساعتين. صعدت إلى الطابق العلوي عند منتصف الليل تقريبًا ونمت. لم أر أبي بعد أن تمنّى لنا أن نصبح على خير.

كانت هناك صور أيضًا ـ مئة صورة تقريبًا ـ لكل غرفة في المنزل.

لم يظهر أي شيء في غير وضعيته. في مكتب بيكيت، حزمة جرائد يبدو أنها تُركت هناك ليلتها، لا من مدة طويلة. بالإمكان رؤية هاتف

مكتبة

خلوي على طاولة سريره الجانبية. السجادة نظيفة لدرجة أنني استطعت رؤية آثار قدمين في اتجاه مكتب بيكيت، وآثار قدمين بالاتجاه الآخر. الخزائن مليئة بالبدلات، العشرات منها مرتّبة بحسب اللون، من الرمادي الفاتح إلى الأسود الغامق. كشفت صورة مغسلة المطبخ ثلاثة أطباق متّسخة، يحتوي كل واحد منها على بقايا زيت البيتزا وصلصة الطماطم. إن دلّت الصور على شيء فإنما تدل على أن بيكيت ليس مفقودًا بل قد أُسري به إلى السماء.

إلّا أن التقرير لم يحتو على أي ذكر لصورة الرؤية الليلية، ما يعني أن بحوزتنا ما لم يكن بحوزة الشرطة: خطًا زمنيًا.

بعد المدرسة، ركبت هارولد وصرخت عندما ظهرت ديزي فجأة في المقعد الخلفي. «اللعنة. لقد أخفتني».

«آسفة»، قالت. «لقد اختبأت لأن ميكال وأنا في حصة التاريخ نفسها، ولا أرغب في مواجهة الأمر الآن، ثم إن عليّ الرد على العديد من التعليقات. إنها حياة صعبة لمؤلّفة روايات هواة يافعة. هل لفت انتباهك أي شيء في تقرير الشرطة؟»

كنت ما زلت أحاول التقاط أنفاسي، ولكنني قلت أخيرًا، «يبدو أنهم يعرفون أقل ممّا نعرف بقليل».

«نعم»، قالت ديزي. «مهلًا. هولمزي، هذا هو لبُّ الأمر. هم يعرفون أقل مما نعرف بقليل!»

«والمغزى؟»

«المكافأة لمن لديه 'معلومات تؤدي للوصول إلى مكان راسيل

مكتبة

دايفيس بيكيت'. «قد لا نعرف مكانه، لكن لدينا معلومات ليست بحوزتهم وستساعدهم على معرفة مكانه».

«أو لا»، قلت.

«يجب أن نتصل. يجب أن نتصل ونقول شيئًا على غرار، فرضًا، لو أننا نعرف أين كان بيكيت ليلة اختفائه، فما قيمة ذلك؟ قد لا تكون مئة ألف بالكامل، ولكن شيئًا ما».

«دعيني أتحدث مع دايفيس بالأمر»، قلت. كنت متخوّفة من خيانته، برغم أنني بالكاد أعرفه.

«حطّمي الوجد ولا تخلفي الوعد يا هولمزي».

«فقط... أقصد، من يعرف إن كانوا سيعطوننا مالًا مقابل ذلك؟ هي صورة فقط. هل تحتاجين إلى أن أوصلك إلى العمل؟»

«في الواقع، نعم».

بينما كنت أتناول العشاء مع أمي أمام التلفزيون تلك الليلة، فكّرتُ في القضية بصورة مستمرة. ماذا لو أعطونا مكافأة؟ كانت معلومات قيّمة ليست بحوزة الشرطة. ربما سيكرهني دايفيس، إذا اكتشف الأمر، لكن لماذا أهتمّ بما يفكر فيه شاب من المخيم الحزين عني؟

بعد فترة، تذرّعت بالواجب المدرسي وهربت إلى غرفتي. ظننت أنه ربما قد غاب عني شيء في تقرير الشرطة، فقرأته ثانية وكنت لا أزال أقرأه عندما اتصلت بي ديزي. بدأت الكلام حتى قبل أن أنتهي من قول «مرحبًا».

«أجريتُ محادثة على درجة عالية من الفرضية مع الخط المباشر،

مكتبة

وأخبروني أن المكافأة مقدمة من الشركة، لا من الشرطة، لهذا يرجع الأمر إلى الشركة لتقرّر ما هي المعلومات ذات الصلة، وأن المكافأة ستُمنح فقط بعد العثور على بيكيت. معلوماتنا بالتأكيد ذات صلة، ولكن من غير المحتمل أنهم سيعثرون على بيكيت من صورة الرؤية الليلية فقط، لهذا قد نضطر إلى اقتسام المكافأة مع غيرنا. أو إذا لم يعثروا عليه، فربما لن ننالها أبدًا. لكن، ذلك أفضل من لا شيء».

«أو مساوٍ للّا شيء تمامًا، إذا لم يعثروا عليه».

«نعم، لكنها لا تزال دليلًا. يجب أن ننال على الأقل جزءًا من المكافأة».

مكتبة الرمحي أحمد

«إذا عثروا عليه».

«يقبضون على المحتال. ننال المكافأة. لا أعرف لماذا تتلكئين، يا هولمز؟»

عندئذٍ صدر طنين من هاتفي. «عليّ أن أذهب»، قلت. وأغلقت الخط.

وصلتني رسالة نصية من دايفيس: كنتُ أفكر في السابق في أنه يجب ألّا تصادق أيّ شخص يحاول التقرّب من أموالك أو مكانتك.

بدأت في كتابة رد، إلّا أن رسالة أخرى وصلت. أعني، لا تُصادق أبدًا من لا يحبّك أنت.

بدأت في الكتابة مرة أخرى، ثم رأيت النقاط المتتالية على الشاشة التي تشير إلى أنه يكتب أيضًا، لهذا توقّفت وانتظرت. قد يكون المال جزءًا مني. ربما هو أنا.

مكتبة

بعد لحظة، أضاف: ما هو الفرق بين من تكون وما تمتلك؟ ربما لا شيء.

في هذه المرحلة، لا أكترث لِما يحبّني أيّ شخص. أنا في غاية الوحدة. أعرف أنه أمر محزن، ولكن هذه هي الحال.

أنا الآن متمدّد على بقعة رمل في ملعب غولف أبي وأتطلّع نحو السماء. كان يومي فظيعًا. أعتذر عن كل هذه الرسائل.

تمدّدت تحت الأغطية ورددت عليه: مرحبًا.

هو: قلت لك إنني لا أتقن الدردشة. نعم. هكذا نبدأ الحديث. مرحبًا.

أنا: أنت لست أموالك.

هو: إذًا ما أنا؟ ما هو أي شخص؟

أنا: أنا هي الكلمة الأصعب للتعريف.

هو: ربما أنت من لا تستطيع ألّا تكونه.

أنا: ربما. كيف تبدو السماء؟

هو: عظيمة. كبيرة. رائعة.

أنا: أحب أن أكون في الخارج أثناء الليل. يعطيني ذلك شعورًا غريبًا، كأنني أشعر بالحنين إلى مكان ما، ولكن ليس إلى البيت. لكنه شعور جميل.

هو: يغمرني الشعور ذاته في هذه اللحظة. هل أنت في الخارج؟

مكتبة

أنا: أنا في السرير.

هو: التلوث الضوئي يجعل رصد العين المجردة للنجوم رديئًا هنا، إلّا أن بإمكاني رؤية نجوم الدبّ الأكبر الثمانية كلها الآن، إذا أخذنا بالاعتبار نجم ألكور.

أنا: ما الذي كان فظيعًا في يومك؟

راقبت الـ   وانتظرت. كتب لمدة طويلة، وتخيّلته يكتب ويمحو، يكتب ويمحو.

هو: أنا وحيد في العالم.

أنا: وماذا عن نوا؟

هو: هو وحيدٌ أيضًا. وهذا أسوأ جزء. لا أعرف كيف أتحدث معه. لا أعرف كيف أوقف الألم. توقف عن تأدية واجباته المدرسية. لا أستطيع حتى أن أجعله يستحمّ بانتظام. هو ليس طفلًا صغيرًا. ليس بإمكاني أن أجبره على فعل أي شيء.

أنا: لو أنني أعرف شيئًا ما... مثل، شيئًا ما عن أبيك؟ وأفشيتُه، فهل سيجعل ذلك الوضع أفضل أم أسوأ؟

كتب لفترة طويلة. أسوأ بكثير، جاءت الإجابة أخيرًا.

أنا: لماذا؟

هو: لسببين: لو أن عمر نوا ثمانية عشر عامًا أو ستة عشر أو حتى أربعة عشر وشاهد أباه يدخل السجن، لكان ذلك أفضل

مكتبة

من حدوثه وهو في الثالثة عشرة. أيضًا، لو قُبض على أبي لأنه حاول الاتصال بنا، فسنتحمّل ذلك. لكن إذا قُبض عليه برغم عدم محاولته الاتصال بنا، فسيتحطم نوا. لا يزال يظن أن أبي يحبّنا.

للحظة، وللحظة فقط، فكرت في أنّ دايفيس قد يكون ساعد أباه على الاختفاء. لكنني لم أستطع تخيل دايفيس شريكًا متواطئًا مع أبيه.

أنا: آسفة. لن أقول أيّ شيء. لا تقلق.

هو: اليوم هو عيد ميلاد أمّنا، إلّا أنّ نوا بالكاد كان يعرفها. كل شيء مختلف له.

أنا: آسفة.

هو: كل ما في الأمر، أنك متى فقدت شخصًا، تدرك أنك ستفقد الجميع في نهاية المطاف.

أنا: بالفعل. ومتى أدركت ذلك، فلن تتمكّن أبدًا من نسيانه.

هو: بدأت السُحُب تتجمّع. عليّ أن أذهب إلى النوم. تصبحين على خير يا آزا.

أنا: تصبح على خير.

وضعت الهاتف على طاولة سريري الجانبية وسحبت بطّانيتي فوقي، وفكّرت في السماء الشاسعة فوق دايفيس وثقل الغطاء فوقي، فكرت في أبيه وأبي. كان دايفيس على حق: الكل يختفي في نهاية المطاف.

مكتبة

٨

وجدت ديزي واقفة بجوار الموقف المخصّص لي عندما وصلت أنا وهارولد إلى المدرسة صباح اليوم التالي. صيفُ إنديانا بوليس لا يدوم، وبرغم أننا كنا ما زلنا في شهر أيلول/سبتمبر، إلا أن ملابس ديزي، بتنّورتها وقميصها القصير الأكمام، لم تكن ملائمة للطقس.

«أنا في معضلة»، أعلنت حالما خرجت من السيارة، وأكملت الشرح ونحن نقطع مواقف السيارات. «ليلة البارحة، اتصل ميكال ليطلب مني الخروج معه، وكان من الممكن أن أتصرّف بشكلٍ أفضل لو أن الأمر اقتصر على الرسائل النصية ولكنك تعرفين كيف أضطرب من مكالمات الهاتف، كما أنني ما زلت غير متأكدة أن ميكال سيستطيع تحمّل كل هذا..». قالت مشيرة إلى جسمها بطريقة مبهمة. «أنا مستعدة لإعطاء الطفل الضخم فرصة. لكن في لحظة ارتباك، وحتى أتحاشى الالتزام بموعد بمعنى الكلمة، قد أكون اقترحت أن يكون موعدًا مزدوجًا معك ومع دايفيس».

مكتبة

«لم تفعلي ذلك»، قلت.

«وكان ردّه، 'قالت آزا إنها تتطلّع لإقامة أيّ علاقة'، وكان ردي، 'هي مولعة بشاب من مدرسة آسبن هول'، فردّ، 'ابن الملياردير'، فقلت، 'نعم'، فقال، 'لا أصدّق أني تلقيت رفضًا مزوّرًا لسبب مزوّر'، لكن على أي حال، ليلة الجمعة، سنقوم أنا وأنت ودايفيس وطفل بحجم رجل بنزهة».

«نزهة؟»

«نعم. وستكون رائعة».

«لا أحب الأكل في الخارج»، قلت. «لمَ لا نذهب إلى أبلبيز فقط ونستخدم كوبونين بدل كوبون واحد؟»

توقّفت واستدارت نحوي. كنا على الدرج خارج المدرسة، الناس يحيطون بنا، وخفت أن تدوسنا الأقدام، لكن لدى ديزي القدرة على شق البحر. فتح الناس الطريق أمامها. «دعيني أعدّد لك مخاوفي هنا»، قالت. «أوّلًا: لا أريد أن أكون وحدي مع ميكال خلال ما أرجّح أنه سيكون موعدنا الأول والأخير. ثانيًا: لقد أخبرته أنك مولعة بشاب من مدرسة آسبن هول، وليس بإمكاني تغيير ذلك. ثالثًا: لم أقض وقتًا حميميًا مع شخص آدمي منذ أشهر. رابعًا: بناءً على ما سبق، أنا قلقة بشأن الموضوع كله وأريد أن تكون صديقتي المقرّبة معي. ستلاحظين أن مخاوفي الأربعة السابقة لا تتضمّن الذهاب في نزهة، لهذا إن أردت تغيير مكان الموعد لأبلبيز فلا مانع عندي».

فكرت في ذلك لثانية. «سأحاول»، قلت. أرسلت رسالة نصية إلى دايفيس بينما كنت أنتظر أن يرن الجرس الثاني معلنًا بدء حصة الأحياء.

مكتبة

سيلتقي اثنان من أصدقائي للعشاء يوم الجمعة في أبلبيز على تقاطع شارع ٨٦ وديتش. هل أنت متفرّغ؟»

رد فورًا. نعم. أحضر لأُقِلَّكِ أم ألتقيك هناك؟

قابِلْنا هناك. هل تناسبك الساعة السابعة؟

بالتأكيد. أراك حينها.

بعد المدرسة ذلك اليوم، كان عندي موعد مع د. سينغ في مكتبها الخالي من النوافذ في مستشفى «جامعة إنديانا نورث» الكبير في كارمِل. اقترحت أمي أن توصلني، لكنني أردت بعض الوقت للانفراد مع هارولد.

طوال الطريق إلى هناك وأنا أفكر في ما سأقوله لد.سينغ. لا أستطيع التفكير على نحو صحيح والاستماع إلى الراديو في الوقت نفسه، لهذا كان الهدوء يعمّ داخل السيارة، في ما عدا صوت دقات قلب هارولد الميكانيكية. أردت أن أخبرها أنني أتحسّن، لأن السرد المرضي يسير بهذه الطريقة: المرض حاجزٌ تقفز فوقه، أو معركة تنتصر فيها. المرض قصة تُسرد بصيغة الماضي.

«كيف حالك؟» سألتْ عندما جلست. جدران مكتب د. سينغ عارية ما عدا صورة صغيرة لصياد يقف على شاطئ بشبكة مرمية على كتفه، تبدو كصورة جاهزة، مثل الصورة التي تأتي مجّانًا مع البرواز. لا توجد حتى أي شهادات على الحائط.

«أشعر بأنني لستُ من أقود باص وعيي»، قلت.

«لست المسيطرة»، قالت.

«أعتقد».

كانت تضع ساقًا على ساق، وقدمها اليسرى تدق على الأرض وكأنها تحاول إرسال شيفرة مورس «أس أو أس». حركة د. كارين سينغ متواصلة، مثل شخصية كرتونية غير متقنة، إلّا أن وجهها أعظم وجه بلا ملامح رأيته في حياتي، لا يُفشي عن القرف أو المفاجأة أبدًا. أتذكّر عندما أخبرتها أنني أتخيل تمزيق إصبعي الوسطى والدعس عليها أحيانًا، قالت، «لأن لألمك نقطة هناك»، فقلت، «ربما»، فهزّت كتفيها وقالت، «هذا ليس أمرًا غير معتاد».

«هل زادت تأملاتك أو أفكارك الجامحة؟»

«لا أعرف. تواصل الجموح».

«متى وضعت هذه اللصقة الطبية؟»

«لا أعرف»، كذبت. حدّقت إليّ من دون أن ترمش. «بعد الغداء».

«وخوفك من التهاب القولون الغشائي الكاذب؟»

«لا أعرف. يراودني أحيانًا».

«هل تشعرين بأنك قادرة على مقاومة الـ. ـ»

«لا»، قلت. «أقصد، ما زلت مجنونة، إذا كان هذا هو سؤالك. لا تغيير يُلحظ على جبهة الجنون».

«لاحظت أنك تستخدمين تلك الكلمة كثيرًا، جنون. وتبدين غاضبة عندما تنطقينها، وكأنك تشتمين نفسك».

مكتبة

«الكل مجنون هذه الأيام، د. سينغ. صحة المراهقين العقلية شيء من القرن العشرين».

«أشعر بأنك تقسين على نفسك».

بعد لحظة، قلت، «كيف بإمكانك أن تكوني أي شيء لنفسك؟ أقصد، إذا كان بإمكانك أن تكوني شيئًا لنفسك، إذن فنفسك ليست مفردة».

«بدأتِ تُشتّتين». حدّقت إليها. «أنت محقة، فالنفس ليست بسيطة، يا آزا، بل ربما ليست مفردًا. النفس جمع، إلّا أن الجمع يُمكن أن يُدمج، أليس كذلك؟ فكري في قوس قزح. هو قوس ضوئي واحد، لكنه في الوقت نفسه، سبعة أقواس من الضوء مختلفة الألوان».

«أشعر بأنني أقرب إلى سبعة أشياء مني إلى شيء واحد».

«هل تشعرين بأنّ نمط أفكارك يعرقل حياتك اليومية؟»

«نعم»، قلت.

«هل بإمكانك أن تعطيني مثالًا؟»

«لا أعرف، مثلًا، أكون في الكافتيريا وأبدأ التفكير كيف أن هناك أشياء تعيش داخلي وتأكل طعامي، وكيف أنني وهي واحد، على نحو ما ـ أعني، أنا لست بشرًا، ولست أكثر من كتلة البكتيريا المقرفة تلك، وليس هناك أي طريقة أنظف بها نفسي، لأن القذارة منتشرة داخلي. لا أستطيع الوصول إلى أعمق جزء صاف وغير ملوّث مني، ذلك الجزء الذي يُفترض أن تكون فيه روحي. ما يعني ربما أنه ما من روح لي مثل أنه ما من روح للبكتيريا».

مكتبة

«هذا ليس أمرًا غير معتاد»، قالت. تعبيرها المعتاد. سألتني د. سينغ بعدئذٍ إن كنت أرغب في تجربة العلاج بالتعرض مرة ثانية، وهو ما فعلناه عندما بدأت زيارتها، حين طُلب مني أن أقوم بأمورٍ مثل ملامسة إصبعي المتكلّسة على سطح قذر وعدم غسلها أو وضع لصقة طبية عليها. نجح ذلك لفترة، لكني لا أتذكّر الآن إلّا خوفي منه، ولم أتحمّل فكرة أن أعود إلى ذلك الخوف مرة أخرى، لهذا هززت رأسي رفضًا عند ذكره. «هل تواظبين على تناول ليكسابرو؟» سألت.

«نعم»، قلت. حدقت فيّ. «تناوله يرعبني شيئًا ما، لهذا لا آخذه كل يوم».

«يرعبك؟»

«لا أعرف». ظلّت تراقبني، قدمها تدق على الأرض. الهواء مكتوم في الغرفة. «إذا كان تناول حبة يجعلك مختلفة، أعني، يغيّرك من الصميم... هذه فكرة مجنونة، ألا تعتقدين ذلك؟ من يقرّر مَن «أنا»: أنا أم موظّفو المصنع حيثُ يُصنع ليكسابرو؟ وكأن هناك شيطانًا في داخلي، أريده فعلًا أن يختفي، ولكنّ فكرة التخلص منه بواسطة حبة... لا أعرف... غريبة. هناك أيام كثيرة أتغلب فيها على ذلك الشعور، لأنني أكره الشيطان بالفعل».

«تحاولين فهم تجاربك باستخدام التشبيهات، يا آزا: مثل شيطان داخلك؛ تسمّين وعيك باصًا، أو زنزانة سجن، أو لولبًا، أو دوّامة، أو عُقدة، أو ـ أعتقد أنك قلت مرة إنه دائرة مخربشة، ووجدتُ ذلك مدهشًا».

«نعم»، قلت.

«أحد التحديات المرافقة للألم ـ الجسدي أو النفسي ـ هو أننا

مكتبة

نستطيع الاقتراب منه بالفعل عبر التشبيه. لا يمكن تقديم صورة له كما نفعل مع طاولة أو جسم. في بعض الجوانب، الألم هو عكس اللغة».

التفتت إلى كمبيوترها، هزّت فأرة الكمبيوتر لتوقظه، ثم ضغطت صورة على الشاشة. «أريد أن أقرأ لك شيئًا كتبته فيرجينيا وولف: 'الإنكليزية، التي تستطيع التعبير عن أفكار هاملت ومأساة لير، لا تحتوي على كلمات للرعشة والصداع... عندما تقع طالبة في الحب، لديها شكسبير وكيتس ليصفا ما تشعر به؛ لكن عندما يحاول شخصٌ موجوع وصف ألم في رأسه لطبيب، تنضب اللغة في الحال'. ونحن مخلوقات تقوم أساسًا على اللغة لدرجة أننا لا نستطيع أن نعرف ما لا نتمكّن من تسميته. ولهذا نفترض أنه غير حقيقي. نشير إليه بألفاظ عامة، مثل جنون أو ألم مزمن، مسمّيات تنبذ وتقلّص في الوقت نفسه. لفظ ألم مزمن لا يصوّر أي شيء من صرير الألم المستمر الذي لا يتوقّف ولا مهرب منه. ولفظ جنون يأتينا خاويًا من الرعب والقلق اللذين تعيشينهما. كما أنّ أيًا من هذه الألفاظ لا يتضمّن الشجاعة التي يجسّدها من يعانون من تلك الآلام، وهذا هو السبب الذي يدفعني لأطلب منك أن تحيطي صحتك العقليّة بكلمة أخرى غير جنون».

«نعم»، قلت.

«هل بإمكانك أن تقولي ذلك؟ هل بإمكانك أن تقولي إنك شجاعة؟»

عبست. «لا تجبريني على الخضوع لذلك العلاج»، قلت.

«إنه علاج فعّال».

«أنا مقاتلة شجاعة في معركتي الداخلية»، قلت بوجه جامد.

مكتبة

كادت أن تبتسم. «فلنتحدّث عن خطة لتناول الدواء كل يوم»، قالت، ثم بدأت تتكلم عن الصباحات والمساءات، وعن أننا نستطيع تغيير الدواء وتجريب علاج آخر، لكن من الأفضل فعل ذلك خلال فترة تكون فيها الضغوط أقل، مثل إجازة الصيف.

أثناء ذلك، ولسبب ما، شعرت بوخز في معدتي. ربما هي أعصابي فقط من الاستماع إلى د. سينغ تحدّثني عن الجرعات. إلّا أن التهاب القولون الغشائي الكاذب يبدأ هكذا ـ تؤلمك معدتك لأن بكتيريا ضارّة تمكّنت من الوصول إلى أمعائك الرفيعة بطريقة ما والتمركز فيها ثم تتمزّق أحشاؤك وبعد اثنتين وسبعين ساعة تموت.

كنت بحاجة إلى إعادة قراءة الدراسة التي أُجريت عن امرأة التي لم تشتك من أي أعراض سوى ألم في المعدة ثم اتضح أنها تعاني من التهاب القولون الغشائي الكاذب. لن أستطيع إخراج هاتفي الآن ـ ستغضب ـ لكن هل اشتكت تلك المرأة من أعراض أخرى على الأقل، أم أنني مثلها تمامًا؟ لا أتذكّر. اللعنة. يحدث هذا الآن. أنت تتعرّقين الآن. بإمكانها أن تلاحظ. هل عليك إخبارها؟ هي طبيبة. ربما عليك أن تخبريها.

«معدتي تؤلمني بعض الشيء»، قلت.

«أنت لا تعانين من التهاب القولون الغشائي الكاذب»، أجابت.

أومأت وبلعت ريقي، ثم قلت بصوت منخفض، «أنت لا تعرفين ذلك».

«آزا، هل تعانين من الإسهال؟»

«لا».

مكتبة

«هل تناولت مضادات حيوية أخيرًا؟».

«لا».

«هل دخلت المستشفى مؤخرًا؟».

«لا».

«أنت لا تعانين من التهاب القولون الغشائي الكاذب».

أومأت، ولكنها ليست متخصصة في أمراض الجهاز الهضمي، ثم على أي حال، فأنا أعرف عن التهاب القولون الغشائي الكاذب أكثر منها. ٣٠ بالمئة تقريبًا ممن يموتون بسبب التهاب القولون الغشائي الكاذب لم يلتقطوه داخل مستشفى، وأكثر من ٢٠ بالمئة لم يعانوا من الإسهال. عادت د. سينغ إلى الحديث عن الأدوية، وبينما أصغيت إليها نصف إصغاء، شعرت بأنني سأتقيّأ. بدأت معدتي تؤلمني كثيرًا الآن، وكأنها تنعصر، وكأن مليارات البكتيريا داخلي تفسح المجال لكائنات جديدة من النوع الذي سيمزّقني من الداخل إلى الخارج.

تصبّب العرق مني. لو أنني أستطيع التأكد فقط من تلك الحالة. لاحظت د. سينغ ما يحدث.

«لمَ لا نجرب تمارين التنفّس؟» وهذا ما فعلناه، الزفير بعمق ثم الشهيق لهزّ شعاع الشمعة لا لإطفائه.

أخبرتني أنها تريد رؤيتي في غضون عشرة أيام. بإمكانك أن تقيس مقدار جنونك بناءً على قصر المدة التي يريدون رؤيتك بعدها مرة أخرى. في العام الماضي كنت أراها مرةً كل ثمانية أسابيع وقد استمرت الحال هكذا لفترة. الآن، أقل من أسبوعين بين الموعد والآخر.

مكتبة

في طريقي من مكتبها إلى هارولد، اطّلعتُ على التقرير عن الحالة. اشتكت تلك المرأة من الحمّى. قلت لنفسي أن تطمئن، وربما هدأت لفترة وجيزة، لكن حالما وصلت إلى المنزل، بدأت أسمع الهمس ثانية، بأن هناك شيئًا غير طبيعي في معدتي بالتأكيد لأن وخز الألم يرفض أن يزول.

أفكر، لن تتحرّري من هذا أبدًا.

أفكّر، أنت لا تختارين أفكارك.

أفكّر، أنت على وشك أن تموتي وفي داخلك حشرات ستلتهمك وتخرج من جلدك.

أفكّر وأفكّر وأفكّر.

٩

لكن كان عندي حياة أيضًا، حياة عادية شيئًا ما، استمرت. لساعات أو لأيام، كانت الأفكار تتركني وحالي، وعندها أتذكّر شيئًا قالته لي أمي ذات مرة: لن تبقى الأمور على حالها إلى الأبد. حاضرك لن يكون مستقبلك الأبدي. ذهبت إلى الصف، حصلت على علامات جيدة، أدّيتُ واجباتي، تحدّثت إلى أمي بعد الغداء، تناولت العشاء، شاهدتُ التلفزيون، قرأت. لم أكن عالقةً داخل نفسي دائمًا، أو داخل أنفسي. لم أكن مجرّد مجنونة.

في ليلة الموعد، وصلت إلى المنزل بعد المدرسة وقضيت ساعتين على الأقل في الاستعداد. كان يومًا خاليًا من السحب في أواخر شهر أيلول/سبتمبر، باردًا لدرجة تعلّل ارتداء معطف، لكنه دافئ كفاية لدرجة تسمح بارتداء فستان بأكمام طويلة مع جوارب. لكنّ ذلك قد يترك انطباعًا بأني بذلتُ جهدًا، والاستفسار من ديزي لم يساعدني لأنها أجابت بأنها سترتدي فستان سهرة ولم أكن متأكدة تمامًا إن كانت تمزح.

مكتبة

أخيرًا، اخترت بنطلون الجينز المفضّل لديّ وكنزة بقبّعة فوق تيشيرت أرجواني كانت ديزي قد أعطتني إياه عليه صورة هان سولو وتشوباكا في عناق حار.

ثم قضيت نصف ساعة أخرى في وضع الماكياج وإعادة وضعه. لا أهتمّ عادةً بهذه الأمور، ولكني كنت مضطربة، وأحيانًا يُشعرني الماكياج بأنه درع واق.

«هل وضعت كحلًا؟» سألت أمي عندما خرجت من غرفتي. كانت ترتّب الفواتير المنشورة على عرض طاولة القهوة. تراقص القلم بيدها فوق دفتر الشيكات.

«قليلًا»، قلت. «هل يبدو غريبًا؟»

«مختلفًا»، قالت أمي، من دون أن تنجح في إخفاء إحباطها. إلى «أين ستذهبين؟»

«إلى أبلبيز مع ديزي ودايفيس وميكال. سأعود قبل منتصف الليل».

«هل هو موعد؟»

«عشاء»، قلت.

«هل تواعدين دايفيس بيكيت؟»

«سيتناول كلانا العشاء في المطعم نفسه في الوقت نفسه. إنه ليس زواجًا».

أشارت إلى المكان بجوارها على الأريكة. «من المفروض أن

مكتبة

أكون هناك الساعة السابعة»، قلت. أشارت إلى الأريكة مرة أخرى. جلست ووضعت ذراعها حولي.

«أنت لا تتحدثين كثيرًا مع أمك».

أخبرتني د. سينغ ذات مرة أنه إذا كان عندك غيتار مضبوط تمامًا وكمان مضبوط تمامًا في الغرفة نفسها، وعزفت على الوتر الرابع في الغيتار، فسيرتج وتر الكمان الرابع في أقصى زاوية في الغرفة. كنت أشعر دائمًا بأوتار أمي المرتجة. «كما أنني لا أتحدث كثيرًا مع أي شخص».

«أريد منك أن تكوني حذرة بشأن دايفيس بيكيت، حسنًا؟ الثروة طائشة ـ لذا عليك أن تحاذري بشأنها».

«هو ليس ثروة. هو شخص».

«بإمكان الناس أن يكونوا طائشين أيضًا». احتضنتني بشدّة حتى شعرت بأنها تعصر الأنفاس مني. «حاذري. هذا كل شيء».

كنت أنا آخر من وصل، وجلستُ في المكان الفارغ الوحيد بجوار ميكال، مقابل دايفيس، الذي كان يرتدي قميصًا بنسيج مربع النقش مكويًا بإتقان، أكمامه مثنيّة كفاية لتكشف عن ساعديه. لا أعرف لماذا ولكنني أعجب دائمًا بسواعد الذكور.

«قميص جميل»، قال دايفيس.

«هدية عيد ميلادي من ديزي»، قلت.

«تعرف، يعتقد البعض أن من الهمجيّة أن يُحبّ ووكي بشرًا»، قالت ديزي.

مكتبة

تنهّد ميكال. «لا تفسح لها المجال لمناقشتها إذا كان الووكي أشخاصًا».

«هذا بالفعل أكثر شيء مثير في حرب النجوم»، قال دايفيس.

تأوّه ميكال. «يا إلهي. هذا ما كنتُ أخشاه». انطلقت ديزي مباشرة في دفاعها عن الحب بين الووكي والبشر. «تعرف، لفترة في ملحمة حرب النجوم، كان هان بالفعل متزوّجًا من ووكي، هل استشاط أحدهم غضبًا من ذلك؟» كان دايفيس مائلًا للأمام، مصغيًا باهتمام. كان أصغر حجمًا من ميكال إلا أنه شغل مساحة أكبر ـ غطّت أطراف دايفيس الطويلة الحيّز المحيط به كما يحتل جيش مقاطعة ما.

تبادل دايفيس وديزي الحديث عن تجرّد قوات 'كلون' من الإنسانية، ودخل ميكال في وسط الحوار ليوضح أن ديزي بالفعل مؤلّفة شهيرة لروايات هواة حرب النجوم. بحث دايفيس على هاتفه عن اسم المستخدم الذي تعتمده ديزي واندهش لوجود أكثر من ألفي قراءة لآخرِ قصصها، ثم بدأوا كلهم بالضحك على نكتة لحرب النجوم لم أتمكن من فهمها.

«ماء للجميع»، قالت ديزي عندما وصلت هولي لتأخذ طلب مشروباتنا.

التفت إليّ دايفيس وقال، «لا يقدّمون مشروب دكتور بيبر هنا؟»

«المشروبات الغازية لا يُغطيها الكوبون»، أوضحت هولي من دون أن تتغير نبرة صوتها. «لكن، لا. لدينا بيبسي».

«حسنًا، أعتقد أن بإمكاننا طلب بيبسي»، قال دايفيس.

أدركت أثناء الصمت الذي تبع ذلك أنني لم أتحدث منذ أن أطرى

مكتبة

دايفيس على قميصي. ثم تابع دايفيس، ديزي، وميكال حديثهم عن حرب النجوم وحجم الكون والسفر بأسرع من الضوء. «حرب النجوم هي الدين الأميركيّ»، قال دايفيس في مرحلة ما، وعلّق ميكال، «أعتقد أن الدين هو الدين الأميركيّ»، وبرغم أنني ضحكت معهم، شعرت وكأني أراقب كل شيء من مكان ما، وكأنني أشاهد فيلمًا عن حياتي بدل أن أعيشها.

بعد فترة، سمعت اسمي وعدت إلى جسدي، جالسة في أبليز، ظهري متّكئ على وسادة مُشمّعة، رائحة الطعام المقليّ، دندنة الحديث تدكّ أذنيّ من كل جهة. «هولمزي عندها صفحة فيسبوك»، قالت ديزي، «لكنّ آخر تحديث لها يرجع إلى المدرسة الإعدادية». فيما رمتني بنظرة لم أستطع تفسيرها، ثم قالت، «هولمزي أشبه بجدّة في ما يتعلّق بالإنترنت». توقّفت مرة ثانية. «أليس كذلك؟» قالت بحدّة، ثمّ أدركت أنها تحاول فسح المجال لي للحديث.

«أستخدم الإنترنت. لكنني لا أشعر بالحاجة إلى المساهمة في مضمونه».

«هناك وفرة من المعلومات على الإنترنت على أي حال»، أضاف دايفيس.

«خطأ»، قالت ديزي. «مثلًا، توجد كمية قليلة جدًا من قصص تشوباكا الغرامية العالية الجودة على الإنترنت، وأنا شخص واحد فقط، بإمكاني كتابة كمٍّ معين فقط. العالم بحاجة إلى قصص حب هولمزي عن ووكي». توقّفت المحادثة قليلًا. شعرت بوخز في ذراعي من الاضطراب، غددي العرقية تهدد بالانفجار. ثم عادوا إلى الكلام،

مكتبة

وانتقل الحديث من موضوع إلى آخر، كلّ منهم يقصّ حكاية، أصواتهم بعضها فوق بعض، ضاحكين. حاولت الابتسام وهزّ رأسي في الوقت الملائم، لكني كنت دائمًا متأخّرة لحظة عنهم. ضحكوا لأن شيئًا ما كان مضحكًا؛ ضحكت أنا لضحكهم.

لم أشعر بالجوع، لكن عندما وصل طعامنا، أقبلت على البرغر النباتي بشوكة وسكينة لأعطي الانطباع بأني آكل أكثر مما كنت أستطيع تحمّله. هدّأ تناول الطعام الحديث لفترة، إلى أن وضعت هولي الإيصال، فأخذته.

مدّ دايفيس يده عبر الطاولة ووضعها فوق يدي. «رجاءً»، قال. «لن يضيرني ذلك». تركته يأخذه.

«فلنعمل شيئًا ما»، قالت ديزي. كنت مستعدة للعودة إلى المنزل، تناول شيء ما وحدي، ثم الذهاب إلى النوم. «فلنذهب لمشاهدة فيلم أو شيء من هذا القبيل».

«نستطيع مشاهدة فيلم في منزلي»، قال دايفيس. «تصلنا جميع الأفلام».

مال رأس ميكال إلى جنب وقال. ماذا تقصد بـ «تصلنا جميع الأفلام؟».

«أعني، تصلنا جميع الأفلام التي تُعرض في السينما. لدينا صالة عرض، و... وندفع ثمن الأفلام. في الواقع، أنا لا أعرف كيف يجرى ذلك».

«تعني، عندما يبدأ عرض فيلم في السينما، يُعرض في منزلك أيضًا؟»

مكتبة

«نعم»، قال دايفيس. «عندما كنت طفلًا، كان يأتينا شخص بآلة لعرض الأفلام، لكن الآن، أصبح كل شيء رقميًا».

«تعني، داخل منزلك؟» سأل ميكال، محتارًا.

«نعم، سأريك»، قال دايفيس.

نظرت ديزي نحوي. «هل أنت على استعداد يا هولمزي؟» ابتسمت وأومأت بـ«نعم».

قدت هارولد إلى منزل دايفيس؛ ذهبت ديزي مع ميكال بسيارة أهله، وتقدّمَنا دايفيس بسيارته الإسكاليد. توجهت قافلتنا الصغيرة غربًا على الشارع ستة وثمانين نحو طريق ميتشيغان، وقدنا عليه مرورًا بوول مارت، متجاوزين محالّ الرهن والقروض باتجاه بوابة قصر دايفيس على الشارع المقابل لمتحف الفن. لم يكن موقع قصر آل بيكيت في جادّة رائعة بمعنى الكلمة، لكنه كان من الضخامة بحيث كان جادّة بنفسه.

فُتِحت البوابة وتبعنا دايفيس إلى موقف سيارات محاذ للقصر الزجاجي. بدا البيت أروع بكثير في العتمة. عبر الجدران، رأيت المطبخ غارقًا في ضوء ذهبي.

أسرع ميكال باتجاهي وأنا أنزل من هارولد. «هل تعرفين ـ يا إلهي، لطالما أردت أن أرى هذا البيت. إنه من تصميم تو-كواين فام».

«من؟»

«المهندسة المعمارية»، قال. «تو-كواين فام. إنها مشهورة جدًا.

مكتبة

صمّمت ثلاثة مساكن فقط في الولايات المتحدة. يا إلهي، لا أصدّق أني أرى هذا بالفعل».

تبعناه إلى المنزل، وهتف ميكال بسلسلة من أسماء الفنانين. «بيتيبون! بيكاسو! يا إلهي هذا كيري جيمس مارشال». بيكاسو هو الاسم الوحيد الذي تعرّفت عليه.

«نعم، في الواقع أنا من ضغط على أبي لشرائها»، قال دايفيس. «قبل عامين، أخذني إلى معرض فني في ميامي بيتش. أحب أعمال كيري جيمس مارشال كثيرًا». انتبهت إلى نوا متمدّدًا على الأريكة ذاتها، منهمكًا في ما يبدو أنها لعبة الفيديو ذاتها. «نوا، هؤلاء أصدقائي. يا أصدقاء، هذا نوا».

«أهلًا»، قال نوا.

«هل تمانع إذا تمشّيت في المنزل؟» سأل ميكال.

«كلا، بالتأكيد. يوجد أحد أعمال روشنبرغ في الطابق العلوي».

«غير معقول»، قال ميكال، وصعد إلى الطابق العلوي بسرعة، وديزي وراءه.

وجدت نفسي منجذبة إلى اللّوحة التي سمّاها ميكال، «بيتيبون». كانت لولبًا ملوّنًا، أو ربما وردة متعدّدة الألوان، أو دوّامة. بسبب خداع الخطوط المنحنية، أصيبت عيناي بعدم وضوح الرؤية واضطررت إلى إعادة التركيز على أجزاء صغيرة في اللوحة. لم تبدُ وكأنها شيءٌ أنظر إليه بل شعرت بأنني جزءٌ منها. شعرتُ برغبة جامحة في خلع اللوحة عن الحائط والهرب بها لكنني طردت مني هذا الشعور.

مكتبة

جفلتُ عندما وضع دايفيس يده على أسفل ظهري. «رايموند بيتيبون. أكثر ما يشتهر به هو لوحاته لراكبي الأمواج، لكنني أحبّ لوحاته اللولبية. كان أحد عازفي موسيقى البانك قبل أن يصبح فنانًا. كان في فرقة العلم الأسود قبل أن تصبح فرقة العلم الأسود».

«لا أعرف ما هي فرقة العَلم الأسود»، قلت.

أخرج هاتفه وطبع عليه قليلًا، فانبعثت موجة صوتية حادّة، بصوت مبحوح صارخ، لتملأ الغرفة من سمّاعات علوية. «هذه فرقة العلم الأسود»، قال، ثم استخدم هاتفه لإيقاف الموسيقى. «هل تريدين رؤية صالة العرض؟»

أومأت موافقةً فاصطحبني إلى القبو، لم يكن قبوًا فعلًا فارتفاع السقف فيه يصل إلى خمسة أمتارٍ تقريبًا. مشينا عبر الممر باتجاه رفّ كتب صُفّت عليه المجلّدات. «مجموعة أبي للطبعات الأولى»، قال. «لا يُسمح لنا بقراءة أي منها بالتأكيد، فالزيت من اليد البشرية يتلفها. لكن بإمكانك استعارة هذا»، قال، مشيرًا إلى مجلّد لنسخة «رقيق هو الليل».

مددت يدي إليه وحالما لمست يدي عمود الكتاب، انفتح رفّ الكتب من الوسط باتجاه الداخل ليكشف عن صالة العرض، التي كانت تضمّ ستة صفوف مقاعد على غرار المدرّجات الرياضية بجلد أسود. «تأليف ف. سكوت فيتزجيرالد»، أوضح دايفيس، «واسمه الكامل فرنسيس سكوت كي فيتزجيرالد». لم أقل أي شيء. لم أستطع التغلب على دهشتي من حجم شاشة السينما. «أعتقد أن من الواضح أنني أحاول ترك انطباع جيد لديك». قال.

telegram @ktabpdf

مكتبة

«لكن من دون جدوى. فأنا أقضي وقتي دائمًا في قصور بصالات عرض خفية».

«هل ترغبين في مشاهدة شيء ما؟ أم نستطيع الخروج والتمشّي. أريد أن أريك شيئًا في الخارج».

«يجب ألّا ننسى ديزي وميكال».

«سأخبرهما». عبث بهاتفه لثانية ثم تحدّث عبره. «سنتمشّى في الخارج. اعتبرا المنزل منزلكما. صالة العرض في القبو إن شئتما ذلك».

بعد لحظة، تردّد صوته عبر السمّاعات، مكرّرًا ما قاله للتو. «كان بإمكاني البعث برسالة نصية إليها».

«بالتأكيد، لكنّ ذلك ليس بهذه الإثارة».

أغلقتُ سحّاب الكنزة وتبعت دايفيس إلى الخارج. مشينا بصمت فوق ممرّات الغولف المرصوفة، بمحاذاة بركة السباحة، التي كانت مضاءة من الداخل، بِألوان تتغيّر ببطء من الأحمر إلى البرتقالي فالأصفر والأخضر. عكَس الضوء وهجًا غريبًا على نافذة مربى الحيوانات ذكّرتني بصور لأضواء الشمال.

تابعنا المشي حتى وصلنا إلى مساحة رملية بيضاوية في ملعب الغولف. تمدد دايفيس داخلها، مسندًا رأسه إلى حافتها العشبية، وتمدّدت بجواره. تلامست معاطفنا من دون أن يتلامس جسمانا. أشار إلى السماء وقال، «تلوّث الضوء أمر فظيع، لكن أكثر النجوم لمعانًا، هذا الذي ترينه ـ هناك، هل ترينه؟» أومأت. «هذا ليس نجمًا. إنه كوكب المشتري. يبعد المشتري عنا، بناءً على مساره، بين ثلاثمئة

مكتبة

وستين مليون ميل وستمئة وسبعين مليونًا. حاليًا، يبعد عنا خمسمئة مليون ميل تقريبًا، وهو ما يعادل خمسًا وأربعين دقيقة ضوئية. تعرفين ما هو توقيت الضوء؟»

«نوعًا ما»، قلت.

«يعني، إذا كنا نسافر بسرعة الضوء، فسنستغرق خمسًا وأربعين دقيقة لبلوغ كوكب المشتري من الأرض، لهذا فإن المشتري الذي نراه الآن هو المشتري قبل خمس وأربعين دقيقة مضت. لكن، فوق تلك الأشجار هناك، تلك النجوم الخمسة التي تكوّن حرف «دبليو» W غير مستوٍ؟»

«نعم»، قلت.

«هذه هي الكوكبة «ذات الكرسي». والأمر المدهش هو أن النجم الواقع في القمة، «الكف الخصيبة»، يبعد ٥٥ سنة ضوئية. ثم هناك نجم «صدر ذات الكرسي»، على بعد ٢٣٠ سنة ضوئية. ثم هناك النجم «نافي»، على بعد ٥٥٠ سنة ضوئية. لسنا فقط بعيدين عن هذه النجوم؛ لكنها ليست متقاربة أيضًا. بحسب معلوماتنا، انفجر نافي قبل خمسمئة سنة».

«واو!» قلت. «نحن نتأمّل الماضي».

«نعم، تمامًا». شعرت به يبحث عن شيء ـ هاتفه، ربما ـ ثم نظرت لأدرك أنه كان يحاول الإمساك بيدي. أمسكت بيده. كنا صامتين تحت الضوء القديم فوقنا. كنت أفكّر كيف أن السماء ـ على الأقل هذه السماء ـ ليست سوداء فعلًا. العتمة الحقيقية تكمن في الأشجار،

مكتبة

التي نرى ظلالها فقط. كانت الأشجار ظلالًا ذاتية مقابل زرقة سماء الليل الفضية.

سمعته يدير رأسه تجاهي وشعرت به ينظر إليّ. تساءلت لماذا وددتُ أن يقبّلني، وعن السبيل لمعرفة السبب الذي يجعلنا نرغب في أن نكون مع شخصٍ ما، وعن كيفية حلّ فوضى عُقد الرغبة. وتساءلت: لمَ كنت خائفة من إدارة رأسي تجاهه؟

عاد دايفيس للتحدث عن النجوم مرة أخرى ـ مع ازدياد ظلام الليل، بدأت أرى أعدادًا أكثر منها، باهتة ومهتزّة، تتأرجح على حافة الرؤية ـ وأخبرني عن تلوث الضوء وكيف أن بإمكاني رؤية النجوم تتحرك إذا انتظرت كفاية، وكيف أن فيلسوفًا إغريقيًا ظن أن النجوم وخز دبابيس بكفن كونيّ. ثم، بعد أن صمت فترة، قال، «أنت لا تتكلمين كثيرًا يا آزا».

«لا أعرف أبدًا ما عليّ قوله».

قلّد ما قلته يوم التقينا عند المسبح. «حاولي أن تقولي ما يخطر على بالك. علمًا أنني لا أفعل ذلك أبدًا».

أخبرته الحقيقة. «تدور أفكاري حول أمور تتعلّق بالكائنات العضوية».

«أيّ أمور؟».

«من الصعب أن أشرح»، قلت.

«حاولي».

نظرت إليه الآن. الكل يمدح الجاذبية العفوية للعيون الخضر

مكتبة

والزرق، لكن كان هناك عمق في عيني دايفيس البنّيتين لا تجده في الألوان الفاتحة، والطريقة التي نظر بها إليّ جعلتني أشعر بأن ثمة قيمة فعلية في لون عينيّ البنيّ أيضًا.

«أعتقد أنني لا أحب ضرورة أن أكون داخل جسد؟ لا أعلم إن كان هذا يعني لك أي شيء. وأظن أنني بالفعل لستُ إلّا آلة تحوّل الأوكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، وحدة عضوية فقط في هذه... الرحابة كلّها. ويُخيفني أنّ «نفسي» لا تخضع لتحكّمي فعلًا؟ أنا متأكّدة أنك لاحظت، يدي متعرّقة الآن، برغم أنّ الجو أبرد من أن أتعرّق. كم أكره عدم قدرتي على التحكّم بتعرّقي، فمتى ما بدأت أتعرّق لا أتمكّن من التوقّف، ثم أنه لا يعود بإمكاني التفكير في أي شيء آخر سوى أنني أتعرّق. وإذا كنت لا تختار ما تفعله أو تفكر فيه، فربما أنت لست حقيقيًا؟ ربما لستُ إلّا كذبة أهمسها لنفسي».

«في الواقع، لم أنتبه إلى أنك متعرّقة على الإطلاق. لكنني أراهن أنّ هذا لا يساعدك».

«نعم، لا يساعد». سحبت يدي من يده ومسحتها على بنطلوني الجينز، ثم مسحت وجهي بكمّي. شعرت بالقرف من نفسي. كنت مقرّزة، لكنني لم أستطع الابتعاد عن نفسي لأني عالقة داخلها. فكرت كيف أن رائحة العرق ليست من العرق نفسه، لكن من البكتيريا التي تلتهمه.

بدأت أخبر دايفيس عن طفيلي غريب اسمه ديبلوستومام سودو باثاسيوم، ينمو في عيون السمك، ولا يستطيع التكاثر إلا داخل معدة طائر. تسبح الأسماك الناقلة للطفيليات اليافعة في أعماق البحر حتى لا

مكتبة

تراها الطيور، لكن، حالما يُصبح الطفيليّ مستعدًا للتكاثر، تبدأ الأسماك فجأة بالسباحة قرب سطح الماء، في محاولة منها لجعل الطيور تأكلها، وتُفلح بذلك في نهاية المطاف، وينتهي الطفيلي الذي يقود العملية كلّها في المكان الذي يبتغيه: في معدة طائر، حيث يتكاثر، ثم تطرح الطيور الطفيليات الصغيرة كفضلات في الماء، وهناك تلتقي سمكة، وتتجدّد الدورة مرة أخرى.

كنت أحاول أن أشرح لما أخافني ذلك كثيرًا، لكني لم أفلح، وانتبهت إلى أنني وجّهت الحديث بعيدًا جدًا عن اللحظة التي تشابكت فيها أيدينا وكنا على وشك أن نتعانق، وانتقلت للحديث عن براز الطيور الملوّث بالطفيليات، وهو عكس الرومانسية، لكنني لم أستطع إيقاف نفسي، لأنني أردت منه أن يفهم أنني شعرت بأنني سمكة، وبأن قصتي كلّها من تأليف شخص آخر.

لدرجة أنني بُحتُ له بشيءٍ لم أقُله لديزي مطلقًا أو لِد. سينغ أو أيّ شخص آخر ـ أني بدأت بالضغط بظفر إبهامي على رأس إصبعي كطريقة لإقناع نفسي بأنني حقيقية. عندما كنت صغيرة، أخبرتني أمي أنك إذا قرصتَ نفسك ولم تستيقظ، فمن المؤكد أنك لا تحلم؛ لهذا صرت كلّما فكرت في أنني قد لا أكون حقيقية، أغرس ظفري في رأس إصبعي، وأشعر بالألم، وللحظة أفكر، بالتأكيد أنا حقيقية. لكنّ السمكة تشعر بالألم، هذا هو بيت القصيد. ليس بإمكانك أن تعرف إن كنت في خدمة طفيلي ما، ليس قطعًا.

بعد أن قلت كل ذلك، صمتنا لفترة طويلة، حتى قال أخيرًا، «بقيت أمي في المستشفى قرابة الستة أشهر بسبب تمدّد الأوعية الدموية. هل

مكتبة

كنت تعرفين ذلك؟» هززت رأسي. «أعتقد أنها كانت في غيبوبة أو شيء من هذا القبيل ـ لم تستطع الكلام أو أي شيء، أو حتى تناول الطعام بنفسها، لكن أحيانًا، إذا وضعت يدي في يدها، كانت تشدّ عليها.

«كان نوا أصغر من أن يتمكّن من زيارتها بشكلٍ مستمر، لكنني فعلت ذلك. كل يوم بعد المدرسة، كانت روزا تصحبني إلى المستشفى وكنت أتمدّد في السرير معها ونشاهد سلاحف النينجا على التلفزيون في غرفتها.

«كانت عيناها مفتوحتين وبإمكانها التنفّس وحدها، وكنت أتمدّد هناك بجوارها وأشاهد سلاحف النينجا، وكنت أقبض على الرجل الحديدي بيدي دائمًا، أصابعي مشدودة بإحكام حوله، وكنت أضع كفي بيدها وأنتظر. أحيانًا كانت تشد على يدي، قبضتها حول قبضتي، وحدوث ذلك، كان يُشعرني... لا أدري... بأنها تحبني.

«على أي حال، أتذكّر أن أبي جاء ذات مرة، ووقف متكئًا على الحائط عند طرف الغرفة وكأنها مُعدية. في مرحلة ما، شدّت على يدي، فأخبرته. قلت له إنها تمسك بيدي فقال، 'إنها حركة لا إرادية فقط'، فقلت، 'أبي، إنها ممسكة بيدي، انظر'. فقال، 'إنها ليست هناك يا دايفيس. لم تعد موجودة هناك'.

«لكن الأمور لا تجري هكذا يا آزا. كانت أمي حقيقية. كانت لا تزال حية. كانت شخصًا تمامًا مثل أي شخص آخر؛ أنت حقيقية، لكن ليس بسبب جسدك أو أفكارك».

«إذن بسبب ماذا؟» قلت.

مكتبة

تنهّد قائلًا. «لا أعرف».

«شكرًا لإخباري بذلك»، قلت. استدرت نحوه وتأمّلتُ جانب وجهه. كان دايفيس يبدو أحيانًا مثل صبي صغير، جلده شاحب، والحبوب تملأ دقنه. لكنه كان يبدو وسيمًا الآن. أصبح الصمت بيننا غير مريح حتى سألته أخيرًا أغبى سؤال، لأني بالفعل أردت معرفة الجواب. «فيم تفكّر؟»

«أفكر في أن هذا أروع بكثير من أن يكون حقيقيًا»، قال.

«ماذا؟»

«أنت».

«أوه». ثمّ أضفت بعد ثانية، «لا أحد يقول أبدًا إن شيئًا ما أفظع بكثير من أن يكون حقيقيًا».

«أعرف أنك شاهدت الصورة. صورة الرؤية الليلية». لم أجب، فتابع. «هذا ما تريدين إبلاغ الشرطة عنه. هل قدموا إليك مكافأة مقابلها؟»

«أنا لست هنا بحثًا عن ـ» قلت.

«لكن كيف لي أن أعرف ذلك يا آزا؟ كيف سأعرف؟ مع أي شخص؟ هل أعطيتهم إيّاها؟»

«لا، لن نفعل. ديزي تريد ذلك، لكنني لن أدعها. أعدك».

«ليس بإمكاني أن أعرف ذلك»، قال. «أحاول جاهدًا أن أنسى الموضوع، لكني لا أستطيع».

مكتبة

أجبته: «لا أريد المكافأة»، لكنني لم أكن متأكدة أنني أقصد ما قلت بالفعل.

«أن تكون هشًّا معناه أن تصبح عرضة للاستغلال».

«لكنّ هذا ينطبق على أي شخص»، قلت. «ثمّ أن الصورة ليست ذات أهمية. هي صورة فقط. لا تدل على مكانه».

«تعطيهم وقتًا ومكانًا. لكنك محقّة. لن يعثروا عليه. لكنهم سيسألونني لِمَ لَمْ أسلّمهم الصورة. ولن يصدقوني أبدًا، لأن لديّ سببًا مقنعًا. كل ما في الأمر أني لا أريد مواجهة طلاب المدرسة أثناء محاكمته. لا أريد أن يضطر نوا إلى مواجهة ذلك. أريد... أن يعود كل شيء كما كان. وغيابه أقرب لذلك من كونه في السجن. الحقيقة، لم يقل لي إنه سيغادر. لكنه لو فعل، لما كنت سأمنعه».

«حتى لو أعطيناهم تلك الصورة، لا يعني ذلك أنهم سيقبضون عليك».

فجأة، وقف دايفيس وانطلق عبر ملعب الغولف. «هذه مشكلة يمكن حلها تمامًا»، سمعته يتحدث مع نفسه.

تبعته على الدرب المؤدّي إلى الكوخ، ودخلناه. كانت كابينة ريفية ملبّسة بالخشب في كل مكان، سقف عال، ومجموعة مدهشة من رؤوس الحيوانات معلّقة على الحيطان. أريكة ضخمة منقوشة وكراسٍ متشابهة كوّنت نصف دائرة أمام مدفأة ضخمة.

توجّه دايفيس إلى البار، فتح الخزانة فوق المغسلة، وسحب علبة حبوب الإفطار بالعسل، وبدأ بهزّ محتوياتها. سقطت بعض الحبوب

مكتبة

في المغسلة، تلتها رزمة أموال ملفوفة بشريط ورقي. تقدّمت إلى الأمام ورأيت ما هو مكتوب على الشريط، «١٠,٠٠٠ دولار»، ما بدا مستحيلًا لأن الرزمة نحيلة جدًا ـ سمكها نصف سنتمتر على الأكثر. سقطت رزمة أخرى من علبة الحبوب، ثم أخرى. مدّ يده إلى علبة حبوب إفطار أخرى وكرّر فعلته. «ماذا ـ ماذا تفعل؟»

أمسك بعلبة ثالثة وقال، «يخفيها أبي في كل مكان. هذه الرزم. وجدت واحدة في أريكة غرفة الضيوف قبل أيام. يخفي النقود مثلما يخفي مدمنو الكحول قوارير الفودكا». أزاح دايفيس بعض غبار حبوب الإفطار عن أوراق من فئة المئة دولار ورصّها بجوار المغسلة، ثم أمسكها. كل الرزم في يد واحدة. «مئة ألف دولار»، قال، وقدمها إليّ.

«مستحيل، يا دايفيس. لا أستطيع ـ»

«آزا، وجدت الشرطة ما يقارب مليوني دولار وهم ينفّذون أمر التفتيش، وأنا متأكد أنهم لم يعثروا على نصف المبالغ المخبّأة. أينما نظرت، أجد هذه الرزم. قد يبدو ما أقول بعيدًا عن الواقع، لكنه خطأ حسابي لأبي. هي مكافأة لعدم الإبلاغ عن الصورة. سأطلب من محامينا الاتصال بك. سايمون موريس. شخص طيب، لكنه رجل قانون».

«أنا لا أحاول ـ»

«لكن ليس بإمكاني التأكد من ذلك»، قال. «أرجوك، فقط ـ إن اتصلت أو بعثت برسالة بعدها، فسأعرف أن السبب ليس المكافأة. وستعرفين أنت أيضًا. سيكون شيئًا جميلًا أن أعرف ـ حتى إذا لم تتصلي». توجّه إلى خزانة، فتحها، حشر النقود بحقيبة قماشية زرقاء، وقدمها إليّ.

مكتبة

بدا الآن مثل طفل ـ عيناه البنيتان الدامعتان، الخوف والإرهاق على وجهه، مثل طفل يستيقظ من كابوس. أخذت الحقيبة.

«سأتصل بك»، قلت.

«سنرى».

غادرت الكابينة بهدوء، ثم ركضت عبر ملعب الغولف، حول مبنى البركة، وركضت باتجاه القصر. صعدت إلى الطابق العلوي وعبرتُ ممرًّا طويلًا حتى سمعت ديزي تتحدّث خلف باب مغلق. فتحته. وجدت ديزي وميكال يتعانقان فوق سرير كبير بأربعة أعمدة.

«إحم»، قلت.

«بعض الخصوصية، من فضلك؟» قالت ديزي.

أغلقت الباب وأنا أتمتم. «لكنه ليس منزلك».

لم أعرف أين أذهب حينها. نزلت إلى الطابق الأرضي. كان نوا على الأريكة يشاهد التلفزيون. وأنا أمشي نحوه، انتبهت أنه يرتدي بيجاما كابتن أميركا برغم أنه كان في الثالثة عشرة. في حجره، وعاء يبدو أن فيه حبوب إفطار لاكي تشارمز جافّة. قبض على حفنة وحشرها في فمه. «هيه»، قال وهو يمضغ. كان شعره مزيّتًا وملبّدًا على جبهته، وعن قرب، بدا شاحبًا، شفّافًا حتى.

«هل أنت بخير يا نوا؟»

«من انتصار إلى آخر»، قال. ابتلع ثم قال، «هل وجدت أي شيء؟»

«هاه؟»

مكتبة

«عن أبي»، قال. «أخبرني دايفيس أنك تسعين وراء المكافأة. هل عثرت على أي شيء؟»

«ليس بالتحديد».

«هل بإمكاني أن أرسل إليك شيئًا؟ احتفظت بجميع ملاحظات أبي من الآي كلاود. من الممكن أن تساعدك. قد تكون دليلًا أو شيئًا ما. آخر ملاحظة، كتبها في تلك الليلة، هي ’فم العدّاء‘. هل يعني ذلك أي شيء لك؟»

«لا أعتقد». أعطيته رقمي ليبعث لي بالملاحظات وقلت له إنني سأنظر في الأمر.

«شكرًا»، قال. انخفض صوته. «يعتقد دايفيس أننا أفضل حالًا وهو هارب. يقول إن الأمر سيكون أسوأ إن دخل السجن».

«ما رأيك أنت؟»

حدّق فيّ لحظة، ثم قال، «أريد أن يعود إلى المنزل».

جلست على الأريكة بجواره وقلت له. «أنا متأكدة أنه سيعود».

شعرت به ينحني حتى لامست كتفه كتفي. لم أكن أكترث كثيرًا لملامسة الغرباء، وخاصة أنه لم يستحمّ منذ فترة على ما يبدو، لكنني قلت، «لا ضير في أن تشعر بالخوف، يا نوا». فأدار وجهه عني وبدأ بالنحيب. «أنت على ما يرام»، قلتُ له، كذبًا. «أنا على ما يرام. سيعود إلى المنزل».

«لا أستطيع التفكير باتّزان»، قال، صوته المنخفض يخنقه البكاء. «منذ غادر، وأنا لا أستطيع التفكير بطريقة متّزنة». كنت أدرك كيف

مكتبة

يشعر ـ طوال حياتي، لم أستطع التفكير باتّزان، لم أتمكّن حتى من الانتهاء من فكرة لأن أفكاري لا تجيء بخطّ بل تتخّذ شكل دوائر معقودة ومتداخلة، في رمال متحركة مُغرقة، في ثقوب تبتلع الضوء. «أنت على ما يرام»، كذبت عليه مرة ثانية. «على الأرجح أن كل ما تحتاج إليه هو بعض الراحة». لم أعرف ما أقول بعد ذلك. كان صغيرًا ووحيدًا جدًا.

«هل ستخبرينني؟ أقصد، إذا عثرت على شيء عن أبي؟»

«نعم، بالتأكيد».

بعد فترة، اعتدل ومسح وجهه بكمّه. أخبرته أن عليه أن ينام. كانت الساعة تشارف منتصف الليل.

وضع وعاء اللاكي تشارمز على طاولة القهوة، وقف وصعد إلى الطابق العلوي من دون أن يقول تصبحين على خير.

لم أعرف أين أذهب، ووجود حقيبة النقود بين يديّ أخافني قليلًا، لهذا، في النهاية، غادرت المنزل. نظرت إلى السماء في طريقي إلى هارولد، وفكرت في الكوكبة ذات الكراسي، قرون من الضوء بعيدة عني وبعضها عن بعض.

أرجحت الحقيبة في يدي وأنا أمشي. كانت عديمة الوزن تقريبًا.

مكتبة

١٠

بعثت برسالة نصية إلى ديزي صباح اليوم التالي وأنا ما زلت في السرير.

لديّ أخبار حاسمة اتصلي بي عندما تستطيعين.

اتّصلتْ فورًا.

«أهلًا»، قلت.

«أعرف أنه طفل ضخم»، ردّت، «لكنه لطيف إذا تمعّنتِ فيه عن قرب. بصورة عامة، فاتن، ومنفتح جنسيًا ومريح، برغم أننا لم نفعلها أو أي شيء من هذا القبيل».

«أنا سعيدة لأجلك. ليلة البارحة ـ»

«ومن الواضح أنه يستلطفني؟ أشعر عادة بأنّ الشباب يخافون مني بعض الشيء، لكنه لم يكن كذلك. يحضنك وتشعرين بأنك محتضَنة،

مكتبة

تعرفين ما أقصد؟ كما أنه اتصل بي هذا الصباح، ووجدت ذلك أمرًا لطيفًا لا دلالة مقلقة على الحماسة الزائدة. لكن أرجوك، لا تعتقدي أني الصديقة المقرّبة التي تقع في الغرام وتهجر صديقاتها. انتظري، يا إلهي، لقد قلت للتو إنني مغرمة. بدأنا العلاقة منذ أقل من أربع وعشرين ساعة وها أنا أقذف قنبلة الحب. ما الذي يجري لي؟ كيف أصبح هذا الصبي الذي أعرفه منذ الصف الثامن رائعًا فجأة؟»

«لأنك تقرئين الكثير من روايات الهواة الرومانسية».

«ليس هناك ما يُسمّى روايات الهواة الرومانسية»، أجابت. «كيف هو دايفيس؟»

«هذا ما أريد التحدث معك عنه. هل نستطيع أن نلتقي في مكان ما؟ من الأفضل أن أريكِ». أردت أن أرى وجهها عندما تنظر إلى النقود.

«عندي موعد إفطار لسوء الحظ».

«ظننت أنك لن تهجري صديقاتك»، قلت.

«وهذا ما لن أفعله. موعد الإفطار مع السيد تشارلز تشيز. يا حسرتي! هل نستطيع الانتظار حتى يوم الإثنين؟»

«لا أعتقد»، قلت.

«إذن، أنتهي من العمل الساعة السادسة. أبلبيز. لكني قد أضطر إلى إنجاز أكثر من شيء في الوقت نفسه، فأنا أحاول إكمال قصة ـ لا تأخذي الأمر بصورة شخصية، إنه يتصل بي الآن وعليّ الذهاب، أحبك مع السلامة».

مكتبة

عندما أرخيت هاتفي، انتبهت لأمي واقفة في مدخل غرفتي. «هل كل شيء على ما يرام؟»، سألتني.

فأجبتها: «يا للمراقبة المفرطة، يا أمي».

«كيف كان موعدك مع ذلك الصبي؟»

«أيّ صبي؟ هناك الكثيرون منهم. لديّ جدول يساعدني على تذكّرهم جميعهم».

لقضاء الوقت ذلك الصباح، تصفّحت ملف نوا الذي يحتوي على الملاحظات المنقولة عن تطبيق أبيه. كانت قائمة طويلة، وتبدو عشوائية، علمًا أنها تغطي كل شيء من عناوين الكتب إلى الاقتباسات.

مع مرور الوقت، ستسعى الأسواق لتكون حرة أكثر.

قيمة تجريبية.

الطابق الخامس سلّم الدرج الأول

عار ـ كويتسي

استمر الأمر كذلك لصفحات، ملاحظات قصيرة كتبها لنفسه لكنها غامضة لأي شخص آخر. لكن آخر أربع ملاحظات على الصفحة جذبت اهتمامي:

مالديف كوسوفو كمبوديا

لا تشارك الغرباء بأمورنا أبدًا

إلّا إذا تركت مسافةً وراءك

مكتبة

كان من المستحيل التيقّن من الوقت الذي كُتبت فيه تلك الملاحظات، وما إذا جرت كتابتها في الوقت نفسه، لكنها بدت مترابطة: بحث سريع أظهر لي أنّ كوسوفو، كمبوديا، والمالديف جميعها دول لا تتبنّى معاهدة تسليم المجرمين مع الولايات المتحدة، ما يعني أنه قد يُسمح لبيكيت بالبقاء هناك من دون أن يواجه تهمًا إجرامية في وطنه. لا تشارك الغرباء بأمورنا أبدًا هي مذكّرات امرأة عاش أبوها هاربًا من القانون. أولى نتائج البحث التي ظهرت لي عندما كتبتُ «إلّا إذا تركت مسافةً وراءك» كانت مقالة إخبارية اسمها «كيف يعيش الأثرياء الفارّون من وجه العدالة»؛ تتضمّن الاقتباس السابق، والذي يشير إلى صعوبة أن يتظاهر المرء بموته.

لم أجد أيّ مدلول لـ «فم العدّاء»، ولم يقد بحثي إلى أي شيء سوى صور مجموعة من الأشخاص يركضون وأفواههم مفتوحة. لكننا جميعنا نضع أشياء سخيفة في تطبيقات ملاحظاتنا لا تعني شيئًا لغيرنا. وهذه مهمّة الملاحظات. ربما رأى عدّاءً بفم لافت. شعرت بالاستياء تجاه نوا، لكنّني في النهاية وضعت القائمة جانبًا.

وصلت أنا وهارولد إلى أبلبيز مبكّرين نصف ساعة تلك الظهيرة. لسبب ما، كنت خائفة من مغادرة السيارة، علمًا أن من يسحب الجزء الأوسط من مقعد هارولد الخلفي، يستطيع الوصول مباشرة إلى الصندوق. مِلْتُ إلى الوراء وبحثت حتى وجدت حقيبة النقود، وهاتف أبي، والشاحن.

مكتبة

خبّأت الحقيبة تحت المقعد الأمامي، شبكت هاتف أبي، وانتظرت حتى يُشحن كفايةً لأشغّله.

قبل أعوام، خزّنت أمي جميع صور أبي وبريده الإلكتروني على كمبيوتر وعدة أقراص صلبة، لكنني كنت أحبّ النظر إليها على هاتفه، وذلك من ناحية لأنني تعوّدت ذلك إلى حدٍّ ما، ولأنني كنت، من ناحية أخرى، أشعر بأن ثمة شيئًا ساحرًا في كون هاتفه مازال يعمل ثماني سنوات بعد أن توقّف جسمه عن العمل.

أضاءت الشاشة وظهرت الصفحة الرئيسية، صورة لأمي ولي في متنزّه خوان سولومون، كنت في سن السابعة وأجلس على أرجوحة، ومائلة إلى الخلف لدرجة أصبح معها وجهي المقلوب مواجهًا للكاميرا. تقول أمي دائمًا إنني أتذكّر الصور، لا ما كان يحدث وقت التقاطها، لكنني مع ذلك، تمكّنت من التذكّر: أبي وهو يدفعني على الأرجوحة، يده بحجم ظهري، ويقيني التام بأن ابتعادي عنه على الأرجوحة كان يعني عودتي إليه.

انتقلتُ إلى صوره. التقط معظم الصور بنفسه، لذلك نادرًا ما تراه هو ـ بل ترى ما كان يراه، وما كان يبدو مشوّقًا في عينيه، أي في الغالب أنا، وأمي، والسماء المقسّمة وراء أغصان الأشجار.

تنقّلت بالصور باتجاه اليمين، لأرانا جميعًا نصغر في العمر. أمي تركب دراجة هوائية صغيرة ثلاثية العجلات وأنا صغيرة على كتفيها، أنا أتناول الإفطار وسكّر القرفة يملأ وجهي. الصور الوحيدة التي ظهر بها أبي كانت صور السلفي، لكنّ الهواتف وقتها لم تكن لها كاميرات أمامية، لهذا كان عليه تخمين الإطار. كانت الصور معوجّة، وجزء

منا خارج الإطار، لكنني كنت أظهر فيها دائمًا، محتضنة أمي. كنت غنّوجة أمي.

بدت شابة جدًّا في تلك الصور، جلدها مشدود، ووجهها نحيل. غالبًا ما كان يلتقط خمس صور أو ستًّا في الوقت نفسه على أمل أن تكون إحداها جيدة، وإذا تصفّحتها كدفتر صور متحرّكة، تتّسع ابتسامة أمي وتصغر، يتلوّى جسدي ذو الستة أعوام لهذه الجهة وتلك، لكنّ وجه أبي لم يكن يتغيّر أبدًا.

عندما سقط، ظلّت الموسيقى تصدح في سمّاعتَي أذنيه. أتذكّر ذلك. كان يستمع إلى أغنية قديمة، كانت أنغامها تتعالى من سمّاعاته، وهو مطروح على جانبه. ظل ممدّدًا هناك. توقّفت آلة جزّ العشب بالقرب من الشجرة الوحيدة في فنائنا الأمامي. قالت لي أمي أن أتصل بالنجدة، وهذا ما فعلت. أخبرت الموظّفة أنّ أبي قد سقط. سألتني إذا كان يتنفّس، وسألت أمي فقالت لا. وطوال الوقت كانت تلك الأغنية الناشزة تنبعث بوتيرة متصاعدة من سمّاعتَي أذنيه.

استمرّت أمي في إجراء الإسعافات الأولية له حتى وصلت سيّارة الإسعاف. كان ميتًا طوال الوقت، لكننا لم نعرف ذلك. لم نعرف بصورة قطعية حتى فتح طبيبٌ باب «غرفة العائلات» الخالية من النوافذ حيث جلسنا ننتظر في المستشفى، وقال، «هل كان زوجك يعاني من مشاكل في القلب؟» نعم، كان، أجابت أمي.

صور أبي المفضّلة عندي هي تلك التي تشوبها بعض الضبابية، فالناس هكذا، حقيقةً؛ وهكذا اخترت إحداها، صورة التقطها لنفسه مع صديق أثناء مباراة لفريق بايسرز، يبدو فيها ملعب كرة السلة وراءهما، وملامحهما مغبّشة.

مكتبة

أخبرته. أخبرته أن الحظ حالفني وحصلت على بعض المال وأني سأحسن التصرّف به، وبأنني أفتقده.

بعد أن أعدت الهاتف والشاحن إلى مكانهما، وصلت ديزي. كانت تمشي نحو أبلبيز عندما ناديتها من نافذة هارولد المفتوحة. جاءت وجلست في المقعد الأمامي.

«هل بإمكانك توصيلي إلى المنزل بعد هذا؟ سيصطحب أبي 'إلينا' إلى فعّالية ما عن الرياضيات».

«نعم، بالتأكيد. اسمعي. هناك حقيبة تحت مقعدك»، قلت. «لا تنفعلي».

مدّت يدها، سحبت الحقيبة، وفتحتها. «أوه، اللعنة»، همستْ. «يا إلهي، هولمزي، ما هذه؟ هل هي حقيقية؟» انهمرت الدموع من عينيها. لم أر ديزي تبكي من قبل أبدًا.

«قال دايفيس إنه يرى أن الأمر يستحق، وإنه يفضّل أن يعطينا المكافأة بدل أن نتجسّس عليه».

«هي حقيقية؟»

«هذا ما يبدو. أعتقد أنّ محاميه سيتصل بي غدًا».

«هولمزي، هذه، هذه ـ هل هذه مئة ألف دولار؟»

«نعم، خمسون ألفًا لكل واحدة منّا. هل تظنين أننا نستطيع الاحتفاظ بها؟»

«بالتأكيد نستطيع الاحتفاظ بها».

مكتبة

أخبرتها كيف أشار دايفيس إلى الأمر على أنه خطأ حسابي، لكنني كنت متوجّسة من أن تكون الأموال قذرة أو من أن يكون ذلك استغلالًا لدايفيس أو لكنها أسكتتني. «هولمزي. لقد تخلّصت من الفكرة القائلة بأن رفض المال تصرّف نبيل منذ زمن».

«لكنّها ـ أعني، لقد حصلنا على هذه النقود فقط لأننا نعرف شخصًا ما».

«نعم، ودايفيس بيكيت حصل على هذه النقود لأنه عرف شخصًا ما، هو أبوه بالتحديد. ليس في الأمر خروج على القانون أو عمل غير أخلاقي. إنه فقط أمر رائع».

كانت تنظر إلى الخارج، إلى ما وراء الزجاج الأمامي. ابتدأ المطر يتساقط بصورة خفيفة ـ إنه أحد الأيام الغائمة في إنديانا التي تبدو فيها السماء قريبة جدًا من الأرض.

على شارع ديتش، تحوّلت إشارة مرور إلى اللون الأصفر، ثم إلى الأحمر. «سأذهب إلى الجامعة»، قالت. «ولن أضطرّ إلى الدوام الليلي».

«ليست الأموال كافية لتغطية دفعات الجامعة بأكملها».

ابتسمت. «أعرف أنها لا تكفي لدفعات الجامعة بأكملها، أيتها البروفيسورة الذكية. لكنها خمسون ألف دولار، ما سيجعل دخول الكلية أسهل بكثير». التفتت إليّ وقبضت على كتفيّ وهزّتني. «هولمزي. كوني سعيدة. نحن ثريتان». سحبت ورقة من فئة المئة دولار من إحدى الرزم ووضعتها في جيبها. «فلنتناول أفضل وجبة يقدمها أبلبيز».

مكتبة

على طاولتنا المعتادة، صعقنا هولي بطلبنا كأسين من المشروبات الغازية. عندما عادت بمشروباتنا، سألت ديزي، «هل تريدين برغر تكساس الحرّاق؟»

«هولي، ما هو أفضل ستيك لحم لديكم؟»

من دون أن تتغيّر تعابير هولي، كالعادة، أجابت، «جميعها ليست بهذه الجودة».

«إذن، سأطلب برغر تكساس الحراق المعتاد، لكنني أودّ أن أضيف طلبًا جانبيًا من حلقات البصل، وأعرف أنه إضافي».

أومأت هولي، ثم التفتت إلي. «برغر نباتي»، قلت. من «دون جبن أو مايونيز أو ـ»

«أعرف طلبك»، قالت هولي. «كوبون؟»

«ليس اليوم، يا هولي». أجابت ديزي. «ليس اليوم».

قضينا معظم وقت العشاء ونحن نتخيّل، بالتفصيل المملّ، الطريقة التي ستستقيل بها ديزي من تشاكي تشيز. «أريد أن أذهب غدًا إلى العمل، وأتصرّف كأنه يوم عادي تمامًا، وعندما يرسو السحب عليّ ويتحتّم عليّ ارتداء زي تشاكي، أريد أن أغادر وأنا ما زلتُ أرتديه. أمشي خارجة من البوابة باتجاه سيارتي الجديدة، آخذ تشاكي، إلى المنزل، أحنّطه، وأعلّقه على الحائط مثل تذكار صيد».

«شيء غريب، تعليق رؤوس الصيد على الحائط»، قلت. «بيت ضيوف دايفيس مليء بها».

مكتبة

«أعرف»، قالت ديزي. «كنت أنا وميكال نتعانق في ظل رأس أيّل محنّط. بالمناسبة، شكرًا لدخولك علينا ليلة البارحة، يا قليلة الأدب».

«آسفة، كنت أريد أن أخبرك أننا أصبحنا ثريتين». ضحكت وهزّت رأسها مرة أخرى غير مصدّقة. «بالمناسبة، رأيت نوا، أخاه الصغير؟ سألني إن كنت أعرف شيئًا عن أبيه وأطلعني على قائمة الملاحظات هذه. هنا»، قلت، وأريتها القائمة على هاتفي. «آخر ملاحظة له كانت «فم العدّاء». هل يعني ذلك أي شيء لك؟» هزت ديزي رأسها ببطء. «أشعر بالاستياء تجاهه»، قلت. «كان يبكي».

«ذلك الصبيّ ليس مشكلتك»، قالت ديزي. «مجال عملنا لا يُعنى بمساعدة أطفال المليارديرين؛ عملنا محصورٌ في تحقيق الثراء، وهو آخذ في الازدهار».

«خمسون ألفًا لا تعني الثراء»، قلت. «أقصد، هي أقل من نصف تكاليف جامعة إنديانا بوليس»، الجامعة التابعة لولايتنا في بلومنغتون، على بعد ساعتين باتجاه الجنوب.

صمتت ديزي لفترة طويلة، عيناها خاليتان من التعبير من فرط التركيز.

«حسنًا»، قالت أخيرًا. «أجريت بعض الحسابات العقلية. خمسون ألف دولار تعني خمسة آلاف وتسعمئة ساعة في وظيفتي. وهي سبعمئة نوبة، طول كل واحدة منها ثماني ساعات، إذا كان بإمكانك بالفعل الحصول على نوبة كاملة، وهو ما لا يحصل عادة، أي عامان من العمل على مدى سبعة أيام في الأسبوع، وبمعدّل ثماني ساعات في اليوم. ربما لا يبدو ذلك ثراء بالنسبة إليك يا هولمزي، لكنه ثراء لي».

مكتبة

«معك حق»، قلت.

«وكانت كلها في علبة حبوب عسل».

«نصفها كان في علبة قمح مقشّر».

«تعرفين ما الذي يجعلك أفضل صديقة مقرّبة إليّ إلى الأبد يا هولمزي؟ أنك أخبرتني عن النقود. أعني، كنت أتمنّى أن أتقاسم معك يانصيبًا قيمته الملايين، لكن بصراحة تامة، لا أثق بنفسي». قضمتْ قطعة من البرغر وبلعتها قبل أن تقول، «لن يحاول المحامي استرداد النقود، أليس كذلك؟»

«لا أظن هذا»، قلت.

«علينا الذهاب إلى مصرف»، قالت، «لإيداعها الآن».

«قال دايفيس إن علينا الانتظار والتحدّث إلى المحامي».

«هل تثقين به؟»

«نعم، أثق به».

«أوه، يا هولمزي، لقد وقعنا كلانا في الغرام. أنا بِحُبٍّ فنان، وأنت بِحُبٍّ ملياردير. أخيرًا صرنا نعيش حياة بنات المجتمعات الراقية التي كانت من حقنا دائمًا».

في نهاية المطاف، كلّفت الوجبة أقل من ثلاثين دولارًا، لكننا تركنا لهولي إكرامية بعشرين دولارًا، لأنها تحمّلتنا كثيرًا.

مكتبة

١١

كنت أشاهد مقاطع فيديو على هاتفي صباح اليوم التالي عندما جاءت المكالمة. «آلو؟» قلت.

«آزا هولمز؟»

«أنا هي».

«معك سايمون موريس. أعتقد أنك تعرفين دايفيس بيكيت».

«ابق على الخط. لحظة». انتعلت حذائي وتركتُ أمي، التي كانت تشاهد التلفزيون وتصحّح أوراق الامتحانات في غرفة الجلوس، وتسلّلتُ إلى الخارج. مشيت إلى حافة فنائنا وجلست في مواجهة المنزل.

«حسنًا، مرحبًا». قلت.

«أرى أنك تسلّمت هدية من دايفيس».

«نعم»، قلت. «تقاسمتها مع صديقتي؛ هل تمانع؟»

مكتبة

«الطريقة التي تتعاملين بها مع شؤونك المالية لا تعنيني. آنسة هولمز، لعلك تدركين أنّ دخول فتاة مراهقة إلى مصرف وبحوزتها عدد كبير من الأوراق المالية من فئة المئة دولار سيثير الشك غالبًا، لهذا تكلّمت مع أحد المسؤولين عن حساباتنا في مصرف إنديانا بوليس الثاني، وسيقبلون إيداعك. حجزت لك موعدًا الساعة الثالثة والربع عصرًا يوم الإثنين في فرع المصرف الواقع بين شارع ستة وثمانين وكوليج أفينيو. أعتقد أن يومك الدراسي ينتهي الساعة الثانية وخمسًا وخمسين دقيقة، لهذا سيكون لديك فسحة من الوقت للوصول إلى المصرف».

«كيف تعرف ـ»

«أنا دقيق جدًا».

«هل لي أن أطرح عليك سؤالًا؟»

«لقد فعلت للتو»، نبهني بجفاف.

«أنت ترعى شؤون آل بيكيت أثناء غيابه؟»

«هذا صحيح».

«وإذا ظهر بيكيت في مكان ما..».

«عندئذٍ تعود مباهج حياته وأحزانها إليه. حتى ذلك الوقت، يقع بعضها عليّ. هل لي أن أطلب منك طرح سؤالك على نحو مباشر؟»

«أنا قلقة على نوا شيئًا ما».

«قلقة؟»

«يبدو حزينًا جدًا، وليس هناك من يعتني به. أقصد، أما من أحد آخر في عائلتهم؟»

مكتبة

«لا أحد منهم يتمتع بعلاقات حميدة مع آل بيكيت. أقرّت الولاية أن دايفيس قاصر حرّ وأنه الوصي القانوني على أخيه».

«لا أقصد وصيًا قانونيًا. أقصد شخصًا يرعاه فعليًا. دايفيس ليس أحد والديه. لن يظلا وحيدين إلى الأبد، أليس كذلك؟ ماذا لو أن أباهما ميّت؟»

«آنسة هولمز، الموت القانوني يختلف عن الموت الجسدي. أثق بأنّ راسيل حيّ قانونيًا وجسديًا، لكنني أعرف أنه حي قانونيًا لأن قانون إنديانا يعدّ الفرد حيًا حتى يبرز دليل جسدي يدل على موته أو بعد مرور سبع سنوات على آخر إشارة تدل على حياته. فالسؤال القانوني إذن ـ »

«لا أعني قانونيًا»، قلت. «أعني فقط، من سيرعاه؟»

«بإمكاني الإجابة عن هذا السؤال بصفة قانونية فقط. والجواب القانوني هو أنني أدير الشؤون المالية، مديرة المنزل تدير الشؤون المنزلية، ودايفيس هو الوصي. اهتمامك جدير بالاحترام، يا آنسة هولمز، لكنني أؤكّد لك أنه قد جرى الاهتمام بكل شيء، قانونيًا. الثالثة والربع غدًا. اسم موظفة المصرف جوزفين جاكسون. هل لديك أيّ أسئلة أخرى لها علاقة بوضعك؟»

«لا أعتقد».

«حسنًا. لديك رقمي. مع السلامة، آنسة هولمز».

شعرتُ بأنني على ما يُرام في المدرسة طوال اليوم التالي، إلى أن توجّهت أنا وديزي في طريقنا إلى المصرف. كنت أقود، بينما ديزي تتحدّث عن أحدث قصصها التي لاقت شهرة سريعة في عالم روايات

هواة حرب النجوم وعن الكمّ الهائل من المعجبين بالقصة وكيف أنها ظلت مستيقظة طوال الليل لتنهي مقالًا عن رواية الحرف القرمزي وكيف أنه من المحتمل أنها ستتمكن أخيرًا من النوم قليلًا لأنها ستتقاعد من تشاكي تشيز، وشعرت بأنني على ما يُرام. شعرت بأنني شخص طبيعي جدًا، شخصٌ لا يعيش مع شيطان يدفعني إلى التفكير في أفكار أكره التفكير فيها، وكنت أشعر أني أفضل هذا الأسبوع. ربما هو تأثير الدواء، حينما ظهرت فكرة من مكان مبهم: لقد جعلك الدواء راضية، ونسيت تغيير اللصقة الطبية هذا الصباح.

كنت متأكّدة أنني غيّرت اللصقة حال استيقاظي في الصباح، قبل أن أنظّف أسناني، إلّا أنّ الفكرة كانت ملحّة. لا أظن أنك غيّرتها. أظن أن هذه اللصقة من ليلة البارحة. بالتأكيد اللصقة ليست من ليلة البارحة لأنني غيّرتها قطعًا أثناء فترة الغداء. لكن هل قمت بذلك فعلًا؟ أعتقد ذلك. تعتقدين ذلك؟ بل أنا متأكّدة. والجرح مفتوح. وقد كان مفتوحًا بالفعل. لم تنْمُ عليه قشرة حتى الآن. وتركتِ عليه اللصقة نفسها ـ يا إلهي ـ من المحتمل أن سبعًا وثلاثين ساعة قد مرّت حتّى الآن، وقد تركتِه يتقيّح تحت تلك اللصقة الدافئة الرطبة طوال هذا الوقت. اختلست نظرة إلى اللصقة الطبية. كانت تبدو جديدة. لم تغيّريها. أظن أني فعلت. هل أنت متأكدة؟ لا، عدم تفحّصي لها كل خمس دقائق يشير إلى تقدّم. نعم، تتقدّمين، تجاه الالتهاب. سأغيّرها في المصرف. من المحتمل أنه قد فات الأوان على ذلك. يا للسُخف. متى ما وصل الالتهاب إلى مجرى دمك ـ توقفي لا معنى لهذا فالجرح ليس محمرًا أو متورّمًا. تعرفين أنه ليس من الضروري أن يحمرّ أو يتورّم ـ أرجوكِ توقّفي سأغيّرها في المصرف ـ **أنت تعرفين أنني محقّة.**

«هل ذهبتُ إلى الحمام قبل الغداء؟» سألتُ ديزي بهدوء.

«لا أعرف»، قالت. «انضممتِ إلى الطاولة بعدنا، لهذا أعتقدُ أنكِ فعلتِ؟»

«لكني لم أقل أي شيء عن الذهاب إلى الحمام؟»

«لا، لم تقولي، 'مرحبًا يا رفاق طاولة الغداء. لقد عدت للتوّ من الحمام'».

شعرت بالتوتر بين الرغبة الجامحة في إيقاف السيارة إلى جانب الطريق لتغيير اللصقة الطبية ويقيني الحتمي بأن ديزي ستظنّ أنني مجنونة. أخبرت نفسي أنّي على ما يُرام، بأن ثمة عطباً في دماغي، بأنّ الأفكار مجرد أفكار، لكن عندما ألقيت نظرة سريعة على اللصقة الطبية، لمحتُ بقعة في وسطها. كنت أستطيع رؤية البقعة. دم. أو قيح. شيء ما.

ركنتُ السيارة في موقف عند محل نظارات، أزلت اللصقة، ونظرت إلى الجرح. كان محمرًّا حول الأطراف، وعلى اللصقة دم ناشف. وكأنه لم يجرِ تغييرها منذ فترة.

«هولمزي، أنا متأكدة أنك ذهبت إلى الحمّام. أنت تذهبين إلى الحمام دائمًا».

«لا يهم الآن. إنه ملتهب».

«لا، ليس ملتهبًا».

«أترين هذا الاحمرار؟»، أشرت إلى الجلد المحمرّ على جانبي الجرح. «هذا التهاب. هذه مشكلة كبيرة». من النادر أن أسمع لأي

مكتبة

شخص برؤية إصبعي من دون لصقة، لكنني أردت أن تفهم ديزي. لم تكن هذه المرة مثل المرات الأخرى. لم يكن هذا قلقًا غير عقلاني، لأن الدم الناشف أمر غير معتاد، حتى حينما يتشقّق التكلّس وينفتح. معنى ذلك أنّ اللصقة لم تُغيَّر لفترة طويلة جدًا. لم يكن هذا طبيعيًا. لكن، ألا يختلف الشعور كل مرة؟ لا، هذه المرة مختلفة عن المرات السابقة الأخرى. هناك دليل واضح على وجود الالتهاب.

«تبدو إصبعك تمامًا مثلما بدت في كل مرة قلقت فيها على الجرح».

عصرت بعض معقّم اليدين على الجرح، شعرت بحرقة لاذعة، أزلت الغطاء عن لصقة جديدة، ولففتها حول إصبعي. جلست في مكاني لفترة، محرجة، متمنّية لو أنني وحدي، لكنني مرعوبة أيضًا. لم أتمكّن من منع نفسي من التفكير في الاحمرار والتورم، من جسدي وهو يتفاعل مع هجوم البكتيريا عليه. كرهت نفسي. كرهت هذا.

«هيه»، قالت ديزي، ووضعت يدًا على ركبتي. «لا تسمحي لآزا بالقسوة على هولمزي، حسنًا؟»

كان هذا مختلفًا. زالت لسعة معقّم اليدين، ما يعني أن البكتيريا عادت إلى التكاثر، وانتشرت من إصبعي إلى مجرى دمي. لماذا فتحت التكلّس أصلًا؟ لِمَ لَمْ أتركه وحاله؟ لماذا أعطيتُ نفسي جرحًا مفتوحًا لا يندمل على إصبعي من دون أي مكان آخر؟ اليدان هما المكانان الأكثر قذارة في الجسم. لِمَ لَمْ أقرص حلمة أذني أو بطني أو كاحلي؟ ربما كنت قتلت نفسي بتعفّن الدم بسبب طقس طفولي غبي لم يُثبت حتى ما أردت منه إثباته، لأنه لا سبيل لمعرفة ما أردت معرفته، لأنه لا تتوافر أيّ وسيلة للتأكد من أي شيء.

مكتبة

ستتحسّنين إذا أعدت وضع معقّم اليدين. مرتين فقط. كانت الساعة ٣:١٢. علينا أن نصل إلى المصرف. خلعت اللصقة الطبية، وضعت معقّم اليدين، أعدت وضع لصقة أخرى. كانت الساعة ٣:١٣. قالت ديزي، «هل تريدين أن أقود؟» هززت رأسي رفضًا. شغّلت هارولد. ضبطتُه بوضعية الرجوع إلى الوراء. ثم عدت للوقوف.

أزلت اللصقة، وضعت المزيد من معقّم اليدين. لسعني أقل هذه المرة. ربما كان ذلك يعني أن غالبية البكتيريا قد ماتت. أو ربما يعني أنها توغّلت جدًا في إصبعي، أنها عبرت من الجلد إلى الدم. افحصي إصبعك لآخر مرة. هل يبدو التورّم أقل؟ لم تمر سوى ثماني دقائق. أقل من أن تتبيّني الفرق. توقفي. الساعة ٣:١٥. «هولمزي»، قالت. «يجب أن نغادر. بإمكاني القيادة».

هززت رأسي مرة أخرى، وضعت السيارة بوضعية الرجوع إلى الوراء، وهذه المرة نجحت في التحرك. «أتمنى لو أنني أفهم ما يجري»، قالت لي وأنا أقود. «أقصد، هل يساعدك أن أطمئنك أم من الأفضل أن أقلق معك؟ هل هناك أي شيء يجعل الأمر أفضل؟»

«الجرح ملتهب»، همست. «أنا سبّبتُ ذلك لنفسي. هذا شأني دائمًا. فتحت التكلّس والتهب الآن». كنت تلك السمكة، الملوّثة بطفيلي، أسبح قريبة من السطح، عسى أن أُلتهم.مكتبة *الرمحي أحمد*

عندما وصلنا إلى المصرف أخيرًا، وقفت في المؤخّرة بينما قدّمت ديزي نفسها إلى أحد الصرّافين، ثم اصطُحِبنا إلى مكتب خاص وراء حائط زجاجي في الجزء الخلفي من المصرف، حيث وضعت امرأة نحيلة ببدلة

مكتبة

سوداء أوراقنا النقدية بآلة قلّبتها عدًّا لها. ملأنا حزمة من النماذج وفُتحت لنا حسابات مصرفية جديدة، ببطاقات سحب تصلنا في غضون سبعة أيام إلى عشرة أيام. أعطتنا المرأة خمسة شيكات مؤقّتة لاستخدامها حتى تصلنا شيكاتنا الحقيقية، ونصحتنا بعدم إجراء أيّ مشتريات ضخمة لستة أشهر على الأقل، «حتى تعتادا الحياة مع هذا النعيم المفاجئ». ثم بدأت تتحدّث عن الأماكن التي نستطيع وضع أموالنا فيها ـ حسابات ادّخار للجامعة أو صناديق استثمار أو صكوك ائتمان أو أسهم ـ وكنت أحاول الإصغاء لما تقوله، لكنّ المشكلة هي أنني لم أكن حاضرة في المصرف فعليًا. كنت داخل رأسي، سيل من الأفكار يصرخ بي بأنني قد حكمت على نفسي بعدم تغيير اللصقة لأكثر من يوم، وبأن الأوان قد فات، وكنت أشعر بالحرارة والوجع بطرف إصبعي، ما يشير إلى أن الأمر حقيقيّ فقد شعرت به جسديًا، والحواسّ لا تكذب. أو هل بإمكانها أن تكذب؟ فكرت، ها هو يحدث. ذاك الـ«هو» كان أشدّ إرعابا وأكبر حجمًا من أن يُطلق عليه أيّ مُسمّى غير ضمير مُبهم.

أثناء قيادتي باتجاه سكن ديزي، توقّفت أكثر من مرة عند الإشارات الحمر، ونسيت في كل مرة سبب توقّفي. كنت أرفع قدمي عن مكابح هارولد لأنظر إلى الأعلى وألاحظ، آه نعم. الإشارة حمراء.

تسمع الكثير عن فوائد الجنون ـ ذكرت لي د. سينغ ذات مرة مقولة لإدغار آلان بو: «لم يُبتَّ بعد إن كان الجنون هو أرفع درجات الذكاء أم لا». أعتقد أنها كانت تريد أن تجعلني أشعر بأنني أفضل، لكنني أجد الاختلال العقلي مبالغًا فيه كثيرًا. الجنون، بناءً على تجربتي المحدودة، لا تصحبه قوى خارقة؛ أن تكون مريضًا عقليًا يعني أنك

مكتبة

رفيع الذكاء، تمامًا كما لا تجعلك الإصابة بالإنفلونزا أكثر ذكاءً. أعرف أنه كان يجدر بي أن أصبح محقّقة لامعة، لكنني في الواقع أتمتّع بقدرةٍ على الملاحظة أضعف من قدرة جميع من عرفتهم في حياتي. كان وعيي معدومًا تمامًا بوجود أي شيء خارج نفسي أثناء قيادتي لبناية ديزي وبعدها لمنزلي.

توجّهت إلى الحمام عندما وصلت إلى المنزل وفحصت الجرح. بدا أن الورم أخفّ. ربما. ربما لم تكن إضاءة الحمّام قوية كفاية لأرى بوضوح. نظّفته بالماء والصابون، نشّفته، وضعت معقّم يدين وأعدت وضع لصقة على إصبعي. تناولت أيضًا دوائي المعتاد، ثم بعد بضع دقائق، حبة مستطيلة نُصحت بتناولها عند الشعور بالذعر.

تركت الحبة تذوب على لساني وتتحوّل إلى طعم حلو مبهم وانتظرت مفعولها. كنت متأكدة أن شيئًا ما سيقتلني، وكنت على حق: سيقتلك شيء ما، في يومٍ ما، ولن تعرفي إذا كان هذا هو ذلك اليوم.

بعد فترة، ثقل رأسي، وجلست على الأريكة مقابل التلفزيون. لم تكن عندي الطاقة لإدارته، لهذا حدّقت إلى الشاشة الفارغة فقط.

جعلتني الحبة البيضوية أشعر بالخمول، لكن من جسر أنفي إلى الأعلى فقط. كان جسدي كعادته، محطّمًا ولا يفي بغرضه، لكنني شعرت بعقلي موحلًا ومرهقًا، مثل ساقي عدّاءٍ نحيلتين بعد انتهاء ماراثون. وصلت أمي إلى البيت وجلست بجواري. «يوم طويل»، قالت. «لا يزعجني الطلّاب، يا آزا. الأهل هم من يجعلون وظيفتي صعبة».

«آسفة»، قلت.

«كيف كان يومك؟»

مكتبة

«كان عاديًا»، قلت. «أنا لا أعاني من الحمّى، أليس كذلك؟»

ضغطت بظهر يدها على جبهتي. «لا أعتقد. هل تشعرين بالمرض؟»

«أنا متعبة فقط». أدارت أمي التلفزيون وقلت لها إنني سأتمدّد وأؤدّي واجباتي المدرسية.

قرأت في كتاب التاريخ لفترة، إلّا أنني شعرت بوعيي مثل كاميرا بعدسة متّسخة، لهذا قررت أن أبعث برسالة نصية إلى دايفيس.

أنا: مرحبًا.

هو: مرحبًا.

أنا: كيف حالك؟

هو: بخير. وأنت؟

أنا: بخير.

هو: فلنتابع هذا الصمت المحرج وجهًا لوجه.

أنا: متى؟

هو: هناك وابل من الشهب ليلة الخميس. سيكون مشهدًا رائعًا إذا لم تكن السماء مغيّمة.

أنا: رائع. أراك وقتها. عليّ أن أذهب فأمي هنا.

كانت بالفعل قد أقحمت رأسها عبر الباب. «ما الأمر؟» سألت.

مكتبة

«هل تريدين أن نعدّ العشاء معًا؟»

«يجب أن أقرأ».

دخلت الغرفة، جلست على حافة سريري، وقالت، «هل تشعرين بالخوف؟»

«نوعًا ما».

«مِمَّ تخافين؟»

«ليس الأمر كذلك. الجملة ليس فيها اسم مجرور. أنا خائفة فقط».

«لا أعرف ما عليّ أن أقوله يا آزا. أرى الألم على وجهك وأريد أن أخلّصك منه».

كرهت إيلامها. كرهت أنني أجعلها تشعر بالعجز. كرهت ذلك. مرّرت أصابعها بشعري. «أنت على ما يُرام»، قالت. «أنت على ما يُرام. أنا هنا. لن أذهب إلى أي مكان». شعرت بنفسي أتصلّب شيئًا ما وهي تواصل تمرير أصابعها بشعري. «ربما كل ما تحتاجين إليه هو النوم العميق لليلة كاملة»، قالت أخيرًا. لقد كرّرت أمي الكذبة نفسها التي لقمتُها لِنوا.

مكتبة

١٢

في صباح وابل الشهب، وصلت إلى المدرسة مع هارولد واكتشفت سيارة فولكس فاغن خنفساء برتقالية في موقفي المعتاد. عندما ركنتُ سيارتي في المكان المجاور، رأيت ديزي تجلس في مقعد السائق. فتحت نافذتي وقلت، «ألم تخبرنا جوزفين ألّا نشتري شيئاً لمدة ستة أشهر؟»

«أعرف، أعرف»، قالت. «لكنني ساومت بائع السيارات حتى وصلنا إلى ثمانية آلاف وأربعمئة دولار من أصل عشرة آلاف، لهذا، بطريقة ما، وفّرت. هل تعرفين ماذا يسمّون هذا اللون؟» سألتْ. «برتقالي صارخ! لأنه صارخ!»

«لا تبذّري المال، اتفقنا؟»

«لا تقلقي يا هولمزي. سترتفع قيمة هذه السيارة. ستصبح ليام قطعة للاقتناء في المستقبل. سمّيتها ليام، بالمناسبة». ابتسمت ـ كانت نكتة بيننا لا يفهمها أحد آخر على الإطلاق.

مكتبة

ونحن نمشي عبر موقف السيارات، ناولتني ديزي كتيّبًا سميكًا، دليل ِفسك الإرشادي للكليات. «كما أحضرتُ هذا، برغم أنني لن أحتاج إليه لأنني سألتحق بجامعة إنديانا طبعًا. أعرف أن الكليات مكلفة، إلّا أن قسط بعض تلك الكليات يصل إلى مئة ألف في العام الواحد. ما الذي يفعلونه هناك؟ يتلقّون حصصهم على يخوت؟ هل تعيشين في قلعة ويخدمك العفاريت؟ حتى أنا الثرية لا أستطيع تحمّل كلية فاخرة».

بالتأكيد لن تستطيعي ما دمت تشترين سيارات، أردت أن أقول، لكن عوضًا عن ذلك سألتها عن اختفاء بيكيت. «هل اكتشفت ما يعنيه 'فم العدّاء'؟»

«هولمزي»، قالت. «لقد نلنا المكافأة. انتهى الأمر».

«نعم، أعرف»، قلت، وقبل أن أتمكّن من النطق بشيء آخر، لمحَتْ ميكال عبر الموقف وركضت لتحتضنه.

أمضيت الصباح غارقة في كتيّب ديزي عن الكليات. بين الفينة والفينة، يُقرع جرس، وأنتقل من فصل إلى آخر، أجلس على مقعد مختلف، وأواصل قراءة الكتيّب وقد وضعته على حجري تحت المكتب. لم أفكر من قبل جدّيًا في الالتحاق بأي كلية سوى جامعة إنديانا بوليس أو بيردو ـ أمي درست في إنديانا، وأبي في بيردو ـ وكانت كلتاهما رخيصة مقارنة بالجامعات خارج الولاية.

وأنا أقرأ عن مئات من الكليات في هذا الكتيّب، التي جرى تصنيفها بناءً على كل شيء ابتداءً من الموادّ الأكاديمية وانتهاءً بجودة

مكتبة

الكافتيريا، تخيّلت نفسي في كلية صغيرة في مكان ما على قمة تل في وسط مكان ناءٍ محاطٍ بمبانٍ يصل عمرها إلى مئتي عام. قرأت عن جامعة تستطيع فيها استخدام مقصورة المكتبة ذاتها التي استخدمتها آليس ووكر. من المسلّم به أنّ خمسين ألف دولار بالكاد ستُحدث أي فرق في رسوم الجامعة، لكنني قد أتمكّن من الحصول على منحة دراسية. علاماتي جيدة، وأدائي متميّز في الامتحانات الموحّدة.

سمحت لنفسي بتخيل ذلك ـ محاضرات مثل الجغرافيا المُسيّسة والنساء في الأدب البريطاني أثناء القرن التاسع عشر أحضرها في قاعات صغيرة، الكل يجلس في حلقة. تخيّلت وقع قدميّ فوق ممرات الحصى وأنا أمشي من المحاضرة إلى المكتبة، حيث أدرس مع أصدقائي، ثم قبل العشاء، في كافيتيريا تقدّم كل شيء من حبوب القمح إلى السوشي، نتوقّف في مقهى الكلية ونتحدث عن الفلسفة أو الأنظمة السلطوية أو أي شيء تتحدّث عنه في الكلية.

تخيّلُ كل تلك الاحتمالات ممتع حقًا ـ الساحل الغربي أم الساحل الشرقي؟ في المدينة أم في الريف؟ شعرت أن بإمكاني أن أذهب إلى أي مكان، وتخيّل كل الاحتمالات المستقبلية الممكنة، كل آزا قد أصبحها، كان أشبه بإجازة رائعة ومرغوبة اقتطعتها من الحياة مع أناي الحالية، مع آزا التي أمثّلها اليوم.

لم أتوقّف عن قراءة دليل الكلّيات إلّا عند الغداء فقط. مواجهًا لي عبر الطاولة، جلس ميكال مشغولًا بمشروعٍ فني جديد ـ متتبّعًا بعناية فائقة موجات أغنية ما على ورقة رقيقة شفّافة ـ وديزي تسرد علينا قصة شرائها لسيارتها، من دون أن تكشف أبدًا كيف حصلت على

مكتبة

المال الضروري لشرائها. بعد أن قضمت القليل من سندويشي، أخرجت هاتفي وبعثت برسالة نصية إلى دايفيس. متى نلتقي الليلة؟

هو: يبدو أن السماء ستكون مغيّمة الليلة لهذا لن يكون هناك وابل من الشهب.

أنا: اهتمامي الأوّلي ليس بوابل الشهب.

هو: أوه! إذن، بعد المدرسة؟

أنا: اتفقت مع ديزي على لقاءٍ لأداء الواجب. السابعة؟

هو: السابعة إذن.

بعد المدرسة، أمضيت ساعتين في غرفتي مع ديزي في الدراسة. «لم تمرّ إلّا ثلاثة أيام منذ تقاعدْت من تشاكي تشيز، لكنني مندهشة بالفعل كيف أصبحت المدرسة أسهل»، قالت وهي تفتح حقيبتها. أخرجت كمبيوترًا محمولًا جديدًا ووضعته على مكتبي.

«يا إلهي، ديزي، لا تصرفي النقود دفعة واحدة»، قلت بصوت منخفض كي لا تسمع أمي. رمتني ديزي بنظرة. «خير؟»

«كنت تملكين سيارة وكمبيوترًا من البداية»، قالت.

«كل ما أقوله هو أنك لا تريدين إنفاقها كلها».

قلّبت عينيها قليلًا، فقلت خيرًا مرة أخرى، لكنها انشغلت في عالمها الخاص أونلاين. كنت أرى شاشتها من سريري ـ تصفحتْ التعليقات على قصصها بينما قرأت أنا أحد مقالات ألكسندر هاملتون

مكتبة

من كتاب أوراق الفيدرالية لمادة التاريخ. تابعت قراءة الكلمات من دون أن أفهمها، ثمّ عاودت قراءة المقطع نفسه، مرة تلو مرة.

ظلّت ديزي صامتة بضع دقائق، وأخيرًا قالت، «أحاول جهدي ألّا أحكم عليك، يا هولمزي، ويغيظني أن تحكمي عليّ».

«أنا لا أحكم _»

«أعرف أنك تظنين أنك فقيرة، لكنك لا تعرفين أي شيء عن الفقر الفعلي».

«حسنًا. سأخرس»، قلت.

«أنت عالقة في أفكارك»، تابعت. «وكأنك بحق لا تستطيعين التفكير في أي شخص آخر». شعرتُ كأنني أتضاءل. «آسفة، يا هولمزي، يجب ألّا أقول ذلك. لكنّ الأمر محبط أحيانًا». عندما لم أجب، واصلت الحديث. «لا أعني أنك صديقة سيئة أو أي شيء. لكنك شقيّة بعض الشيء، وأحيانًا يسبّبُ شقاؤك الألم لكل من حولك».

«لقد بلّغتِ الرسالة»، قلت.

«لا أريد أن أبدو حقيرة».

«على الإطلاق»، قلت.

«لكن هل تعرفين ما أعني؟» سألت.

«نعم»، قلت.

درسنا معًا بصمت لساعة أخرى قبل أن تقول إن عليها المغادرة لتناول العشاء مع والديها. عندما وقفت للمغادرة، قلنا معًا، «آسفة» في

مكتبة

الوقت نفسه، ثم ضحكنا. عندما بعث لي دايفيس برسالة نصية الساعة ٦:٥٢ كنت قد أوشكت أن أنسى.

هو: أنا في ممر بيتك. هل أستطيع الدخول؟

أنا: لا لا لا لا لا لا أنا آتية في الحال.

كانت أمي تفرغ جلّاية الصحون. «سأذهب إلى العشاء»، قلت لها، وأخذت معطفي وغادرت قبل أن تتمكن من طرح المزيد من الأسئلة.

«مرحبًا»، قال عندما صعدت إلى سيارته.

«مرحبًا بك»، قلت. «هل أكلت؟» سأل.

«لا أشعر بالجوع، لكن بإمكاننا الذهاب لتناول الطعام في مكان ما إذا كنت جائعًا»، قلت.

«أبدًا»، قال وهو يعود بالسيارة إلى الوراء. «أنا أكره تناول الطعام في الواقع. معدتي مضطربة على الدوام».

«وأنا كذلك»، قلت، ثم بدأ هاتفي يرن. «إنها أمي. لا تقل أي شيء». ضغطت لأردّ. «نعم».

«أخبري سائق السيارة السوداء الرباعية الدفع أن يستدير هذه اللحظة ويعود إلى هنا».

«أمي».

«لن يستمر الأمر أكثر من هذا من دون أن أقابله».

«لقد قابلتِه. عندما كنتُ في الحادية عشرة».

مكتبة

«أنا أمك، وهو ـ أيًا يكن لكِ ـ أريد أن أتحدث إليه».

«حسنًا»، قلت وأغلقت الخط. «علينا، علينا أن نعود إلى المنزل لتقابل أمي، إذا كنت لا تمانع».

«أبدًا».

شيء بنبرة صوته ذكّرني بأنّ أمه متوفّاة، وفكرت كيف يبدو الارتباك على الجميع عند الحديث عن آبائهم أمامي. يبدون قلقين دائمًا من أنني سأتذكر يُتمي، وكأنني قادرة على النسيان بأي شكل من الأشكال.

لم أدرك يومًا صغر حجم منزلنا حتى رأيت دايفيس يراه ـ أرضية المطبخ المشمّعة مقشّرة في الزوايا، التصدّعات الصغيرة في الحيطان، الأثاث أكبر عمرًا مني، رفوف الكتب الناشزة.

بدا دايفيس ضخمًا وفي المكان الخطأ في منزلنا. لم أستطع تذكّر آخر مرة رأيت فيها رجلًا في هذه الغرفة. لا يبلغ طوله مترًا وثمانين سنتمترًا تمامًا، إلّا أن حضوره جعل السقف يبدو منخفضًا. شعرت بالإحراج من كتبنا القديمة التي يعلوها الغبار والحيطان المزيّنة بصورنا العائلية بدل الأعمال الفنية. كنت أدرك أنه يجب ألّا أشعر بالخزي ـ لكنني شعرت به على أي حال.

«تسرّني رؤيتك، سيدة هولمز»، قال دايفيس، مادًا يده للمصافحة. احتضنته أمي. جلسنا جميعًا حول طاولة المطبخ، التي لم يجلس حولها أكثر من شخصين غالبًا ـ أمي وأنا. بدت مكتظّة.

«كيف حالك يا دايفيس؟» سألت.

مكتبة

«كل شيء على ما يُرام. قد يكون ورد على سمعك أنني يتيم، لكنني على ما يُرام. كيف حالك أنت؟»

«من يرعاكما هذه الأيام؟» سألت.

«الكل ولا أحد، أعتقد»، قال. «أعني، لدينا مديرة منزل، وهناك محامٍ يرعى الشؤون المالية».

«أنت طالب في آسبن هول، أليس كذلك؟» أغمضت عينيّ وحاولت أن أتوسّل لأمي بتوارد الخواطر كي لا تهاجمه.

«نعم».

«آزا ليست مثل أي فتاة أخرى».

«أمي»، قلت.

«أنا أدرك أن بإمكانك الحصول على أي شيء متى أردت، وأن بإمكانك أن تجعل أي شخص يعتقد أن العالم ملكه. لكنني أريد منك أن تفهم أنه لا يحقُّ لك ـ»

«أمي»، قلت مرة ثانية.

نظرت إلى دايفيس نظرة اعتذار، لكنه لم ينتبه، لأنه كان ينظر إلى أمي. بدأ في قول شيء لكنه توقّف لأن عينيه اغرورقتا بالدموع.

«دايفيس، هل أنت على ما يُرام؟» سألت أمي. حاول التحدث مرة أخرى، لكنّ دموعه خنقته.

«دايفيس، أنا آسفة. لم أدرك..».

قال بإحراج، «أنا آسف».

مكتبة

مدّت أمي يدها عبر الطاولة، ثم توقّفت. «كل ما أريده منك أن تحسن معاملة ابنتي»، قالت. «هي ابنتي الوحيدة».

«علينا الذهاب»، أعلنت.

استمرت أمي ودايفيس في التحديق، إلى أن قالت أمي في النهاية، «عودي في الساعة الحادية عشرة»، فأمسكتُ بذراع دايفيس وسحبته باتجاه الباب، رامية أمي بنظرة في طريقي إلى الخارج.

«هل أنت بخير؟» سألتُ فور دخولنا بأمان إلى سيارته الإسكاليد.

«نعم»، قال بهدوء.

«كل ما في الأمر أنها مفرطة في حمايتي».

«أنا متفهّم»، قال.

«لا حاجة إلى الشعور بالإحراج».

«لست محرجًا».

«إذن كيف تشعر؟»

«الأمر معقّد».

«لديّ الوقت كلّه»، قلت له.

«إنها مخطئة في ما يتعلّق بقدرتي على الحصول على أي شيء أريده متى شئت».

«ما الذي تريده ولا تملكه حاليًا؟» سألته.

مكتبة

«أُمًّا، قبل أيّ شيء». ضبط السيارة بوضعية الرجوع إلى الوراء وقاد مغادرًا ممرّنا.

لم أعرف ما يتحتّم عليّ قوله، لهذا في النهاية قلت، «آسفة».

«تعرفين ذلك الجزء من قصيدة 'العودة الثانية' لييتس عندما يقول، «الفضلاء يعوزهم الإيمان الراسخ، بينما الأرذال تأخذهم الحماسة اللاهية؟»

«نعم، قرأنا القصيدة في برنامج التنسيق المتقدم(*)».

«أعتقد أنه من الأسوأ أن ينقصك الإيمان الراسخ. لأنك حينها تعيشين فقط. تصبحين بلا أهمية، مثل زبد البحر».

«بيت شعر جميل».

«سرقته من روبرت بن وارن»، قال. «أبياتي الجميلة مسروقة دائمًا، فأنا يعوزني الإيمان الراسخ». تعدّينا النهر. عندما نظرت إلى الأسفل، رأيت جزيرة القراصنة.

«أمك تهتم، أتعرفين ذلك؟ معظم البالغين مُفرغون. تراقبينهم يحاولون ملء أنفسهم بالكحول أو المال أو اللّه أو الشهرة أو أي شيء يعبدونه، وكل هذا يعفّنهم من الداخل حتى لا يبقى شيء إلّا المال أو الكحول أو اللّه الذي ظنوا أنه سينقذهم. شأنهم شأن أبي ـ هو اختفى قبل فترة طويلة بالفعل، وعلى الأرجح أن اختفاءه لم يؤثر فيّ

(*) Advanced Placement program (AP): برنامج تعلمي في الولايات المتحدة وكندا تم إنشاؤه من قبل مجلس الكلية، ويقدم مناهج وامتحانات على مستوى الكلية لطلاب المدارس الثانوية.

مكتبة

كثيرًا لهذا السبب. أتمنّى لو كان هنا، لكنني تمنّيت هذا لمدة طويلة. يظن البالغون أنهم المتحكّمون في النفوذ، لكن النفوذ هو من يتحكم فيهم».

«الطفيلي يعتقد أنه المُضيف»، قلت.

«نعم»، قال. «نعم».

ونحن نمشي باتجاه منزل آل بيكيت، لمحت مكانين معدّين لاثنين في زاوية طاولة الطعام الضخمة، ضوء شمعة يتراقص بينهما، وطابق البيت الأرضي مضاء بإنارة ذهبية هادئة. كانت معدتي تتقلّب، ولم أشعر بالرغبة في تناول الطعام، لكنني تبعته إلى الداخل. «أعتقد أن روزا أعدّت العشاء لنا»، قال لي. «لهذا علينا على الأقل تناول القليل من الطعام من باب الاحترام».

«مرحبًا روزا»، قال. «شكرًا لبقائك حتى وقت متأخر».

احتضنته وقالت، «أعددتُ سباغيتي نباتية».

«لم تكوني مضطرة لذلك»، قال.

«أبنائي كبروا، وأنت ونوا الصبيّان الباقيان لي. وعندما تخبرني أن لديك موعدًا مع صديقتك الحميمة الجديدة ـ»

«ليست صديقة حميمة»، قال دايفيس. «صديقة قديمة».

«الصديقات القديمات هنّ أفضل صديقات حميمات. تناولا الطعام. أراك غدًا». جذبته إليها واحتضنته مرة أخرى وقبّلت وجنته. «خذ شيئًا لنوا حتى لا يتضوّر جوعًا»، أضافت روزا، «ونظّف أطباقك.

مكتبة

ليس من الصعب أن تمسح الأطباق وتضعها في جلاية الصحون يا دايفيس».

«مفهوم»، قال.

«حياتك غريبة جدًا»، قلت ونحن نجلس لتناول الطعام حول طاولة مُعدّة لاثنين، مع مشروب دكتور بيبر في المكان المخصّص لي ومشروب ماونتن دو في المكان المخصّص له.

«أعتقد ذلك»، قال. رفع علبة المشروب الغازي. «نخب الغرابة»، قال.

«نخب الغرابة»، لامسنا علبنا وشربنا.

«إنها تتصرف كأمّ»، قلت.

«نعم، فهي تعرفني منذ كنت طفلًا. وهي تحبّنا. لكنها تتقاضى أجراً أيضًا لتهتمّ بنا، تعرفين ذلك؟ وإن لم يُدفع لها...أعني، فستكون مجبرة على العثور على وظيفة أخرى».

«نعم»، قلت. يبدو لي أن أحد الاختلافات الفارقة التي تميّز الآباء أنهم لا يقبضون المال مقابل حبّهم لك.

سألني عن يومي الدراسي وأخبرته أني تشاجرت مع ديزي. سألته عن يومه في المدرسة، فقال، «كان على ما يُرام. هناك شائعة في المدرسة أنني لم أقتل أبي فقط، بل أمي أيضًا... لهذا. لا أدري. يجب ألّا أسمح لهذا بالتأثير فيّ».

«بإمكان هذا أن يؤثر في أيّ شخص».

مكتبة

«أستطيع تحمّل ذلك، لكنني قلق على نوا».

«كيف هو نوا؟»

«جاء إلى سريري ليلة البارحة وبكى. شعرت بالاستياء فأعرته الرجل الحديدي».

«أنا آسفة»، قلت.

«هو، فقط... أعتقد أن المرء يدرك في مرحلة ما، أن من يُعنى به ليس إلّا شخصًا، وأنه لا يملك قوى خارقة وليس بإمكانه إبعاد الأذى فعلًا. وهذا شيءٌ قاسٍ بحدّ ذاته. إلّا أن نوا بدأ يستوعب أن الشخص الذي ظن أنه بطل خارق ليس إلّا الوغد الشرير. وهو أمرٌ فظيع حقًا. يفكر دائمًا في أن أبي سيعود إلى المنزل ويثبت براءته، ولا أعرف كيف أخبره، تعرفين، أن أبي ليس بريئًا».

«هل تعني لك عبارة 'فم العدّاء' أي شيء؟»

«لا، لكن رجال الشرطة سألوني ذلك أيضًا. قالوا إنها موجودة على هاتف أبي».

«نعم».

«أقصد، أبي هو أشياء كثيرة ـ لكنّ ليس من بينها عدّاء. يرى أن التمارين الرياضية لا تعني أي شيء، لأنّ توا سيكشف سر الحياة الأبدية».

«بجد؟»

«نعم، يعتقد أن مالك سيتمكّن من تحديد بعض العناصر في دم التوَتارا التي تجعلها تشيخ ببطء، ثم سيتمكّن من 'علاج الموت'»، قال

مكتبة

دايفيس، مستخدمًا إشارات اقتباس في الهواء. «لهذا ترك كل شيء في وصيته لتوا ـ يظن أن التاريخ سيخلّد اسمه بأنه الرجل الذي قضى على الموت». سألته إذا كانت توا ستحصل على كل أموال أبيه، فضحك قليلًا ثم قال، «كل شيء. الشركة، البيت، العقارات. أعني، أنا ونوا لدينا أموال كافية للكلية وغيرها، لكننا لن نكون ثريين».

«إذا كانت لديكما الأموال للكلية وغيرها، فأنتما ثريان».

«بالفعل. أبي ليس مدينًا لنا بأي شيء. لكنني أتمنى لو أنه، تعرفين، يفعل ما يفعله الآباء. يصطحب أخي إلى المدرسة في الصباح، يتأكّد أنه يؤدّي واجبه المدرسي، بدل أن يختفي في منتصف الليل تفاديًا للملاحقة القضائية».

«أنا آسفة».

«تقولين ذلك كثيرًا».

«أشعر بذلك كثيرًا».

نظر إليّ «هل وقعت في الحب من قبل يا آزا؟»

«لا. وأنت؟»

«لا». نظر إلى طبقي. «حسنًا، إذا كان أيٌّ منا لا يريد تناول الطعام فالأفضل أن نذهب إلى الخارج. قد تكون هناك فسحة بين الغيوم».

ارتدينا معطفينا وتوجّهنا إلى الخارج. كانت الرياح تهبّ بشدّة، فخفضت رأسي تجاه صدري وأنا أمشي، لكن عندما اختلست النظر إلى دايفيس، وجدته ينظر إلى الأعلى.

مكتبة

على مسافة أمامنا، رأيت مقعدين من مقاعد بركة السباحة في ملعب الغولف، قرب علم يُحدّد مكان إحدى الحفر. كان العلم يرفرف في مهب الريح، وسمعت أصوات السيارات مبهمة عن بعد، إلّا أن الهدوء طغى على المكان بصورة عامة، وقد أخرس البرد الزيزان والجداجد. تمدّدنا على المقاعد، متجاورين من دون أن نتلامس، وتأمّلنا السماء لفترة. «هذا شيء محبط»، قال.

«لكنه يحدث برغم هذا، أليس كذلك؟ هناك وابل شهب لكننا لا نستطيع رؤيته».

«صحيح»، قال.

«كيف كان سيبدو؟»، سألته.

«هاه؟»

«لو أنّ الجو لم يكن مغيّمًا، ماذا كنت سأرى؟»

«حسنًا». أخرج هاتفه وفتح تطبيقًا لمراقبة النجوم. «هنا، في السماء الشمالية كوكبة دراكو؛ التي تبدو لي أشبه بطائرة ورقية منها بتنين، لكن على أي حال، كان سيكون هناك شهاب واضح هنا. بالكاد يظهر القمر الليلة لهذا من المحتمل أنك كنت سترين خمسة شهب أو عشرة في الساعة. نحن نتحرّك في غبار خلّفه هذا الشهاب المُسمّى جياكوبيني ـ زينر، وكان سيكون في غاية الجمال والرومانسية لو أننا لا نعيش في إنديانا الكئيبة».

«هذا في غاية الجمال والرومانسية»، قلت. «كل ما في الأمر أننا لا نستطيع رؤيته».

مكتبة

فكرت في سؤاله لي إن كنت قد وقعت في الحب من قبل. تعبير غريب، الوقوع في الحب، وكأنه بحر تغرق فيه أو مكانٌ تقع فيه. لا يمكنك أن تقع في أي شيء آخر لا في الصداقة ولا في الغضب ولا في الأمل. الشيء الوحيد الذي بإمكانك الوقوع فيه هو الحب. وأردت أن أخبره أنه برغم أنني لم أقع في الحب من قبل، كنت أعرف ما يعني أن تكون في خضمّ شعور ما، ألّا تكون فقط محاطًا به، ولكن مشبّعًا به، بالطريقة التي تحدّثت بها جدتي عن وجود اللّه في كل مكان. عندما تنعقد أفكاري في لولبتها، أكون واقعة في الحالة اللولبية، وأردت أن أخبره أن فكرة «الوقوع» في شعور تضيف إلى مفرداتي في وصف شيءٍ لم أتمكّن من وصفه من قبل، وتمنح هذا الشيء شكلًا. لكنني لم أعرف كيف أعبّر عن أيّ من هذا بصوت عال.

«لا أعرف إذا كان هذا صمتًا عاديًا أم صمتًا أخرق»، قال دايفيس.

«ما يؤثر بي في قصيدة 'العودة الثانية'... تعرف كيف تتحدّث عن لولبة متزايدة الاتساع؟»

«دوّامة متزايدة الاتساع»، صحّح كلامي. «تدور وتدور في دوّامة متزايدة الاتّساع».

«نعم، دوّامة متزايدة الاتساع. لكنّ الشيء المخيف ليس الدوران والدوران في دوّامة متزايدة الاتساع؛ بل الدوران والدوران في دوّامة متزايدة الضيق. هو أن تُشفط في زوبعة تنكمش وتكمش عالمك حتى تنتهي بالدوران فقط من دون الحركة، عالقًا داخل زنزانة بحجمك تمامًا، لتدرك في نهاية المطاف أنك لست في زنزانة فعليًا. بل أنت الزنزانة».

مكتبة

«يجب أن تكتبي ردًا»، قال. «على ييتس».

«لست شاعرة»، قلت.

«لكنّك تتحدّثين كشاعرة»، قال. «اكتبي نصف ما تقولين وستكون القصيدة أفضل من أي شيء كتبته».

«هل تكتب الشعر؟»

«ليس بالتحديد. لا شيء يستحقّ الذكر».

«مثل ماذا؟» سألت. كان الحديث معه أسهل بكثير في الظلام، ونحن نتأمل السماء ذاتها بدل النظر أحدنا إلى الآخر. وكأننا بلا أجساد، فقط أصوات تتحدّث.

«إذا كتبت شيئًا أشعر بالفخر تجاهه، فسأطلب منك قراءته».

«أحب الشعر السّيىء»، قلت.

«أرجوك لا تجبريني على مشاركتك قصائدي الغبية. قراءة كتابات شخص ما الشعرية تماثل رؤيته عاريًا».

«هذا يعني إذن أنني أريد رؤيتك عاريًا»، قلت.

«ليست سوى قصائد قصيرة غبية».

«أريد أن أستمع إلى إحداها».

«حسنًا. في العام الماضي كتبت قصيدة اسمها 'آخر بطّ الخريف'».

«وتقول فيها ..».

«ذهبت أوراق الشجر / وعليك أن تذهب أيضًا / كنت سأرحل لو أني أنت / لكني هنا / أمشي وحيدًا / في صقيع الفجر المتجمّد».

مكتبة

«أعجبتني»، قلت.

«أحبّ القصائد القصيرة بالقافية الغريبة، لأن الحياة كذلك».

«الحياة كذلك؟» كنت أحاول فهم مغزاه.

«نعم. للحياة قافية، لكن ليس بالطريقة التي تتخيّلينها».

نظرت إليه. فجأة، رغبت في دايفيس بقوة لدرجة أني لم أعد أكترث لماذا كنت أرغب فيه سواء كانت هذه الرغبة قوية أم ضعيفة. مددت يدي ولمست خده البارد بيدي الباردة، وبدأت بتقبيله.

عندما رفعنا رأسينا أخيرًا، شعرت بيده على خصري، وقال، «أنا، أعني، واو!»

تبسّمت. أحببت الشعور بجسده يلامس جسدي، إحدى يديه تتبع عمودي الفقري. «هل لديك قصائد أخرى؟»

«أحاول كتابة الثنائيات أخيرًا. أشياء عن الطبيعة. مثل، «تعرف النرجسة عن الربيع أكثر مما / تعرف الورود عن أي شيء»».

«نعم، هذا فعّال أيضًا»، قلت وقبّلته مرة ثانية. شعرت بصدري ينقبض، شفتاه الباردتان وفمه الدافئ، يداه تشدّانني إليه أكثر عبر طبقات معطفينا.

أحبّ العناق بوجود كل هذه الطبقات. غبّشت أنفاسنا نظّارته أثناء عناقنا، وحاول خلعها لكنني دفعتها إلى أسفل جسر أنفه، وضحكنا معًا، ثم بدأ بتقبيل رقبتي، وخطرت لي فكرة: لسانه كان في فمي.

قلت لنفسي أن أعيش اللحظة، أن أسترخي وأسمح لنفسي بالتمتّع

مكتبة

بدفء جلده، لكنّ لسانه كان الآن على رقبتي، رطب وحيّ ومليء بالميكروبات، ويداه تتسلّلان تحت معطفي، أصابعه الباردة على جلدي العاري. كل شيء على ما يرام، أنت على ما يرام، قبّليه فقط. عليك أن تتأكّدي من شيء. كل شيء على ما يرام، كوني طبيعية. تأكّدي إن كانت ميكروباته تظل فيكِ. مليارات الناس يتبادلون القبل ولا يموتون. فقط تأكدي أن ميكروباته لن تستعمرك إلى الأبد. كفّي عن هذا أرجوك. قد يكون مصابًا بالبكتيريا العطيفة، قد يكون حاملًا للإشريكية القولونية بأعراض خفية، إذا أصبت بذلك فستضطرين إلى تناول المضادّات الحيوية ثم ستصابين بالتهاب القولون الغشائي الكاذب وتموتين خلال أربعة أيام. أرجوكِ توقفي، كل ما عليك هو التأكد فقط.

تراجعت.

«هل أنت على ما يرام؟» سأل.

أومأت بنعم وقلت. «أحتاج، أحتاج إلى القليل من الهواء». جلست، استدرت عنه، أخرجت هاتفي، وبحثت عن «هل تظل بكتيريا الأشخاص الذين تقبّلهم داخلك»، واطّلعت بسرعة على نتيجتين زائفتين قبل أن أصل إلى الدراسة الفعلية التي أُجريت عن الموضوع. يجري تبادل قرابة ثمانين مليون ميكروب مع كل قبلة عادة، و «في المتابعة التي أُجريت بعد مرور ستة أشهر على القبلة، تبيّن أن الميكروبيومات المتعايشة في معدة الإنسان قد تغيّرت بصورة طفيفة وإن كانت مستمرة».

ستظل ميكروباته داخلي إلى الأبد، ثمانون مليونًا منها، تتكاثر وتنمو وتتّحد مع ميكروباتي لتنتج ما لا يعلمه إلّا اللّه.

مكتبة

شعرت بيده على كتفي. استدرت بسرعة وابتعدت عنه. أنفاسي تتصاعد. بقع تتحرك أمامي. أنت بخير هو ليس حتى أول فتى تقبّلينه. ثمانون مليون كائن عضوي داخلي إلى الأبد. اهدئي. تعمل على تغيير الميكروبيوم بشكلٍ نهائي. هذا ليس عقلانيًا. تصرّفي أرجوكِ لا بدّ أن يكون هناك طريقةٌ لإصلاح ذلك. أرجوكِ توجّهي إلى الحمّام. «ماذا هناك؟»

«لا شيء»، قلت. «أحتاج إلى استخدام الحمّام فقط».

أخرجت هاتفي لأعيد قراءة الدراسة لكنني قاومت الرغبة، أغلقته ووضعته في جيبي. لكن لا، كان عليّ أن أتأكد لأرى إذا كانت الدراسة قد ذكرت إن كان التغيير طفيفًا أو مستمرًا. طفيف. حسنًا. طفيفٌ أي أفضل من متوسّط. لكنه مستمر. اللعنة.

شعرت بالغثيان والقرف، وبالبؤس أيضًا؛ أعرف كيف كنت أبدو في نظره. أعرف أن جنوني لم يعد نزوة، مسألة بسيطة لإصبع مجروحة. أصبح جنوني استفزازًا، كما هي الحال مع ديزي، كما هي الحال مع أيّ شخص يقترب مني.

شعرت بالبرد، لكنني بدأت في التعرّق برغم ذلك. أغلقت سحّاب سترتي ليصل إلى ذقني وأنا أمشي تجاه المنزل. لم أُرد الجري، لكن لكل لحظة اعتبارها. عليّ الوصول إلى الحمّام. فتح دايفيس الباب الخلفي وأشار إليّ عبر الممرّ نحو حمّام الضيوف. أغلقت الباب وأقفلته، حابسة نفسي في الداخل، واتّكأت على المغسلة. فتحت سحّاب سترتي وحدّقت إلى نفسي في المرآة. أزلت اللصقة الطبية،

مكتبة

فتحت الجرح بظفر إبهامي، ثم غسلت يدي ووضعت لصقة جديدة. بحثت في الأدراج تحت المغسلة عن غسول فم، إلّا أنه لم يكن لديهم أيٌّ منه. في نهاية المطاف تمضمضت بماء بارد ثم بصقته.

رضيتِ الآن؟ سألت نفسي، وأجبت، مرة أخرى لتتأكدي، فتمضمضت بالماء مرة أخرى وبصقت. نشّفتُ وجهي المتعرّق بأوراق التواليت وخرجت إلى ضوء قصر دايفيس الذهبي.

أشار إليّ أن أجلس، ووضع ذراعه حولي. لم أرد ميكروباته قربي، لكني تركت ذراعه هناك، لأنني لم أُرد أن أبدو غريبة الأطوار. «هل أنت بخير؟»

«نعم، أنا مرعوبة قليلًا فقط».

«هل فعلت شيئًا؟ هل عليّ أن ـ»

«لا، لا علاقة لك بالأمر».

«بإمكانك إخباري».

«لا علاقة لك بالأمر حقًا. أنا... فقط، التقبيل أخافني شيئًا ما، على ما أظن».

«حسنًا، إذن لا للتقبيل حاليًا. ليس هناك أي مشكلة».

«ستصبح مشكلة»، قلت. «لدي تلك... الأفكار اللولبية، ولا أستطيع الخروج منها».

«الالتفاف والالتفاف بالدوّامة اللولبية»، قال.

«أنا... هذا، أعني... هذا لا يتحسّن. يجب أن تعرف ذلك».

مكتبة

«لست بعجلة من أمري».

ملت إلى الأمام متأمّلة الأرض الخشبية. «لن أُشفى من هذا أبدًا، هذا ما أعنيه. أعاني منه منذ باكورة ذكرياتي ولن يتحسّن وليس بإمكاني أن أعيش حياة عادية إن لم أستطع تقبيل شخص من دون الشعور بالرعب».

«كل شيء على ما يرام، يا آزا. فعلًا».

«قد تعتقد هذا الآن، لكنك لن تصدّقه إلى الأبد».

«لكن الحال لن تبقى كذلك إلى الأبد»، قال. «هذه حالك الآن فقط. هل أستطيع أن أُحضر لك شيئًا؟ كأس ماء أو شيئًا آخر؟»

«هل نستطيع... هل نستطيع مشاهدة التلفزيون فقط؟»

«نعم»، قال. «بالتأكيد». مدّ إليّ يده، لكنني وقفت من دون مساعدة. ونحن نمشي باتجاه درج القبو، قال دايفيس، «لدينا نوعان من الأفلام هنا في مسكن آل بيكيت ـ حرب النجوم وطريق النجوم. ماذا تفضّلين؟»

«لست من هواة أفلام الفضاء»، قلت.

«رائع، إذن سنشاهد فِلم طريق النجوم الرابع: رحلة العودة إلى الوطن، تدور أربعون بالمئة من أحداثه هنا على الأرض». نظرت إليه وابتسمت، لكني لم أستطع إرخاء الأنشوطة المعقودة بإحكام حول أفكاري التي تتخبّط بسرعة في رأسي.

نزلنا إلى القبو، وهناك لمست رواية أف. سكوت فيتزجيرالد ليُفتح رفّ

مكتبة

الكتب. جلست في أحد المقاعد الجلدية السميكة شاكرة لمسند الذراع الذي يفصل بين المقاعد. ظهر دايفيس بعد فترة مع علبة دكتور بيبر، وضعها في حامل الأكواب في مسند ذراعي، وجلس جواري. «كيف بإمكانك أن تكوني صديقة ديزي المقرّبة من دون أن تحبّي مسلسلات الفضاء؟»

«أشاهدها معها؛ لكنني لا أحبها»، قلت. إنه يحاول معاملتك وكأنك طبيعية وأنت تحاولين الرد وكأنك طبيعية إلّا أن كل من هم هنا يعرفون أنك غير طبيعية على الإطلاق. بإمكان الناس العاديين التقبيل إذا أرادوا أن يقبّلوا. الناس العاديون لا يتعرّقون مثلك. الناس العاديون يختارون أفكارهم كما يختارون ما يريدون مشاهدته على التلفزيون. كل من يسمعك يعرف أنك غير طبيعية.

«هل قرأت مؤلّفاتها؟»

«قرأت قصتين عندما بدأت الكتابة في المرحلة الإعدادية. لا تروقني». كنت أشعر بالغدد العرقية تنفتح على شفتي العليا.

«هي كاتبة بارعة بالفعل. يجب أن تقرئي كتاباتها. أنت موجودة في بعضها».

«نعم، حسنًا»، قلت بهدوء، ثم أخرج هاتفه في النهاية واستخدم تطبيقًا لعرض الفِلم. تظاهرت بأنني أتابع الفِلم بينما كنت أغوص أعمق في الحالة اللولبية. فكّرتُ في لوحة بيتيبون، في زوبعتها المتعددة الألوان، تشدّ نظرك إلى بؤرتها. حاولت التنفّس بالطريقة التي تنصح بها د. سينغ من دون أن يكون الأمر واضحًا، لكن في غضون دقائق معدودة كنت أتعرّق بغزارة، ومن المؤكّد أنه لاحظ، لأنه شاهد هذا

مكتبة

الفِلم مئة مرة، لهذا كان يتفرج عليه ليتفرج عليّ أتفرج عليه، وكنت أشعر بنظراته إليّ، وبرغم أن سحّاب سترتي كان مغلقًا، من الواضح أنه لاحظ الشارب الرطب فوق شفتي العليا المبتلّة.

شعرت بالتوتّر في الجو، وكنت أعرف أنه يحاول التفكير بطريقة تجعلني سعيدة مرة أخرى. عقله يدور مع عقلي. ليس بإمكاني أن أجعل نفسي سعيدة، لكني أستطيع جعل من حولي تعساء.

عندما انتهى الفِلم، أخبرته أني متعبة، لأنه الوصف الذي يُرجّح أن يأخذني إلى حيث أحتاج إلى أن أكون ـ إلى سريري، وحدي. أوصلني دايفيس إلى المنزل، ثم مشى معي حتى الباب، وقبّلني بعفّة على شفتي المتعرّقة. وقفت على عتبة الباب ولوّحت له. أرجع سيارته إلى الوراء مغادرًا الممر، ثم ذهبت إلى الكاراج، فتحت صندوق هارولد، وأخذت هاتف أبي لأنني أردت النظر إلى صوره.

تسلّلت إلى جوار أمي التي كانت نائمة على الأريكة أمام التلفزيون. وجدت شاحنًا قديمًا في مكتبي، شبكت هاتف أبي، وجلست هناك وقتًا طويلًا أنظر إلى صوره، متأمّلة جميع صور السماء المعرّقة بأغصان الشجر.

«تعرفين أنّ هذه الصور متوافرة على الكمبيوتر»، قالت أمي برفق من ورائي. لم أسمعها تستيقظ.

«نعم»، قلت. سحبت الهاتف من الشاحن وأغلقته.

«هل كنت تتحدثين معه؟»

«نوعًا ما»، قلت.

مكتبة

«بم كنت تحدّثينه؟»

ابتسمت، «أسرار».

«أنا أبوح له بأسرار أيضًا. وهو رائع في الحفاظ عليها».

«إنه الأفضل»، قلت.

«آزا، أعتذر كثيرًا إذا كنت قد آذيت مشاعر دايفيس. لقد كتبت له اعتذارًا. لكن أريد منك أن تفهمي أيضًا ـ» لوّحت لها بيدي لتسكت.

«لا عليك. اسمعي، يجب أن أغيّر ملابسي». أخذت ثيابي وتوجهت إلى الحمّام، خلعت ملابسي، جفّفت عرقي، وتركت جسدي ينشف في الهواء. كانت قدماي باردتين فوق الأرض. أرخيت شعري، ونظرت إلى نفسي في المرآة. كنت أكره جسمي. كان يُقرفني. شعره، مسامه، هزاله. جلد مشدود على هيكل عظمي، جثة متحركة. أردت الخلاص ـ الخلاص من جسدي، الخلاص من أفكاري، الخلاص ـ لكنني كنت عالقة داخل هذا الشيء، مثل البكتيريا التي تستعمرني.

طرقٌ على الباب. «أنا أبدّل ملابسي»، قلت. أزلت اللصقة الطبية، فحصت وجود دم أو قيح، رميتها في القمامة، وضعت معقّم يدين على إصبعي، لسعته تتغلغل في الجرح.

لبست بنطلون رياضة وتيشيرتًا قديمًا لأمي، وغادرت الحمّام، حيث كانت أمي في انتظاري.

«هل تشعرين بالقلق؟» سألتني.

«أنا بخير»، أجبت، واستدرت متوجّهة إلى غرفتي.

مكتبة

أطفأت الأنوار وصعدت إلى السرير. لم أكن متعبة تمامًا، لكنني لم أكن متحمّسةً للحفاظ على وعيي. عندما دخلت أمي، بعد دقائق، تظاهرت بأنني نائمة حتى لا أضطر إلى التكلّم معها. وقفت فوقي، تغنّي أغنية قديمة كانت، منذ باكورة ذكرياتي، تغنيها لي عندما يستعصي عليّ النوم.

هي أغنية كان يغنّيها الجنود في إنكلترا على نغمة «نشيد الوداع» الذي يُغنّى في رأس السنة. تقول كلماتها، «نحن هنا لأننا هنا لأننا هنا لأننا هنا». ارتفع صوتها في النصف الأول مثل نَفَس عميق، ثم غنّتها بصوت منخفض. «نحن هنا لأننا هنا لأننا هنا لأننا هنا».

برغم أنه من المفروض أنني بالغة وأنّ أمي تزعجني إلى أقصى حد، فكّرت وفكّرت، حتى نجحت أهزوجتها في دفعي إلى النوم أخيرًا.

١٣

برغم أنني تداعيت نفسيًا في حضوره، بعث إليّ دايفيس برسالة نصية صباح اليوم التالي قبل أن أترك السرير.

هو: هل ترغبين في مشاهدة فلم الليلة؟ يمكن أن نختار فلمًا لا تدور أحداثه في الفضاء.

أنا: لا أستطيع. ربما في وقت آخر. آسفة لأنني ذُعرت وتعرّقت وكل شيء.

هو: أنت حتى لا تتعرّقين بطريقة غير طبيعية.

أنا: بل أفعل بالتأكيد لكنني لا أريد التحدث عن ذلك.

هو: أنت بحق لا تحبين جسمك.

أنا: صحيح.

هو: يعجبني. إنه جسم جميل.

مكتبة

تمتّعت أكثر بالبقاء معه في هذا الحيّز غير الجسدي، لكني أيضًا شعرت بالحاجة إلى إحكام إغلاق المصاريع على نوافذ نفسي.

أنا: أشعر بأنني أتزعزع على نحو عامّ، ولا أستطيع مواعدتك بالفعل. أو مواعدة أي شخص. أنا آسفة لكنني لا أستطيع. أنا أستلطفك، ولكنني لا أستطيع مواعدتك.

هو: أنا وأنت متفقان على ذلك، فهو يتطلب الكثير من الجهد. كل ما يفعله أصحاب العلاقات هو التحدث عن حال علاقاتهم. وكأنها دولاب الهواء.

أنا: هاه؟

هو: عندما يركب أي شخص دولاب الهواء فكل ما يتحدث عنه هو أنه ركب دولاب الهواء والمنظر من دولاب الهواء وما إذا كان دولاب الهواء مخيفًا وكم مرة إضافية سيدور. المواعدة مثل ذلك. لا يتحدث أي شخص يمارسها عن أي شيء آخر. لا رغبة لي في المواعدة.

أنا: حسنًا، فيم ترغب إذن؟

هو: فيك.

أنا: لا أعرف كيف أرد على هذا.

هو: لست مضطرة. نهارك سعيد يا آزا.

أنا: ونهارك، دايفيس.

مكتبة

خلال موعدي مع د. كارين سينغ في اليوم التالي بعد المدرسة، جلست على المقعد المقابل لها ونظرت إلى صورة الرجل الممسك بالشبكة. حدّقت إلى الصورة أثناء حديثنا لأنّ الصرامة في نظرة عيني د. سينغ كانت أكثر من أن أتحمّلها.

«ما أخبارك؟»

«ليست جيدة».

«ما المشكلة؟» سألتُ. بطرف عيني، لمحتها تضع ساقًا على ساق، ولمحت حذاءها الأسود المنخفض الكعب، وقدمها تنقر الهواء.

«هناك فتى»، قلت.

«و؟»

«لا أدري. هو لطيف وذكي وأستلطفه، لكنني لستُ في تحسّن، وأتساءل عمّا يمكن أن يُسعدني إذا لم يتمكّن هذا من إسعادي؟»

«لا أعرف. ما الذي سيتمكّن؟»

تأوّهت. «هذه حركة مكشوفة لطبيبة نفسية».

«مفهوم. التغيير في الظروف النفسية، حتى التغيير الإيجابي، قد يُسبّب القلق. لهذا ليس من غير المألوف أن تشعري بالقلق مع تطور علاقة جديدة. أين أنت والأفكار الجامحة؟»

«أمس، كنا نتعانق أنا وهو واضطررت إلى إيقاف كل شيء لأنني لم أستطع التوقف عن التفكير في القرف من كل شيء، لذا، لست بأفضل حال».

مكتبة

«القرف من ماذا؟»

«من ميكروبيومه الذي على لسانه وأنه متى وضع لسانه في فمي تصبح ميكروباته جزءًا من ميكروباتي حتى نهاية عمري، بكل معنى الكلمة. أي إن لسانه سيظل دائمًا في فمي حتى أموت، ثم ستأكل بكتيريا لسانه جثتي».

«وهذا جعلك ترغبين في التوقف عن تقبيله؟»

«بالتأكيد، نعم»، قلت.

«ليس هذا غير مألوف. إذن، جزء منك أراد أن يستمر في تقبيله وجزء آخر شعر بالقلق الشديد المصاحب للحميمية مع شخص ما».

«نعم، لكنني لم أكن قلقة بشأن الحميمية. كنت قلقة بشأن تبادل الميكروبات».

«عبّر قلقك عن نفسه تحت مسمّى تبادل الميكروبات».

تأوّهت من هراء الجلسات العلاجية. سألتني إذا كنت قد تناولت دوائي أتيفان. قلت لها إنني لم آخذه معي إلى منزل دايفيس. ثم سألتني إذا كنت أتناول ليكسابرو يوميًا، فأجبت، ليس كل يوم. تطوّر الحوار وأخذت تخبرني أن الدواء يصبح فعّالًا إذا تناولناه، وأن عليّ التعامل مع مشاكلي الصحية بعناية وانتظام، وحاولت أن أشرح لها أن هناك شيئًا شديد الغرابة والإزعاج في ألا يتمكّن المرء من أن يكون نفسه سوى إذا تناول دواءً يغيّره.

عندما توقّف الحديث لحظة، سألت، «لماذا تعلّقين تلك الصورة؟ صورة الرجل والشبكة؟»

مكتبة

«ما الذي لا تقولينه؟ ما هو الشيء الذي يخيفك قوله، يا آزا؟»

فكرت في السؤال الحقيقي، السؤال العالق باستمرار في خلفية وعيي مثل طنين في أذنيّ. كان يُحرجني، لكنني شعرت أيضًا بأن التفوّه به قد يكون خطيرًا شيئًا ما. مثل عدم نطق اسم فولديمورت. «أظن أنني غير حقيقية»، قلت.

«كيف؟»

«تقولين إن تغيير الظروف يُشعر بالإجهاد، أليس كذلك؟»

أومأتْ بنعم.

«لكن ما أريد معرفته هو، هل هناك «أنا» مستقلّة عن الظروف؟ هل هناك «أنا» فعلية في صميمي، شخص حقيقي، الشخص نفسه سواء كان لديه مال أم لا، الشخص نفسه سواء كان له صديق أم لا، الشخص نفسه سواء ذهب إلى هذه المدرسة أو تلك؟ أم أنني مجموعة من الظروف فقط؟»

«لا أرى كيف يجعلك ذلك خيالية».

«أنا لا أتحكّم في أفكاري، إذن هي ليست لي فعلًا. لا أقرر إذا كنت أتعرّق أو سأصاب بالسرطان أو التهاب القولون الغشائي الكاذب أو أي شيء، إذن جسمي ليس جسمي حقًا. لا أقرر أيًا من تلك الأمور - قوى خارجية تقوم بذلك. أنا قصة يسردونها. أنا مجموعة ظروف».

أومأت. «هل بإمكانك التحقّق من هذه القوى الخارجية؟»

«لا، أنا لا أهلوس»، قلت. «هي... أقصد، أنا لست متأكدة أنني، بالمعنى الدقيق للكلمة، حقيقية».

مكتبة

وضعت د. سينغ قدمها على الأرض ومالت إلى الأمام، يداها على ركبتيها. «هذا مشوّق حقًا»، قالت. «مشوّق حقًا». شعرت لفترة وجيزة بالفخر لأنني، ولو لحظة، لم أكن «مألوفة». «إنه أمر مخيف بالتأكيد، أن تشعري بأن نفسك قد لا تكون لك. وكأنها... سجن».

أومأت.

«هناك لحظة»، قالت، «قرب نهاية رواية يوليسيس تبدو فيها شخصية مولي بلوم وكأنها تتحدث مباشرة مع الكاتب. تقول، «يا جايمسي انتشلني من هذا». أنت سجينة داخل نفس لا تبدو أنها لك تمامًا، مثل مولي بلوم. لكن أيضًا، تبدو لك تلك النفس ملوّثة بشدة».

أومأت.

«لكنك تمنحين أفكارك الكثير من القوة، يا آزا. الأفكار أفكار فقط. هي ليست أنت. أنت تنتمين إلى نفسك، حتى عندما لا تنتمي إليها أفكارك».

«لكنّ أفكارك هي أنت. أنا أفكر إذن أنا موجود، أليس كذلك؟»

«لا، ليس بالتحديد. التحليل الأعمق لفلسفة ديكارت هو: أنا أشك، إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود». أراد ديكارت أن يعرف إذا كان بإمكاننا الوصول إلى اليقين في أي أمرٍ، لكنه آمن بأن قدرته على التشكيك لا تؤدي بالضرورة إلى إثبات أنَّ هذا الأمر حقيقي، لكنها تؤدي حتماً إلى إثبات أنه، هو، حقيقي. أنت حقيقية مثل أي شخص آخر، وشكوكك تجعلك حقيقية أكثر، لا أقل».

لحظة وصولي إلى المنزل، شعرت بأعصاب أمي المشدودة إزاء موعدي

مكتبة

مع د. سينغ، برغم أنها كانت تحاول أن تبدو هادئة وعلى سجيتها. «كيف مرّ الموعد؟» سألت، من دون أن تنظر إليّ، وهي تصحّح أوراق الامتحانات على الأريكة.

«جيدًا، أظن»، قلت.

«أريد الاعتذار مرة أخرى عن الطريقة التي تحدثت بها مع دايفيس أمس»، قالت. «لديك كل الحق أن تستائي مني».

«لست مستاءة»، قلت.

«لكني أريد أن تحاذري يا آزا. أشعر بأن قلقك في تزايد ـ من وجهك إلى أطراف أصابعك».

أغلقت قبضة يدي وقلت، «ليس هو السبب».

«ما هو السبب إذن؟»

«ليس هناك سبب»، قلت وأدرت التلفزيون، لكنها أخذت جهاز التحكم عن بعد وأخرست الصوت.

«تبدين سجينة رأسك، وليس باستطاعتي أن أعرف ما يدور داخله، وهذا يخيفني». ضغطت بظفري طرف إصبعي من فوق اللصقة الطبية معتقدةً أنها ستخاف أكثر إذا رأت ما يدور هناك.

«أنا بخير. فعلًا».

«لكنك لست كذلك».

«أمي، أخبريني ماذا عليّ أن أقول. بجد. فقط... أخبريني أيّ كلمات أستطيع التفوّه بها كي تهدئي».

مكتبة

«لا أريد أن أهدأ. أريد أن تنتهي معاناتك».

«الأمور لا تجري هكذا، حسنًا؟ عليّ أن أذهب لقراءة مادّة التاريخ».

وقفت، لكن قبل أن أصل إلى غرفتي، قالت، «بالمناسبة، أخبرني السيد مايرز اليوم أن مقالتك عن التبادل الكولومبي هي أفضل ما مرّ عليه طوال السنوات التي قضاها في التدريس».

«بدأ التدريس قبل عامين»، قلت.

«أربعة أعوام، ...»، قالت. «ستبلغين شأنًا كبيرًا يا آزا هولمز».

«هل سمعت عن أمهيرست؟» سألت.

«أين؟»

«أمهيرست. كلية في ماساتشوستس. كلية جيدة وتصنيفها عالٍ جدًا. أعتقد أني أريد الالتحاق بها ـ إذا قُبلت».

بدأت أمي قول شيء لكنها ابتلعته، ثم تنهّدت. «علينا أن نرى من أين ستأتي المنح الدراسية».

«أو سارا لورنس»، قلت. «تبدو هي الأخرى جيدة أيضًا».

«حسنًا، تذكّري يا آزا، تقديم الطلبات وحده في كثير من تلك الكليات مكلف، لهذا علينا الاختيار. العملية كلها مشبوهة، من البداية حتّى النهاية. يجعلونك تدفعين لتكتشفي أنك لا تملكين تكاليف الذهاب. علينا أن نكون واقعيتين، والواقع يحتّم ألا تبتعدي كثيراً،

مكتبة

حسنًا؟ ليس هذا بسبب المال فقط. لا أعتقد أنك ترغبين بالفعل في أن تكوني في أقصى أطراف الأرض بعيدًا عن كل ما تعرفينه».

«بلى»، قلت.

«حسنًا، فهمت. لا تريدين الحديث مع أمك. لكني أحبك على أي حال». رمتني بقبلة في الهواء وهربتُ إلى غرفتي أخيرًا.

لم أكن ملزمة قراءة مادة التاريخ، لكن بعد أن انتهيت، لم أكن متعبة وفكرتُ في كتابة رسالة نصية لدايفيس.

كنت أعرف ما أريد أن أكتبه، أو على الأقل، ما كنت أفكر في كتابته. لم أستطع التوقّف عن التفكير في الرسالة النصية ـ كتابتها، الضغط على زر الإرسال مع اليقين أنني لن أتمكّن من التراجع بعد ذلك، ضربات القلب والتعرّق بانتظار الرد.

أطفأت الضوء، وانقلبت على جنبي، وأغلقت عينيّ، لكنني لم أستطع التخلص من الفكرة؛ لهذا مددت يدي إلى هاتفي، فتحته، وكتبت له. عندما قلت إنك تحب جسدي، ماذا كنت تقصد؟

راقبت الشاشة لثوانٍ، بانتظار ظهور الـ ... التي تشير إلى أنه يرد، لكن لا شيء، فوضعت هاتفي على طاولة السرير الجانبية. كان عقلي هادئًا الآن لأنني فعلت الشيء الذي أراده مني، وكنت على وشك أن أغفو عندما سمعت الهاتف يهتزّ.

هو: أقصد أنني أحبّه.

أنا: أيّ شيء فيه؟

مكتبة

هو: أحبّ الطريقة التي تنحدر بها كتفاك باتجاه عظمة الترقوة.

هو: وأحبّ ساقيك. أحب استدارة بطّة ساقيك.

هو: أحبّ يديك. أحبّ أصابعك الطويلة وداخل رسغك، لون جلدك هناك، العروق تحته.

أنا: أحب ذراعيك.

هو: إنهما نحيلتان.

أنا: لكنهما قويتان. هل يروقك ذلك؟

هو: كثيرًا.

أنا: بطة ساقي؟ لم ألاحظها أبدًا.

هو: إنها جميلة.

أنا: هل هذا كل شيء؟

هو: أحبّ مؤخّرتك. أنا أحبّ مؤخّرتك كثيرًا جدًا. هل يروقك ذلك؟

أنا: نعم.

هو: أريد أن أبدأ مدوّنة عن مؤخّرتك.

أنا: هذا غريب شيئًا ما.

هو: أريد أن أكتب قصصًا للهواة تقع فيها مؤخّرتك الرائعة بحب عينيك الجميلتين.

أنا: لول. أنت تدمّر اللحظة بحق. كنت تقول... قبل...؟

مكتبة

هو: إنّني أحبّ جسمك. أحبّ بطنك وساقيك وشعرك وأحب. جسمك.

أنا: حقًا؟

هو: حقًا.

أنا: ما المشكلة المحددة التي تجعلني أجد الرسائل النصية ممتعة والتقبيل مخيفًا؟

هو: لا مشكلة لديك. هل تريدين زيارتي بعد المدرسة يوم الإثنين؟ نشاهد فِلمًا أو شيئًا ما؟

انتظرت لفترة قبل أن أكتب أخيرًا، بالتأكيد.

للحصول على كتبنا قبل الجميع
بروابط تحميل مباشرة
تابعونا
على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
facebook.com/ktabpdf
على تيليجرام
telegram @ktabpdf

مكتبة

١٤

في موقف السيارات قبل المدرسة يوم الاثنين، أخبرت ديزي عن التقبيل والرسائل النصية والثمانين مليون ميكروب.

«عندما تتحدثين عن الموضوع بهذه الطريقة، أجد أن التقبيل مقرف بالفعل»، قالت. «لكن من ناحية أخرى، قد تكون ميكروباته أفضل من ميكروباتك، أليس كذلك؟ قد تؤدي إلى تحسّن صحتك».

«ربما».

«قد تكتسبين قوى خارقة من ميكروباته. كانت فتاة عادية حتى قبّلت مليارديرًا وأصبحت... ميكروبيانكا، ملكة الميكروبات». نظرت إليها فقط. «آسفة، ألا تجدين ذلك مجديًا؟»

«ستخفّ غرابة الأمر، أليس كذلك؟» قلت. «أعني، في كل مرة نتبادل فيها القبل ولا يحدث أي شيء، سيصبح الأمر أقل إرعابًا.

مكتبة

أعني، لن يصيبني ببكتيريا العطيفة فعلًا». ثم بعد لحظة، أضفت، «على الأرجح».

همّت ديزي بقول شيء، لكنها لمحت ميكال يمشي تجاهها عبر موقف السيارات. «ستكونين على ما يرام يا هولمزي. أراك في فترة الغداء. أحبّك!» قالت، وانطلقت نحو ميكال. أحاطته بذراعيها، وقبّلته بطريقة دراماتيكية على شفتيه، إحدى ساقيها مرفوعة عند الركبة وكأنها في فلم.

قدت سيارتي إلى منزل دايفيس من المدرسة. كانت بوّابات المدخل الحديدية مغلقة واضطررت إلى النزول من السيارة وضغط زرّ الإنتركوم.

«منزل آل بيكيت»، أعلن صوت عرفت أنه صوت لايل.

«مرحبًا، أنا آزا هولمز، صديقة دايفيس»، قلت.

لم يجب، لكن البوابة فُتحت. عدت وركبت هارولد وقدته على الممر. كان لايل يجلس في عربة الغولف عندما وصلت إلى محاذاة المنزل. «مرحبًا»، قلت.

«دايفيس ونوا عند بركة السباحة»، قال. «هل ترغبين في أن أوصلك؟»

«أستطيع المشي»، قلت.

«إقبلي»، ردّ بصوت تخلو منه أي نبرة، مشيرًا إلى المكان على مقعد العربة جواره. جلست، وتوجّه ببطء شديد باتجاه بركة السباحة. «كيف حال دايفيس؟» سألني.

«بخير، أعتقد».

مكتبة

«هشّ ـ هذه هي. حالهما الاثنان».

«نعم»، قلت.

«عليك أن تتذكّري ذلك. هل حدث أن فقدت شخصًا؟»

«نعم»، قلت.

«إذن تعرفين الشعور»، قال ونحن نقترب من بركة السباحة. كان دايفيس ونوا يجلسان متجاورين على المقعد نفسه، مائلين إلى الأمام، يحدّقان إلى الفناء تحتهما. فكرتُ في قول لايل إذن تعرفين. أنا لا أعرف، ليس بالفعل. ليس هناك سابقة لكل فقدان. لا تستطيع معرفة ألم شخص آخر، ليس بالفعل ـ مثلما أنّ لمس جسد شخص ليس كامتلاك جسده.

عندما سمع دايفيس صوت وصول عربة الغولف، أدار رأسه، أومأ، ووقف.

«مرحبًا»، قلت.

«مرحبًا. أحتاج إلى بضع دقائق هنا. آسف، طرأ شيء مع نوا. لايل، لم لا تأخذ آزا في جولة حول المكان؟ خذها إلى المختبر، ما رأيك؟ ألقاك هناك بعد قليل، حسنًا؟»

أومأت وصعدت ثانية إلى عربة الغولف. أخرج لايل هاتفه الجوّال. «مالك، هل لديك بضع دقائق لأخذ صديقة دايفيس في جولة؟... سنكون هناك بعد قليل». قادني لايل وتعدّينا ملعب الغولف، سألني عن المدرسة وعلاماتي وعمل والديّ. قلت له إنّ أمي معلّمة.

«وأبوك؟»

مكتبة

«أبي متوفّى».

«أوه. آسف».

تبعنا طريقًا رمليًا عبر خط من الأشجار إلى مبنى زجاجي مستطيل بسقف مسطّح ولافتة خارجه مكتوب عليها مختبر.

مشى معي لايل إلى الباب وفتحه، لكنه قال مع السلامة بعد ذلك. أُغلق الباب ورائي، ورأيت مالك خبير علوم الحيوان محدّقًا إلى مايكروسكوب. لا يبدو أنه سمعني أدخل. كانت الغرفة ضخمة، بطاولة طويلة سوداء في المنتصف، مثل طاولات حصّة الكيمياء، تحتها خزائن، وعليها كلّ أنواع المعدّات، تعرّفت على بعضها ـ أنابيب اختبار زجاجية، قوارير سوائل ـ وأشياء كثيرة لا أعرفها. مشيت باتجاه الطاولة ونظرت إلى آلة دائرية بأنابيب اختبار داخلها.

«اعذريني»، قال مالك أخيرًا، «لكنّ هذه الخلايا لا تعيش طويلًا خارج الجسد، وتوا تزن رطلًا ونصف رطل فقط، لهذا أحاول ألّا أسحب منها دمًا أكثر من اللازم. هذا جهاز طرد مركزي». مشى نحوي وأمسك بأنبوب اختبار يحتوي على ما يبدو أنه دم، ووضعه بعناية في رفّ من الأنابيب.

«هل أنت مهتمّة بالأحياء؟»

«أعتقد هذا»، قلت.

تأمّلَ تجمّع الدم القليل في قعر أنبوب الاختبار وقال، «هل تعرفين أن بإمكان التوَتارا حمل الطفيليات ـ توا تحمل السالمونيلا، على سبيل المثال ـ لكنها لا تمرض أبدًا منها».

«لا أعرف الكثير عن التوَتارا».

«قليلون هم من يعرفون، وهو أمر مخزٍ حقًا، لأنها أكثر نوع مشوّق من السحليات على الإطلاق. نظرة فعلية إلى الماضي السحيق». واصلت النظر إلى دم التوَتارا.

«من الصعب علينا حتى تخيّل مدى نجاحها ـ التوَتارا موجودة منذ زمنٍ يتعدّى بألف مرة زمن وجود البشر. فكري في هذا فقط. لو وُجد الإنسان مذ وُجدت التوتارا لعنى ذلك أن البشر عاشوا في العشر الأول من بدايات تاريخنا، وتحديداً البدايات التي لا تتعدّى نسبة واحد في المئة من هذا التاريخ».

«يبدو هذا غير محتمل»، قلت.

«جدًا. هذا ما يحبّه السيد بيكيت عن توا ـ مدى نجاحها. يحبّ أنها وهي بعمر الأربعين ما زالت على الأرجح في أول ربع من حياتها».

«لهذا يترك أملاكه كلها لها؟»

«أستطيع التفكير في استخدامات أسوأ للثروة»، قال مالك.

لم أكن متأكّدة أنني أستطيع ذلك.

«لكنْ ما يدهشني أكثر، وهو موضوع بحثي الرئيسي، هو معدّل التطور الجزيئي لها. أعتذر إذا كان الموضوع مملًا». في الواقع، راقني الاستماع إليه. كان متحمسًا بشدّة، عيناه متّسعتان، وكأنه يحبّ عمله بحق. لا تلتقي الكثير من البالغين أمثاله.

«لا، إنه ممتع»، قلت.

مكتبة

«هل درستِ مادة الأحياء؟»

«أدرسها الآن»، قلت.

«حسنًا. إذن تعرفين ما هو الحمض النووي»، أومأت بنعم. «وتعرفين عن طفرة الحمض النووي؟ وهو الدافع وراء التنوّع في الحياة».

«نعم»، قلت.

«إذن انظري». توجّه نحو مجهرٍ موصول بكمبيوتر وعرض صورة لبقعة دائرية شيئًا ما على الشاشة «هذه خلية توَتارا. بحسب معلوماتنا، لم تتغيّر التوَتارا كثيرًا لأكثر من مئتي مليون سنة، حسنًا؟ تبدو مشابهة لبقاياها الأحفورية. والتوَتارا تفعل كل شيء ببطء. تنمو ببطء ـ لا تتوقّف عن النموّ حتى تبلغ الثلاثين. تتكاثر ببطء ـ تضع البيض مرة كل أربع سنوات. تمثيلها الغذائي بطيء جدًا. لكن برغم أنها تفعل كل شيء ببطء وبرغم أنها لم تتغير كثيرًا على مدى مئتي مليون عام، معدّل الطفرة الجزيئية لدى التوَتارا أسرع من أيّ نوع من الحيوانات».

«أي إنها تتطوّر أسرع؟»

«على مستوى جزيئيّ، نعم. تتطوّر أسرع من البشر أو الأسود أو ذبابة الطعام. ما يثير العديد من التساؤلات: هل تطوّرت جميع الحيوانات بهذا المعدل في فترة ما من الزمن؟ ما الذي حدث وأبطأ التطور الجزيئي؟ كيف يتغير الحيوان نفسه بمعدل منخفض بينما يطفر حمضه النووي بتلك السرعة؟»

«وهل تعرف الأجوبة؟»

ضحك. «لا لا لا. أنا أبعد ما أكون عن ذلك. ما أحبه عن العلوم

مكتبة

هو أنه أثناء تعلّمك، لا تحصلين على الأجوبة بالفعل. بل تتكوّن لديك أسئلة أفضل».

سمعت بابًا يُفتح ورائي. دايفيس. «فلم؟» سأل.

قلت لمالك شكرًا على الجولة، فقال، «في خدمتك في أي وقت. ربما في المرة المقبلة ستكونين مستعدّة للتربيت عليها».

ابتسمت. وقلت «أشك في هذا».

لم يحتضن أحدنا الآخر ولم نتبادل القبل أو أيّ شيء؛ فقط مشينا متجاورين على الطريق الرملي لفترة إلى أن قال، «وقع نوا في مشكلة في المدرسة اليوم».

«ماذا حدث؟»

«أعتقد أنهم اكتشفوا بعض الحشيش معه».

«يا إلهي، أنا آسفة. هل اعتقلوه؟»

«أوه لا، هم لا يُقحمون الشرطة بهذه الأمور». أردت أن أخبره أن الشرطة تُقحَم في أمور مشابهة في ثانوية النهر الأبيض، إلّا أنني صمتُّ. «لكنهم سيفصلونه مؤقتًا؟»

كان الجو من البرودة لدرجة أني رأيت البخار يتصاعد من فمي. «قد يعلّمه ذلك درسًا».

«لقد أُوقف مرتين من قبل، ولم يُساعده ذلك حتى الآن. أقصد، من يُحضر الحشيش إلى المدرسة وهو في الثالثة عشرة؟ وكأنه يقصد أن يقع في ورطة».

مكتبة

«أنا آسفة»، قلت.

«هو بحاجة إلى أب»، قال دايفيس. «حتى لو كان أبًا سيئًا. وليس بإمكاني ـ أعني، ليس لدي أدنى فكرة ماذا أفعل معه. حاول لايل التحدّث معه اليوم، لكن كانت إجابات نوا من مقطع واحد ـ حسنًا، نعم، ماذا، صحيح. من الواضح أنه يفتقد أبي، لكنني لا أستطيع فعل أي شيء إزاء ذلك. لايل ليس أباه. أنا لست أباه. على كلٍّ، أردت أن أفرّج عن نفسي فقط، وأنت الشخص الوحيد الذي أستطيع الحديث معه في الوقت الراهن».

لم تفتني كلمة الوحيد. شعرت بكفّي تبدأ بالتعرّق. «فلنشاهد ذلك الفلم»، قلت أخيرًا.

ونحن في صالة العرض، قال لي، «حاولت تذكّر أفلام فضاء قد تعجبك. هذا سخيف، لكنه رائع نوعًا ما. إذا لم يعجبك، تستطيعين اختيار الأفلام العشرة التي سنشاهدها بعد ذلك. اتفقنا؟»

«أكيد»، رددت. كان اسم الفلم «صعود جوبيتر»، وهو سخيف ورائع نوعًا ما في الوقت نفسه. بعد انقضاء دقائق معدودة، مددت يدي وأمسكت بيده، وشعرت بأن كل شيء على ما يُرام بل جميل، حتى. أحببت يديه والطريقة التي تشابكت بها أصابعه مع أصابعي، إبهامه ترسم دوائر صغيرة في البقعة الطرية بين إبهامي وإصبعي الشاهدة.

عندما وصل الفلم إلى أحد مقاطعه الحاسمة، ضحكت على شيء سخيف فقال، «هل يُعجبك الفلم؟»

فقلت، «نعم، هو سخيف لكنه رائع».

مكتبة

شعرت به يتأمّلني، فنظرت باتجاهه. «لست متأكّدًا أنني لا أسيء فهم ما يجري»، قال لي، والطريقة التي ابتسم بها جعلتني أريد تقبيله بشدّة. تشابُك يدينا كان جميلًا إلى حدّ لم أشعر به من قبل، وقد يكون تقبيله مختلفًا هذه المرة.

ملت على مسند الذراع الكبير بيننا وقبّلته بسرعة على شفتيه، وأحببت دفء فمه. أردت المزيد من ذلك، فرفعت يدي إلى خدّه وبدأت بتقبيله بالفعل الآن، وشعرت بفمه يُفتح، وأردت أن أكون معه مثل شخص طبيعي. أردت أن أشعر بالحميمية التي تدغدغ الدماغ والتي أشعر بها عندما أتبادل الرسائل النصية معه، وأحببت تقبيله. كان يجيد التقبيل.

إلّا أنّ الأفكار انهالت بعدها، وشعرت بلعابه حيًا في فمي. ابتعدت عنه برقة قدر ما استطعت.

«هل أنت على ما يُرام؟»

«نعم أجبته»، «نعم، تمامًا. فقط أريد أن..». كنت أحاول التفكير بما كان سيقوله شخص عادي، ربما إذا استطعت أن أقول وأفعل ما يقوله ويفعله الناس العاديون، فسيصدّق أنني شخص عادي، أو لربما أصبحتُ شخصًا عاديًا.

«نأخذ كل شيء ببطء أكثر؟» اقترح.

«نعم»، قلت. «نعم، تمامًا».

«حسنًا». أومأ باتجاه الفلم. «كنت أنتظر هذا المشهد. ستحبينه. الجنون بعينه».

مكتبة

هناك قصيدة لإدنا سانت فنسنت ميلاي ظلّت تتردّد في ذهني منذ قرأتها أول مرّة، تقول في مقطع منها، «هبّت من التلة المظلمة هناك إلى بابي / ثلاث ندفات، ثم وصلت أربع منها / وبعدها الكثير». بإمكانك عدّ أول ثلاث ندفات، ثم الرابعة. بعدها تخذلك اللغة، وعليك أن تثبت وتحاول البقاء حيًا بعد العاصفة الثلجية.

هذه هي حال أفكاري اللولبية الخانقة: فكرت في ميكروباته داخلي. فكرت في احتمال أنّ نسبةً ما من تلك البكتيريا كانت ضارة. فكرت في الإشريكية القولونية وبكتيريا العطيفة والتهاب القولون الغشائي الكاذب التي هي على الأرجح جزء مستمر من جراثيم دايفيس.

ثم حضرت فكرة أخرى. وبعدها الكثير.

«يجب أن أذهب إلى الحمام»، قلت له. «سأعود في الحال».

خرجت من القبو لأجد ضوء النهار المتناقص يسطع من النوافذ، جاعلًا الجدران البيض تبدو وردية قليلًا. نوا، من مكانه على الأريكة وانهماكه في لعبة الفيديو، قال، «آزا؟»

استدرت ودخلت الحمّام. غسلت وجهي، حدّقت إلى نفسي بالمرآة، أتأمّل نفسي أتنفّس. تأمّلت نفسي لفترة طويلة، أحاول إيجاد طريقة أُخرسها بها، أحاول إيجاد زرّ كتم المناجاة الفردية في داخلي، أحاول.

ثم أخرجت معقّم اليدين من معطفي وعصرت كمية منه في فمي. خنقني قليلًا وأنا أحاول المضمضة بالمادّة اللزجة اللاسعة في فمي، ثم ابتلعتها.

مكتبة

«تشاهدان صعود جوبيتر؟» سأل نوا عندما خرجتُ من الحمام.

«نعم».

«جميل». استدرت مغادرة، لكنه قال، «آزا؟» مشيت نحوه وجلست بجواره على الأريكة.

«لا أحد يريد العثور عليه». بادرني قائلًا.

«أبوك، تقصد؟»

«وكأنني لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر. أنا... إنه... هل تعتقدين أنه من الممكن أن يختفي حقًا ولا يبعث إلينا حتى برسائل نصية؟ هل تعتقدين أنه ربما يحاول التواصل معنا ولكننا لم نعثر على طريقة للاستماع إليه؟»

شعرت بالاستياء الشديد إزاء الصبي. «نعم، ربما»، قلت له. «أو ربما هو ينتظر فقط حتى يصبح كل شيء آمنًا».

«نعم»، قال نوا. «نعم، هذا يبدو منطقيًا. شكرًا». هممت بالوقوف عندما قال، «لكن ألم يكن بإمكانه إرسال بريد إلكتروني؟ لا يستطيعون تتبع ذلك إذا استخدمت واي فاي عامًا. ألم يكن بإمكانه إرسال رسالة نصية من هاتف يحصل عليه من مكان ما؟»

«قد يكون خائفًا»، قلت. كنت أحاول مساعدته، لكن قد لا تتوافر وسيلة للمساعدة.

«هل ستواصلين البحث برغم ذلك؟»

«نعم»، أجبته. «نعم، بالتأكيد يا نوا».

telegram @ktabpdf

مكتبة

مدّ يده ليلتقط جهاز التحكم في لعبة الفيديو، وهي إشارتي لأعود إلى القبو.

كان دايفيس قد أوقف الفِلم في وسط مشهد لمعركة بين سفن فضائية، فرأيت الضوء الساطع من الانفجار المعلّق معكوسًا على نظاراته عندما استدار نحوي. جلست جواره وسألني، «هل أنت بخير؟»

«أنا آسفة حقًا»، قلت له.

«هل هناك شيء أستطيع أن أفعله بصورة مختلفة ـ»

«لا، لا علاقة لك بالأمر. كل ما هناك أنني، فقط...لا أستطيع الحديث عن ذلك الآن». كان رأسي يدور، وكنت أحاول الاحتفاظ بفمي بعيدًا عنه حتى لا يشمّ رائحة معقّم اليدين على أنفاسي.

«حسنًا»، قال. «أنا أحبُّنا. أحب أنّ لنا طريقتنا الخاصة في فعل الأشياء».

«أنت لا تقصد ذلك».

«بلى». كنت أحدّق إلى شاشة الفلم المتوقّفة، في انتظار أن يواصل العرض. «سمعتك تتكلّمين مع نوا».

كنت لا أزال أشعر بلعابه في فمي، والراحة التي منحني إياها معقّم اليدين بدأت تتلاشى. إذا كنت لا أزال أشعر بلعابه، فلا بد أنه لا يزال موجودًا فيّ. قد تحتاجين إلى شرب المزيد من المعقّم. هذا سخيف. مليارات الأشخاص يتبادلون القبل، ولا يحدث لهم شيء. تعرفين أنك ستشعرين بأنك أفضل إذا شربت المزيد.

مكتبة

«هو بحاجة إلى رؤية شخص ما»، قلت. «طبيب نفسيّ أو شيءٍ من هذا القبيل».

«هو بحاجة إلى أب».

لماذا حتّى حاولت تقبيله؟ كان الأحرى بك أن تعرفي. كنت ستُمضين ليلة طبيعية، لكنك اخترت هذا! يجب أن أركّز على نوا الآن، لا عليّ. ميكروباته تسبح داخلك. ها هي على لسانك الآن. حتى الكحول الصافية ستعجز عن القضاء عليها كلها.

«هل تريدين مشاهدة الفلم؟»

أومأت بنعم، وجلسنا متجاورين، على مقربة لكن من دون أن نتلامس، ولساعةٍ تلت، ضاق اللولب وضاق.

مكتبة

١٥

بعد أن وصلت إلى المنزل ليلتها، ذهبت إلى سريري ولكنني لم أنم. واصلت الشروع في كتابة رسائل نصية له من دون أن أرسلها، حتى وضعت هاتفي في نهاية المطاف وأخرجت كمبيوتري المحمول. كنت أتساءل عمّا قد جرى لدايفيس أونلاين ـ أين ذهب بعد أن أغلق حساباته على منصّات التواصل الاجتماعي.

معظم نتائج البحث المتعلّقة بدايفيس على غوغل كانت عن أبيه ـ «الرئيس التنفيذي لشركة بيكيت الهندسية يكشف في مقابلة أنه لن يترك فلسًا واحدًا لولديه المراهقين»، إلخ. لم يحدّث دايفيس حسابه على إنستغرام، فيسبوك، تويتر، أو مدوّنته منذ حادثة الاختفاء، والبحث عن اسْمَي المستخدم الاثنين، dallgoodman وdavisnotdave02، أوصلني إلى روابط لأشخاص آخرين.

لهذا بدأت في البحث عن أسماء مستخدمين مشابهة:

مكتبة

dallgoodman02, davisnotdave, davisnotdavid، وخمّنت بعدئذٍ روابط فيسبوك والمدوّنات. وبعد أكثر من ساعة، بالكاد بعد منتصف الليل، خطر على بالي أن أبحث عن تعبير، «ذهبت أوراق الشجر وعليك أن تذهب أنت أيضًا».

ظهر رابط واحد، مدوّنة باسم المستخدم isnotid02. أُنشىء الموقع قبل شهرين، وشأنه شأن يوميات دايفيس السابقة، بدأت معظم الكتابات باقتباس من شخص آخر وانتهت بمقطع قصير مُبهم. إلّا أن هذا الموقع احتوى على شريط تبويب تحت اسم قصائد. ضغطت اليوميات وانتقلت إلى آخر الصفحة حتى وصلت إلى أول إدخال:

«بثلاث كلمات يمكنني اختصار كل شيء تعلّمته عن الحياة: الحياة تظل مستمرة».

ـ روبرت فروست

أربعة عشر يومًا منذ أن ابتدأت الفوضى. حياتي ليست أسوأ، بمعنى الكلمة ـ لكنها أضيق فقط. حدّق إلى الأعلى كفاية وستبدأ بإدراك مدى تناهيك في الصغر. الفرق بين أن تكون حيًا وألّا تكون ـ هذا أمر جلل. لكن من فوق، من حيث تراقبك النجوم، هناك بالكاد فرق بين تنوّعات الحياة، بيني وبين العشب المجزوز حديثًا الذي أتمدّد فوقه الآن. كلانا أعجوبة. أقرب شيء في الكون المعروف إلى المعجزة.

«ثم تحطّم لوح عقلاني / وهويت، هويت ـ»

ـإميلي ديكنسون

هناك نحو مئة مليار نجمة في درب التبانة ـ واحدة لكل

شخص عاش منذ الأزل، تقريبًا. كنت أفكر في ذلك تحت السماء. الليلة دافئة بغير أوانها، مشهد النجوم من أروع ما يكون من هنا. ثمة شيء يجعلني، كلّما نظرت إلى الأعلى، أشعر بأنني أهوي.

قبل قليل، سمعت أخي يبكي في غرفته، ووقفت بجوار الباب وقتًا طويلًا، وكنت أعرف أنه يعرف أنني هناك لأنه حاول أن يتوقّف عن النحيب عندما أنّت الأرضية الخشبية تحت وقع قدميّ، ووقفت هناك لأطول وقت، محدّقًا في بابه، غير قادر على فتحه.

«حتّى الصمت / عنده حكاية يقصّها عليك».

ـ جاكلين وودسون

أسوأ جزء من كونك وحيدًا بالفعل هو أنك تفكر في كل الأوقات التي تمنيت فيها أن يتركك الجميع. ثم يتركونك، وتبقى وحدك، وتكتشف أنك مع أسوأ صحبة.

«العالم كرة ـ كلّما أبحرت أبعد، اقتربت من مكانك أكثر».

ـ تيري براتشيت

أفتح خرائط غوغل أحيانًا وأكبّر أماكن عشوائية قد يكون موجودًا فيها. حضر س. الليلة الماضية ليتحدث معنا عما سيحدث الآن ـ ماذا سيحدث إن عُثر عليه، ماذا سيحدث إن لم يُعثر عليه ـ وفي مرحلة ما قال، «تدركان أنني لا أشير الآن إلى الشخص المعنوي لكن إلى الكيان القانوني». الكيان

مكتبة

القانوني هو ما يحلّق فوقنا، يخيّم على منزلنا. الشخص المعنوي موجود في تلك الخريطة في مكان ما.

«أحب العالم».

ـ موريس سينداك

نقول دائمًا إننا تحت النجوم. نحن لسنا تحتها بالتأكيد ـ ليس هناك فوق وتحت، وعلى أي حال النجوم تحيطنا. لكننا نقول إننا تحتها، وهو شيء جميل. اللغة الإنكليزية تمجّد الإنسان وترفعه عن الحيوان ـ لكن الإنكليزية تضعنا تحت النجوم، على الأقل.

وأخيرًا، ظهرت هي.

«كل ما جرى في الماضي ليس إلّا المقدّمة».

ـ وليام شكسبير

أن ترى ماضيك ـ أو شخصًا من ماضيك ـ قد يكون مؤلمًا جسديًا، على الأقل في نظري. يتملّكني ألم حزين ـ وأريد أن يعود الماضي، مهما كان الثمن. لا يَهمّ أنه لن يعود، أنه لم يحدث فعلًا كما أتذكّره ـ أريد منه أن يعود. أريد أن تعود الأشياء كما كانت، أو كما أتذكّر أنها كانت: كاملة. هي لا تُذكّرني بالماضي لسبب ما. هي تمثّل الحاضر.

التحديث التالي كُتب ليلة أعطاني النقود، وأكّد بدرجة أو بأخرى أنني هي.

مكتبة

«استيقظ، يا قلبي العزيز، استيقظ. لقد نمت جيدًا.

استيقظ».

ـ وليام شكسبير

أتساءل إن كنت قد دمّرت كل شيء. لكنني لو لم أفعل ما فعلت، لغرقت في احتمالاتٍ أخرى. الحياة سلسلة خيارات بين تساؤلات.

«الجزيرة تعج بالأصوات المزعجة».

ـ وليام شكسبير

فكرة، هل كانت ستحبني لو أني لست أنا، فكرة مستحيلة. تنثني على نفسها. لكن ما أعنيه هو هل كانت ستحبني لو أن الجسم ذاته والروح ذاتها نُقلا إلى كائن حيّ مختلف، إلى كائنٍ أقل؟ لكنني بالطبع لن أكون نفسي عندها. سأكون شخصًا آخر. الماضي فخ قد وقعت فيه. كابوس، قال ديدالوس، أحاول الاستيقاظ منه.

ثم أحدثُ إدخال:

«هذه العتمة / أعترف بأنها لي».

ـ وليام شكسبير

قالت، أكثر من مرة، إنّ وابلِ الشهب كان يحدث، وراء السماء المغيمة، حتى لو أننا لم نتمكّن من رؤيته. من يُبالي إذا كانت تستطيع التقبيل؟ إنها ترى عبر السحب.

مكتبة

لم ألاحظ إلّا بعد أن انتهيت من قراءة كلّ المدخلات في يومياته أن كتاباته عني ابتدأت كلها باقتباسات من مسرحية العاصفة. شعرت بأني أجتاح خصوصيته، لكنها كانت مدوّنة عامة، وقضاء وقت مع كتاباته جعلني أشعر بأنني أقضي وقتًا معه، وقتاً أقل إرعابًا. لهذا ضغطت قسم القصائد.

أول قصيدة:

خطوات أمي

كانت خافتة كثيرًا

بالكاد سمعتها تُغادر.

وأخرى:

يجب ألّا تترك الحقيقة تعيق طريق الجمال،

أو هذا ما ظنّه إي. إي كومينغ.

«هذه هي المعجزة التي تحافظ على السحب متباعدة».

هكذا كتب عن الحب والاشتياق.

أنا متأكّد أن ذلك جعله يطارح الغرام،

وهو الهدف الوحيد من وراء القصيدة.

لكن الجاذبية تختلف عن العاطفة:

إحداهما فقط ثابتة.

ثم أول قصيدة، كُتبت في اليوم نفسه مثل أول تحديث لليوميات، بعد اختفاء أبيه بأسبوعين.

مكتبة

حملني طوال حياتي –

رفعني، أخذني هنا وهناك، قال تعال معي. سآخذك. سنقضي وقتًا سعيدًا.

لم نفعل قط.

لا تدرك وزن الأب

حتى يُرفع عنك.

وأنا أعيد قراءة القصيدة، رنّ هاتفي. دايفيس. مرحبًا.

أنا: مرحبًا.

هو: هل تقرئين المدوّنة الآن؟

أنا: احتمال. هل تُمانع؟

هو: أنا سعيد لأنك من يفعل ذلك. التحليلات البيانية أشارت إلى أن شخصًا في إنديانا بوليس قضى ٣٠ دقيقة على الموقع. شعرت بالتوتر.

أنا: لماذا؟

هو: لا أريد أن تُنشر قصائدي الرديئة في الأخبار.

أنا: لن يفعل أحد بذلك. ثم توقّف عن القول إن قصائدك رديئة.

هو: كيف عثرت عليها؟

أنا: أجريت بحثًا عن «ذهبت أوراق الشجر وعليك أن تذهب

مكتبة

أيضًا». لن يفكر أي شخص آخر في البحث عن ذلك.

هو: أعتذر إذا بدوت مرعوبًا لكنني أحب الكتابة هناك ولا أريد أن أضطر إلى محوها.

هو: سرّتني رؤيتك الليلة.

أنا: نعم.

رأيت الـ   التي تعني أنه يكتب، لكن لم تظهر أيّ كلمات، لهذا بعد قليل كتبت له.

أنا: هل تريد أن نُجري محادثة فيديو؟

هو: بالتأكيد.

ارتجفت أصابعي قليلًا عندما ضغطت الزرّ لبدء محادثة فيديو. ظهر وجهه، رماديًا في ضوء هاتفه الشاحب، ووضعت إصبعي على فمي وهمست، «شششش»، فنظر أحدنا إلى الآخر بصمت، وجهانا اللذان بالكاد تتّضح معالمهما وجسمانا معكوسان في ضوء الشاشة الباهت، أكثر حميمية من أيّ شيء من الممكن أن أجرّبه في الحياة الفعلية.

وأنا أتأمّل وجهه يتأمّلني، أدركت أن الضوء الذي جعله مرئيًا لي انبعث على الأرجح من حلقة: شاشاتنا كانت تضيئنا بالضوء الآتي من غرفة نوم الآخر. كان بإمكاني رؤيته لأنه كان يستطيع رؤيتي. في الخوف والرغبة من كوننا متواجهين في تلك الإنارة المشوّشة، شعرت وكأنني لست في سريري بالفعل وأنه ليس في سريره. بل كنا معًا في

مكتبة

حيّز غير حسّي، وكأن كلًا منا داخل وعي الآخر، حميمية تعجز الحياة الفعلية بأجسامها الفعلية عن تحقيقها؟

بعد أن أنهينا المكالمة، بعث إلي برسالة. أحبّنا. بحقّ.

وصدّقته.

مكتبة

١٦

ولفترة وجيزة، وجدنا طرقًا نكون بها على سجيّتنا ـ نلتقي فعلًا بين حين وآخر، لكننا ثابرنا على إرسال الرسائل النصية وتبادل محادثات الفيديو كل ليلة تقريبًا. وجدنا طريقة نركب بها دولاب الهواء من دون أن نتحدّث عن ركوب دولاب الهواء. كنت أقع في الدوّامة اللولبية في بعض الأيام، لكنّ تغيير اللصقة الطبية ساعد شيئًا ما، وتمارين التنفّس والحبوب وكل شيء آخر.

واستمرت حياتي ـ قرأت كتبًا وأدّيت واجباتي المدرسية، قدّمت امتحاناتي وشاهدت التلفزيون مع أمي، التقيت ديزي عندما لم تكن مشغولة مع ميكال، قرأت وأعدت قراءة دليل الكليات وتخيّلت طيف صور المستقبل التي يعِد بها الدليل.

ثم، ذات ليلة، شعرت بالممل والاشتياق إلى الأيام التي كنت أنا وديزي نقضي فيها نصف حياتنا معًا في أبلبيز، قرأت قصصها عن حرب النجوم.

مكتبة

أحدث قصص ديزي، «راي الساخنة»، نُشرت قبل أسبوع. دُهشت عندما رأيت أنها قُرئت آلاف المرات. كانت ديزي بالفعل مشهورة.

تدور أحداث القصّة، التي تسردها راي، في تاتواين، حيث توقّف الحبيبان راي وتشوباكا لتسلّم شحنة من شخص اسمه كالكينو يبلغ طوله مترين ونصف متر تقريبًا. برفقة راي وتشوباكا فتاة بشعر أزرق اسمها آيالا، تصفها راي بأنها «صديقتي المقرّبة وعبئي الأكبر».

يلتقون كالكينو في حلبة سباق سيارات فضائية، حيث يقدّم كالكينو إلى الفريق مليوني نقطة مقابل نقلهم أربعة صناديق ليوتاباو.

«يراودني شعور غريب تجاه ذلك»، قالت آيالا.

قلّبت عينيّ. لم يكن بمقدور آيالا القيام بأي شيء بطريقة صحيحة. وكلّما قلقت أكثر، عقّدت كلّ شيء أكثر. لديها نزاهة فتاة لم تشعر بالجوع يومًا، تعلّق دائمًا على الطريقة التي اكتسبت بها أنا وتشوي معيشتنا من دون أن تلاحظ أن عملنا يوفّر لها الأكل والمأوى. تشوي مدينٌ لآيالا بحياته لأن أباها مات وهو يحاول إنقاذه قبل سنوات، وتشوي ووكي صاحب مبادئ حتى لو وقفت في طريقه. أمّا أخلاقيات آيالا، فكلها عن الراحة لأنّ الحياة السهلة هي الحياة التي تعرفها فقط.

تمتمت آيالا، «هذا خطأ». مدّت يدها إلى شعرها الأزرق وانتزعت خصلة منه ولفّتها حول إصبعها. عادة عصبية، لكنّ كل عاداتها الأخرى عصبية أيضًا.

واصلت القراءة، ومعدتي تتقلّص. كانت آيالا فظيعة. قاطعت تشوي وراي وهما يتعانقان على متن ميلينيوم فالكون بسؤال سخيف

مكتبة

عن الهايبر درايف، «كان بإمكان طفل بسن الخامسة بقدرات عادية حلّه». أتلفت الشحنة بفتحها لأحد الصناديق، ما كشف عن خلايا طاقة انبعثت منها كمية كبيرة من الطاقة كادت أن تفجّر السفينة. في نقطة ما، كتبت ديزي، «لم تكن آيالا شخصًا سيّئًا، لكنها فقط عديمة النفع».

انتهت القصة بتوصيل خلايا الطاقة بنجاح. لكن، ولأن الطاقة تسرّبت من إحداها عندما فتحت آيالا الصندوق، اكتشف من تسلّموا الشحنة أن أبطالنا البواسل قد رأوا محتوياتها، فوُضعت مكافأة لمن يقبض عليهم ـ أو هل يجدر بي أن أقول علينا ـ ما يعني أن المجازفات ستكون أعلى في قصة الأسبوع المقبل.

كانت هناك عشرات التعليقات. آخرها، «أحبّ أن أكره آيالا. شكرًا لأنك أعدتها». أجابت ديزي على ذلك التعليق بـ «شكرًا! شكرًا لقراءتك!»

قرأت القصص بترتيب عكسي واكتشفت كل الطرق السابقة التي أفسدت فيها آيالا الأمور لتشوي وراي. المرة الوحيدة التي فعلت فيها شيئًا جديرًا كانت، بعد أن تغلّب عليّ القلق، عندما تقيأت على كائن هت اسمه يانتوه، ما سبّب إلهاءً فوريًا سمح لتشوي بالإمساك بمسدس ناسف وإنقاذنا من موت محتوم.

سهرت حتى وقت متأخر بالقراءة، وبعدها فكرت في ما سأقوله لديزي صباح اليوم التالي، أفكاري تترنّح بين الغضب والخوف، تحلّق وتدور حول غرفتي مثل نسر مفترس. استيقظت صباح اليوم التالي يتملّكني

شعورٌ بأنني بائسة ـ لا متعبة فقط، لكن مرعوبة. رأيت نفسي الآن كما رأتني ديزي ـ جاهلة، بلا حيلة، عديمة النفع. أقل.

وأنا أقود إلى المدرسة، صداع رأسيّ قاتل أصابني من قلة النوم، تذكّرت كيف كنت أخاف من الوحوش أثناء طفولتي. عندما كنت صغيرة، كنت أعرف أن الوحوش ليست حقيقية. لكنني كنت أعرف أيضًا أنه من الممكن أن تؤذيني أشياء ليست حقيقية. عرفت أن الأشياء الوهمية لها أهميتها، وقد تقتلك. شعرت بذلك الإحساس مرة ثانية بعد قراءة قصص ديزي، وكأنّ شيئًا غير مرئي كان في طريقه إلي.

توقّعت أن رؤية ديزي ستغضبني، لكن عندما رأيتها بالفعل، تجلس على الدرج خارج المدرسة، ملتفّة بمعطفها للاحتماء من البرد، يدٌ بقفّاز تلوّح لي، شعرت بأنّ ـ بأنني أستحقّ ذلك، حقًا. أنّ آيالا كانت الشيء الذي اضطرت ديزي إلى فعله للتعايش معي.

وقفت عندما اقتربت. «هل أنت بخير يا هولمزي؟» سألت ديزي. أومأت بنعم. لم أستطع التفوّه بأي شيء. شعرت بحنجرتي تختنق، وكأنني على وشك أن أبكي.

«ما المشكلة؟» سألت.

«متعبة فقط»، قلت.

«هولمزي، لا تسيئي فهمي، لكنك تبدين وكأنك غادرت للتوّ وظيفتك حيث تعملين كغول في بيت مسكون، وتقفين الآن في موقف سيارات تحاولين الحصول على بعض الميثافيتامين».

«سأتأكّد من عدم إساءة فهمك».

مكتبة

وضعت ذراعها حولي. «أعني، ما زلت فاتنة، طبعًا. لا تستطيعين تغيير ذلك، يا هولمزي، مهما حاولت. لكنني أقول إنك بحاجة إلى القليل من النوم. اعتني بنفسك». أومأت لها وتخلّصت من ذراعها. «لم نقض الوقت معًا منذ الأزل أنا وأنت»، قالت. «ربما أستطيع الذهاب إليكِ لاحقًا؟»

أردت أن أقول لها لا، لكنني فكرت كيف أن آيالا قالت لا لكل شيء، ولم أرد أن أكون مثل شخصيتي الخيالية. «بالتأكيد».

«لديّ أنا وميكال ليلة الوظيفة المدرسية، لكن عندي ما يقارب المئة والاثنتين والأربعين دقيقة بعد المدرسة إذا توجّهت مباشرة إلى منزلك، وهي مدة عرض هجوم المُستنسَخين».

«ليلة الوظيفة المدرسية؟» سألت.

ظهر ميكال من ورائي وقال، «نقرأ حلم ليلة منتصف الصيف لمادة الأدب الإنكليزي».

«... هذا جدّيّ؟»

«ماذا؟» قالت ديزي. «ليس ذنبي أننا رائعان. لكن أولًا، عراك سيف يودا المضيء في منزلك بعد المدرسة. حسنًا؟»

«حسنًا».

«هو موعد إذن»، قالت.

بعد ستّ ساعات، تمدّدنا متجاورتين على الأرض، جسمانا مسنودان بوسائد الأريكة، وشاهدنا أناكين سكاي ووكر وبادمي يقعان في الحب

بحركة بطيئة جدًا. رأت ديزي أنّ هجوم المستنسخين أكثر فلم لم يتلقّ التقدير الكافي من أفلام حرب النجوم. ظننت أنه سيّىء، لكن كان من الممتع رؤية ديزي وهي تشاهده. فمها يتحرك مع كل سطر في الحوار، بكل معنى الكلمة.

كنت أنظر إلى هاتفي معظم الوقت، أتصفّح المواضيع عن اختفاء بيكيت، باحثة عن أي شيء يقود إلى العدّائين أو فم العدّاء. قصدت ما قلت عندما وعدت نوا بأنني سأستمرّ في البحث، إلّا أن الأدلة التي كانت بحوزتنا لم تبدُ كأدلة.

«أريد أن أحب جار جار، لأن كره جار جار أصبح مبتذلًا، لكنه الأسوأ»، قالت ديزي. «في الواقع، قتلته قبل سنوات في قصصي. كان شعورًا رائعًا». تقلّصت معدتي، لكنني ركّزت على هاتفي. «إلامَ تنظرين؟» سألت.

«أقرأ فقط التحقيق عن بيكيت، لأرى إن طرأ جديد. نوا متأثر جدًا بالأمر، وأنا... لا أعرف. أريد أن أساعده بطريقة ما».

«هولمزي، حصلنا على المكافأة. انتهى الأمر. مشكلتك أنك لا تعرفين عندما تفوزين».

«نعم»، قلت.

«أعطانا دايفيس المكافأة لننسى الموضوع. إذن، إنسي الموضوع».

«نعم، حسنًا»، قلت. كنت أعرف أنها محقّة، لكنها ليست بحاجة إلى أن تكون بغيضة هكذا.

مكتبة

ظننت أنّ الحوار انتهى، لكن بعد ثوانٍ معدودة، أوقفت الفلم وتابعت الحديث، «هذه ليست قصة تُصبح فيها الفتاة الفقيرة المعوزة ثرية ثم تدرك أن الحقيقة أهم من المال وتصبح بطلة بالعودة لكونها الفتاة الفقيرة المعوزة، حسنًا؟ أصبحت حياة الجميع أفضل مع اختفاء بيكيت. اتركي كل شيء على حاله».

«لن يأخذ أحد أموالك»، قلت بهدوء.

«أحبك يا هولمزي، لكن كوني ذكية».

«مفهوم»، قلت.

«وعد؟»

«نعم، أعدك».

«ونحن نحطّم الوجد ولا نخلف الوعد»، قالت.

«تقولين إنّ ذلك «شعارك»، لكنك تقضين تسعة وتسعين بالمئة من وقتك مع ميكال حاليًا».

«إلّا أنني الآن برفقتك أنت وجار جار بينكس»، قالت.

عدنا إلى مشاهدة الفلم. عندما انتهى، شدّت على ذراعي وقالت، «أحبك»، وغادرت مسرعة إلى منزل ميكال.

مكتبة

١٧

في وقت لاحق من تلك الليلة، وصلتني رسالة نصية من دايفيس.

هو: هل لديك وقت؟

أنا: نعم. هل تريد مكالمة فيديو؟

هو: هل أستطيع رؤيتك في الحياة الفعلية؟

أنا: أعتقد، لكنني أقل مرحًا في الحياة الفعلية.

هو: أحبك في الحياة الفعلية. الآن؟

أنا: الآن.

هو: ارتدي ملابس دافئة. الجو بارد في الخارج، والسماء صافية.

قُدتُ هارولد إلى مسكن آل بيكيت. هارولد لا يحب الجو البارد وبدا لي أنني أسمع شيئًا يئن في محرّكه، لكنه أوصلني بسلام. سيارتي المباركة.

مكتبة

شعرتُ بالبرد القارص وأنا أمشي من الممر إلى منزل دايفيس، برغم أنني أرتدي معطفي الشتويّ وقفّازاتي. لا تولي الطقس الكثير من الاهتمام عندما يكون معتدلًا، لكن متى أصبح باردًا لدرجة أنك تستطيع رؤية أنفاسك، فليس بإمكانك تجاهله. الطقس يقرّر متى تُفكر فيه، لا العكس.

وأنا أقترب، فُتح الباب الأمامي لي. كان دايفيس يجلس على الأريكة بجوار نوا، يلعبان لعبة الفيديو المفضّلة لهما عن صراع النجوم. «مرحبًا»، قلت.

«مرحبًا»، أجاب دايفيس.

«أهلًا»، أضاف نوا.

«اسمع، يا عزيزي»، قال دايفيس وهو يقف. «سأذهب للتمشي مع آزا قبل أن تنزع معطفها. سنعود بعد قليل، حسنًا؟» مدّ يده ونفش شعر نوا.

«حسنًا»، قال نوا.

«قرأت قصص ديزي»، أخبرته ونحن نمشي. لم يزل عشب ملعب الغولف مجزوزًا بإتقان، برغم أنّ لاعب الغولف الوحيد في العائلة قد اختفى منذ أشهر.

«إنها قصص بارعة، أليس كذلك؟»

«أعتقد. أزعجتني فظاعة آيالا».

«هي ليست سيئة. فقط قلقة».

مكتبة

«هي السبب وراء مئة بالمئة من المشاكل في القصص».

لامست كتفه كتفي بلطف. «أنا أحبها، لكن أظن أنني متحيّز بعض الشيء».

مشينا لفّة كاملة حول المسكن حتى وصلنا إلى بركة السباحة أخيرًا. لمس دايفيس زرًّا على هاتفه فأُزيح غطاء البركة. جلسنا على مقعدين متجاورين، وتأمّلت البخار المتصاعد من ماء البركة يعلو في الهواء البارد بينما تمدّد دايفيس لينظر إلى السماء. «لا أفهم لما يبقى منغلقًا على نفسه هكذا، في الوقت الذي تمتد فيه هذه اللانهاية ليتهاوى فيها».

«من؟»

«نوا». لاحظت أنه مدّ يده إلى جيب معطفه. أخرج شيئًا وقلّبه في كفّه. في بادئ الأمر، فكرت في أنه قلم، ثم حرّكه بإيقاع بين أصابعه، مثل ساحر يقلّب أوراق اللعب، أدركت أنه الرجل الحديدي. «لا تحكمي عليّ»، قال. «كان أسبوعًا صعبًا».

«أنا فقط لا أظن أن الرجل الحديدي خارق الـ ـ»

«إنك تحطّمين قلبي، يا آزا. هل ترين زُحل هناك؟» أستخدم الرجل الحديدي للإشارة وأخبرني كيف أستطيع تمييز الفرق بين كوكب ونجم، وأين تقع مجموعات النجوم المختلفة. وأخبرني أن مجرتنا لولبة ضخمة، حالها حال العديد من المجرات. «كل نجم نراه الآن موجود في تلك اللولبة. إنها هائلة الحجم».

«هل لها نقطة مركزية؟»

«نعم»، قال. «نعم، المجرة بأسرها تدور حول ثقب أسود هائل

مكتبة

الحجم. لكن ببطء شديد. أقصد، يستغرق نظامنا الشمسي مئتين وخمسة وعشرين مليون سنة أرضية للدوران حول المجرة».

سألته إن كانت الالتفاتات اللولبية للمجرة بلا نهاية، فقال لا، ثم سألني عن حالتي اللولبية.

أخبرته عن عالِم رياضيات اسمه كيرت غودل، كان يتملّكه خوف فظيع من أن يُسمّم، لدرجة أنه لم يستطع تناول الطعام إلا إذا أعدّته زوجته. وذات يوم مرضت زوجته واضطرت للذهاب إلى المستشفى، فتوقّف غودل عن الأكل. أخبرت دايفيس كيف أنه برغم أنّ غودل كان يُدرك بالتأكيد أن الجوع أكبر خطرًا من التسمّم، إلا أنه لم يستطع تناول الطعام، وتضوّر جوعًا حتى الموت. بعمر الواحد والسبعين. عاش مع شيطانه واحدًا وسبعين عامًا، وتغلّب الشيطان عليه في النهاية.

بعد أن انتهيت من القصة، سألني، «هل تخافين أن يحدث ذلك لك؟»

قلت، «إنه أمر غريب جدًا، أن تعرف أنك مجنون ولا تستطيع فعل أي شيء إزاء ذلك. أنت لا تعتقد أنك طبيعي، بل تعرف أن هناك مشكلة. لكنك لا تستطيع إيجاد طريقة لإصلاحها. لأنك لا تستطيع التأكّد. إذا كنت غودل، فلن تستطيع التأكد أن طعامك غير مسمّم».

«هل تخافين أن يحدث ذلك لك؟» سأل ثانية.

«أخاف من أشياء كثيرة».

تحدّثنا وقتًا طويلًا حتى إنّ النجوم تحركت فوقنا، إلى أن سألني أخيرًا، «هل تريدين السباحة؟»

مكتبة

«الطقس بارد»، قلت.

«البركة ساخنة»، أجاب. وقف ونزع قميصه، ثم خلع بنطلونه الجينز وأنا أنظر. أعجبتني مشاهدته يخلع بنطلونه. كان نحيلًا لكنني أحببت جسمه ـ عضلات ظهره الصغيرة، ساقاه بشعرهما الواقف من البرد. قفز في الماء وهو يرتجف. «رائع»، قال.

«ليس عندي زيّ سباحة».

«إن كنت ترتدين ملابس داخلية، فذلك زي سباحة». ضحكت وخلعت معطفي، ثم وقفت.

«هل تُمانع أن تستدير؟» سألته. استدار نحو مربى الحيوانات بإنارته الخفيفة، حيث كانت مليارديرة المستقبل مختبئة في مكان ما في غابتها الاصطناعية.

خلعت بنطلوني الجينز ونزعت قميصي. شعرت بأنني عارية برغم أنني لم أكن كذلك فعلًا، إلّا أنني وضعت ذراعي على جنبيّ وقلت، «حسنًا، تستطيع النظر». نزلت في دفء البركة بجواره؛ أحاط وسطي بيديه تحت الماء، لكنه لم يحاول تقبيلي.

كان مربى الحيوانات خلفه، والآن، بعد أن اعتادت عيناي الظلام، تمكّنت من رؤية التوَتارا على غصن، محدّقة فينا بعين سوداء محمرّة. «توا تراقبنا»، قلت.

«هي عديمة الأخلاق»، أجاب دايفيس، ثم استدار لينظر إليها. كان هناك طحلب أصفر ينمو على جلدها الأخضر، واستطعت رؤية أسنانها وهي تتنفّس وفمها مفتوح قليلًا. ذيلها الصغير الأشبه بذيول

مكتبة

التماسيح تحرك فجأة، فجفل دايفيس، مال باتجاهي، وضحك. «أكره ذلك الشيء»، قال.

كنت متجمّدة عندما غادرنا المسبح. لم يكن لدينا أي مناشف لهذا حملنا ملابسنا على ذراعينا وركضنا نحو المنزل، حيث لا يزال نوا على الأريكة يلعب اللعبة ذاتها. مشيت حوله وركضت مسرعة على الدرج الرخامي.

بعد أن ارتدينا ملابسنا، ذهبنا إلى غرفة دايفيس. وضع الرجل الحديدي على طاولة السرير الجانبية، ثم جلس ليريني كيف يعمل التلسكوب. أوصل بعض التوجيهات في جهاز التحكم عن بعد، فتحرّك التلسكوب وحده. عندما توقّف، انحنى دايفيس لينظر في العدسة، ثم أخلى الطريق لي.

«هذا نجم تاو قيطس»، قال. أعاقتني طريقة تركيز عدسة التلسكوب عن رؤية أي شيء سوى الظلام وقرص ضوء أبيض مرتجّ. «على بُعد اثنتي عشرة سنة ضوئية، يشبه شمسنا لكنه أصغر قليلًا. اثنان من كواكبه قد يكونان صالحين للمعيشة في الواقع ـ على الأرجح أنهما ليسا كذلك، لكن ربما. إنه نجمي المفضل». لم أعرف ما الذي كان من المفروض أن أراه ـ كان فقط دائرة مثل غيرها. لكنه فسّر بعد ذلك.

«أحبّ أن أنظر إليه وأفكر كيف يبدو ضوء الشمس لشخص في نظام تاو قيطس الشمسي. حاليًا، هم يرون ضوءنا من قبل اثنتي عشْرة سنة ـ في الضوء الذي يرونه، لا يزال لدى أمي ثلاث سنوات من الحياة. انتهى بناء هذا المنزل عن قريب، وأمي وأبي يتشاجران دائمًا

مكتبة

بشأن تصميم المطبخ. في الضوء الذي يرونه، أنت وأنا ما زلنا طفلين. لا يزال أفضل ما في حياتنا وأسوؤه أمامنا».

«لا يزال الأفضل والأسوأ أمامنا»، قلت.

«أتمنّى ألّا يكون ذلك صحيحًا»، قال. «بالتأكيد أتمنّى أن يكون أسوأ شيء ورائي».

رفعت بصري عن ضوء تاو قيطس ذي الاثنتي عشرة سنة ونظرت إلى دايفيس. أمسكت يده وجزء مني أراد أن يقول له إنني أحبه، لكنني لم أكن متأكدة أنني أحبه بالفعل. كان قلبانا محطّمين في الأماكن نفسها. هذا شيء أشبه بالحب، لكنه ليس الشيء ذاته ربما.

من المؤلم أن يكون هناك شخص ميّت في عائلتك، كنت أعرف ما كان يعنيه دايفيس، عن البحث عن السلوان في ضوء قديم. بعد ثلاث سنوات من الوقت الحالي، عرفت، سيجد نجمًا مفضّلًا آخر، واحدًا بضوء أقدم يحدّق إليه. وبعد أن ينتهي وقت ذلك النجم، سيحب نجمًا أبعد، ونجمًا أبعد، لأنك لا تستطيع أن تترك الضوء يصل إلى الحاضر، وإلّا فستنسى.

لهذا السبب كنت أحب النظر إلى صور أبي. الشيء نفسه، بالفعل. الصور ليست سوى ضوءٍ ووقتٍ.

«يجب أن أغادر»، قلت بهدوء.

«هل أستطيع رؤيتك في عطلة نهاية الأسبوع؟»

«نعم»، أجبته.

مكتبة

«هل نستطيع قضاء الوقت في بيتك في المرة المقبلة، ربما؟»

«بالتأكيد»، قلت. «إذا كنت لا تمانع مضايقات أمي».

أكّد لي أنه لا يُمانع، ثم احتضنني مودّعًا، وبينما تركته وحيدًا في غرفته، جلس أمام التلسكوب.

مكتبة الرمحي أحمد

عندما عدتُ إلى المنزل ليلتها، قلت لأمي إن دايفيس يريد المجيء في عطلة نهاية الأسبوع. «هل هو صديقك الحميم؟» سألتني.

«أعتقد ذلك»، قلت.

«يحترمك كشخص مساوٍ له؟»

«نعم».

«يصغي إليك كما تُصغين إليه؟»

«أنا لا أتحدث كثيرًا. لكن نعم. هو يصغي إليّ. إنه لطيف جدًا جدًا، كما أن عليك الثقة بي في مرحلة ما، تعرفين ذلك».

تنهّدتْ. «كل ما أريده في هذا العالم هو أن أحافظ عليك. أحافظ عليك من الأذى، أحافظ عليك من الضغوط، كل ذلك». احتضنتها قائلًا «تعرفين أنني أحبك».

ابتسمت. «نعم، أعرف ماما. أعرف أنك تحبينني. لا داعي إلى القلق أبدًا من هذه الناحية».

بعد الذهاب إلى السرير ليلتها، تصفّحت مدوّنة دايفيس.

مكتبة

«يراودك الشك أن النجوم مشتعلة / يراودك الشك أن الشمس تتحرّك».

ـ وليام شكسبير

هي لا تتحرّك طبعًا ـ بل تفعل، لكن ليس حولنا. حتى شكسبير افترض الحقائق الأساسية عن المسلّمات التي تبيّن لاحقًا أنها خاطئة. من يعرف ما هي الأكاذيب التي أصدّقها، أو تصدّقها أنت. من يعرف ما علينا أن نشك فيه.

الليلة، تحت السماء، سألتني، «لمَ تحمل كل التحديثات عني مقتبسات من العاصفة؟ هل لأننا في حطام سفينة؟».

نعم. نعم، لأننا في حطام سفينة.

ضغطت زرّ التحديث بعد الانتهاء من القراءة، تحسّبًا، ووجدت تحديثًا جديدًا، جرت إضافته قبل دقائق.

«هناك تعبير في الموسيقى الكلاسيكية يقول، «ذهبنا إلى المرج». هو للأمسيات التي يُمكن وصفها بتلك الطريقة فقط: لم تكن هناك جدران، لم تكن هناك حاملات للنوتات الموسيقية، لم تكن هناك حتى آلات. لا سقف، لا أرض. ذهبنا جميعًا إلى المرج. تعبير يصف شعورًا».

ـ توم ويتس

أعرف أنها تقرأ هذا الآن (مرحبًا.) شعرت بأننا ذهبنا إلى المرج الليلة، فضلًا عن أننا لم نكن نعزف الموسيقى. في أفضل المحادثات، لا تتذكّر حتى عمّا تحدّثت. تذكّر

مكتبة

الإحساس فقط. كنا كأننا لم نكن هناك، متمدّدين بجوار المسبح. كنا كأننا في مكان لا يزوره الجسد، مكان بلا سقف ولا حيطان ولا أرض ولا آلات.

كان من الأحرى أن تنتهي الليلة كذلك. لكن بدلًا من أن أنام، قررت أن أعذّب نفسي بقراءة المزيد من قصص آيالا.

لم أفهم كيف بإمكان دايفيس أن يحبّها. كانت فظيعة ـ تركّز على نفسها تمامًا ومزعجة طوال الوقت. في أحد المشاهد أثناء حفلة، علّقت راي، «بالطبع، عندما تكون آيالا موجودة، لا تكون الحفلة حفلة بالفعل، لأن الناس يشعرون بالسعادة في الحفلات».

أخيرًا، غادرت الموقع لكنني لم أتمكّن من إغلاق كمبيوتري والنوم. بدلًا من ذلك، انتهيت على ويكيبيديا، أقرأ روايات الهواة عن حرب النجوم، ثم وجدت نفسي أقرأ المقالات نفسها القديمة عن الميكروبات البشرية والدراسات التي جرت حول بنية الناس الميكروبية وكيف أثّرت في تكوينهم، وفي بعض الحالات، قتلتهم.

في نقطة ما، وجدت هذه الجملة: «يستقبل عقل الثدييات تيارًا متواصلًا من المدخلات الاستباقية من الجهاز الهضمي، التي تُدمج مع معلومات استباقية أخرى من داخل الجسم ومعلومات سياقية من البيئة قبل أن ترسل ردًا مُدمجًا إلى الخلايا المستهدفة داخل الجهاز الهضمي بواسطة ما يُسمّى عادةً «محور معلومات المخ والأمعاء» الذي يجدر أن يُسمى «دورة معلومات المخّ والأمعاء».

كنت أدرك أنها ليست جملة تُرعب كيان معظم الناس، لكنني

مكتبة

تجمّدت ذعرًا. كانت تقول إن ميكروباتي تؤثر في تفكيري ـ ربما ليس بطريقة مباشرة، لكن عبر المعلومات التي ترسلها معدتي إلى مخّي. قد لا تكون هذه الفكرة في رأسكِ أنتِ الآن. قد يكون تفكيرك ملوّثًا. كان الأحرى بي ألّا أقرأ هذه المقالات. كان الأحرى بي أن أنام. فات الأوان الآن.

نظرت إلى الضوء تحت الباب لأتأكّد أنّ أمي نائمة ثم تسلّلت إلى الحمّام. غيّرت اللصقة الطبية، وفحصت اللصقة القديمة بعناية. كان هناك دم. ليس كثيرًا، لكنه دم. ورديّ فاتح. ليس ملتهبًا. ينزف لأن القشرة لم تتكوّن عليه. لكنه قد يكون ملتهبًا. ليس ملتهبًا. هل أنت متأكدة؟ هل نظفته هذا الصباح فعلاً؟ على الأرجح. أنا أنظّفه دائمًا. هل أنت متأكّدة؟ بحقّ السماء.

غسلت يدي، وضعت لصقة جديدة، لكنني كنت أُسحب إلى القعر الآن. فتحت خزانة الدواء بهدوء. أخرجت معقّم اليدين برائحة صبّار الألو، بلعت مرة. ثم ابتلعت ثانية. شعرت بدوار. يجب ألّا تفعلي ذلك. هذه كحول صافية. ستجعلك تتقيّئين. من الأفضل أن تعيدي الكرّة. سكبت المزيد على لساني. يكفي. ستنظفين بعد هذا. ابلعيه مرة أخرى فقط. سمعت معدتي تتقلّب. معدتي تؤلم.

تتخلّصين أحيانًا من البكتيريا الحميدة وعندها يبدأ التهاب القولون الغشائي الكاذب. عليك الانتباه لذلك. عظيم، تقولين لي اشربيه، ثم تقولين لي ألّا أشربه.

في غرفتي، أتعرّق فوق الأغطية، جسمي بارد ورطب، مثل جثّة. لا أستطيع التفكير باعتدال. شرب معقّم اليدين لن يحسّن صحّتك يا

مكتبة

مجنونة. لكنها تستطيع الحديث مع مخّك. تستطيع إملاء الأفكار على مخّك، وأنت لا تستطيعين ذلك. فمن الذي يُدير العرض إذن؟ كفى، أرجوكِ.

حاولت ألّا أفكر في الفكرة، لكن مثل كلب مربوط، كان بإمكاني الابتعاد عنها قليلًا قبل أن أشعر بطوقها الخانق حول رقبتي. معدتي قرقرت.

لم يُجدِ أي شيء. حتى الاستسلام للفكرة، منحني لحظة عِتق. عدت إلى سؤالٍ طرحته عليّ د. سينغ أول مرة قبل سنوات، أول مرة تردّيت إلى هذا المستوى: هل تشعرين بأنك تمثلين خطرًا على نفسك؟ لكن أيهما الخطر وأيهما النفس؟ لستُ لا أمثّل خطرًا، لكنني لم أستطع تحديد على من أو ماذا، ضمائر الجملة والأسماء مغبشّة من غموضها التجريدي، الكلمات مسحوبة نحو قعر غير لغوي. أنت نحن. أنت أنت. أنت هي، شيء، هم. كل ما لديّ مقابل أنا واحدة.

شعرت بنفسي أنزلق، لكن هذا أيضًا مجاز. أهوي، لكنه مجاز آخر. لا أستطيع وصف الشعور نفسه؛ كل ما أستطيعه هو أن أقول إنني لست أنا. خُلقتُ في فكر شخص آخر. أمزجي عني، أرجوكِ. يا من تكتبينني، أمزجي عني من هذا. أيّ شيء لأخرج من هذا.

لكنني لم أستطع الخروج.

ثلاث ندفات، ثم أربع، سقطت.

ثم أكثر بكثير.

مكتبة

١٨

أيقظتني أمي الساعة السادسة والخمسين دقيقة. «نمت ولم تسمعي المنبّه؟» سألت.

أغمضت عينيّ نصف إغماضة. كانت غرفتي لا تزال مظلمة. «أنا بخير»، قلت لها.

«هل أنت متأكدة؟»

«نعم»، أجبتها، ودفعت نفسي لمغادرة السرير.

وصلتُ إلى المدرسة بعد اثنتين وثلاثين دقيقة فقط. لم أبدُ بأفضل هيئة، لكنني منذ فترة ما عُدتُ آبه لترك انطباع حسن لدى أي شخص في ثانوية النهر الأبيض.

كانت ديزي تجلس وحيدة على الدرج الأمامي. «تبدين نعسانة»، قالت لي عندما وصلت عندها. كان الجو مغيّمًا، أحد الأيام التي تصبح فيها الشمس افتراضًا فقط.

«كانت ليلة طويلة. كيف حالك؟»

مكتبة

«بخير، إلّا أنني لا أرى صديقتي المفضّلة كفاية أخيرًا. هل تريدين أن نلتقي لاحقًا؟ أبلبيز؟»

«بالتأكيد»، قلت لها.

«كما أنّ أمي استعارت سيارتي، فهل نستطيع الذهاب معًا؟»

تجاوزتُ فترة الغداء، ولقاء أمي المعتاد بعد الغداء وقلقها إزاء «عينيّ المرهقتين»، تجاوزت حصتَي التاريخ والإحصاء. في كل غرفة، غمرت الإضاءة البيضاء المميتة كل شيء بغشاء من المرض، ومرّ اليوم ببطء شديد حتى رنّ الجرس ليعتقني أخيرًا. وصلت إلى هارولد، جلست في مقعد السائق وانتظرت ديزي.

مؤخراً، لم أنل قسطًا كافيًا من النوم. لم أكن أفكر بوضوح. المعقّم كحول خالصة؛ لا تستطيعين الاستمرار في شربه. الأحرى بي أن أهاتف د. سينغ، لكنّ ذلك يعني أنك ستضطرين إلى التحدّث مع جهاز الردّ الآلي وإخبار شخص غريب أنك مجنونة. لا أستطيع تحمّل فكرة اتصال د. سينغ للرد، بصوت تشوبه الشفقة، لتسأل إن كنت أتناول دوائي كل يوم. ليس مجديًا على أي حال. لا شيء يُجدي. ثلاثة أدوية مختلفة وخمس سنوات من العلاج السلوكي المعرفي، وانظري أين انتهينا.

قفزت مستيقظة على صوت ديزي تفتح الباب الجانبي. «هل أنت بخير؟» سألت.

«نعم»، أجبتها. أدرت محرّك السيارة. شعرت بعمودي الفقري يستقيم. أخرجت السيارة من موقفها وانتظرت الدور حتى أغادر ساحة

مكتبة

المدرسة. «بالكاد حتى غيّرتِ اسمي»، قلت. بدا لصوتي صرير حاد، لكنني كنت أحاول العثور عليه.

«هاه؟»

آيالا. آزا. بداية الأبجدية إلى النهاية ثم العودة إلى البداية. أعطيتها دوافع قسرية. أعطيتها شخصيتي. أيّ شخص يقرأها سيعرف مشاعرك تجاهي. ميكال. دايفيس. أيّ شخص في المدرسة، ربما».

«آزا»، قالت ديزي. شعرت بأن لاسمي الحقيقي رنّة خطأ في صوتها. «أنت لست ـ»

«أوه، اخرسي».

«أنا أكتب هذه القصص منذ كنت في الحادية عشرة، ولم تقرئي يومًا حتى قصة واحدة».

«لم تطلبي مني ذلك يومًا».

«أولًا، طلبت منك. أكثر من مرة. ثم تعبت منك تقولين إنك قرأتِها من دون أن تفعلي. ثانيًا، يجب حتّى ألّا أطلب منك. بإمكانك التوقّف ثلاث ثوان عن سرحانك اللعين حول نفسك للتفكير في اهتمامات الغير. خلقت شخصية آيالا في الصف السابع. وكانت حركة بائسة، لكنها شخصيتها الخاصة الآن. هي ليست أنتِ، حسنًا؟» كنا ما زلنا نتحرك ببطء داخل موقف سيارات الطلاب. «أقصد، أنا أحبك، والذنب ليس ذنبك، إلّا أن قلقك أشبه بدعوة مفتوحة إلى الكوارث».

أخيرًا غادرت الحرم المدرسي وتوجّهت شمالًا على ميريديان باتجاه الطريق السريع. استمرت هي في الحديث، طبعًا. دائمًا تفعل.

مكتبة

«آسفة، حسنًا؟ كان يجب ألّا أترك آيالا تموت قبل سنوات. لكن، نعم، أنت محقة. إنها طريقة للتعامل مع ـ أقصد، هولمزي، أنت مُرهِقة».

«نعم، فكلُّ ما جنيتِه من صداقتنا في الشهرين الأخيرين خمسون ألف دولار وصديق. أنت على حق، أنا فظيعة. كيف تصفينني في القصة؟ عديمة الفائدة. أنا عديمة الفائدة».

«آزا، هي ليست أنت. لكنّك... أنانية بشدّة. أعرف أنّ لديك مشاكل عقلية وأشياء من هذا القبيل، لكنها تجعلك... تعرفين».

«في الواقع لا أعرف. تجعلني ماذا؟»

«ميكال قال ذات مرة إنك أشبه بالخردل. رائعة بكميات قليلة، لكنّ الكثير منك... كثير».

لم أقل أيّ شيء.

«آسفة. كان يجب ألّا أقول ذلك».

كنا متوقفتين عند ضوء أحمر وعندما تحوّل إلى الأخضر، لم أكن لطيفة على دعّاسة بنزين هارولد. شعرت بالحرارة في وجنتيّ، لكنني لم أعرف إن كنت على وشك أن أبكي أو أصرخ. واصلت ديزي الحديث. «لكنك تعرفين ما أقصد. أعني، ما اسم أمي وأبي؟»

لم أجب. لم أكن أعرف الإجابة. أخذتُ نفسًا عميقًا في محاولة مني لتهدئة دقّات قلبي في صدري. لا أحتاج من ديزي إلى أن توضح لي أنني شخص فظيع. أنا أعرف ذلك.

«ماذا يعملان؟ متى كانت آخر مرة زرتني فيها في شقتي ـ قبل خمس سنوات؟ من المفروض أننا صديقتان مقرّبتان يا هولمزي، لكنك

مكتبة

لا تعرفين حتى إن كان عندي حيوانات أليفة. ليس لديك أدنى فكرة عمّا أمر به، وأنت، ينقصك الفضول بطريقة مرضية لدرجة أنك لا تعرفين ما لا تعرفينه».

«لديك قطّة»، همست.

«ليس لديك أدنى فكرة. كل شيء سهل لك. تعتقدين أنك وأمك فقيرتان، لكنك قوّمتِ أسنانك مثلًا. لديك سيارة وكمبيوتر محمول، وتعتقدين أن ذلك من المسلّمات. تعتقدين أن امتلاك بيت لك فيه غرفتك الخاصة وأن يكون لك أم تساعدك على تأدية الواجب أمر عادي. لا تظنين أنك تتمتعين بأي امتيازات، لكن لديك كل شيء. أتشارك غرفة مع أختي المزعجة ذات الثماني سنوات التي لا تعرفين اسمها ثم تحكمين عليّ لشراء سيارة بدل توفير المال كله للكلية، لكنك لا تعرفين. تريدين مني أن أكون بطلة غير أنانية لا تكترث للمال، لكن هذا هراء يا هولمزي. الفقر لا يُنقّيكِ أو أيّ شيء من هذا الهراء. إنه فظيع. أنت لا تعرفين حياتي. لم تجدي الوقت الكافي لتعرفي، ولا يجدر بك أن تحكمي عليّ».

«اسمها 'إلينا'»، قلت بهدوء.

«تظنين أن الدنيا قاسية عليك وأنا متأكّدة أن ذلك من داخل رأسك، لكن... ليس بمقدورك أن تفهمي، لأن امتيازاتك أوكسجين لك. فكّرت في أن النقود، فكرت في أنها ستجعلنا متشابهتين. طوال عمري وأنا أحاول مواكبتك، أحاول الكتابة على هاتفي بالسرعة نفسها التي تطبعين بها على كمبيوترك، واعتقدت أن المال سيقرّبنا أكثر، لكنه جعلني أشعر... بأنك مدلّلة. لأنه كان بحوزتك طوال الوقت، ولا

تدركين كيف يجعل كل شيء أسهل، لأنك لا تفكرين أبدًا في حياة أيّ شخص آخر».

شعرت بأنني على وشْك أن أتقيّأ. وصلنا إلى الطريق السريع. كان رأسي يترنّح ـ كرهت نفسي، كرهتها، فكّرتُ في أنها محقّة ومخطئة، فكرت في أنني أستحقّ ذلك ولا أستحقّه.

«هل تظنين أنّ الأمور سهلة لي؟»

«لا أقصد ـ»

التفتُّ لها وقلت. «اخرسي بحقّ السماء. يا إلهي، لم تخرسي منذ عشر سنوات. آسفة لأن قضاء الوقت معي ليس ممتعًا لأنني سجينة داخل رأسي، لكن تخيّلي ما يعنيه أن أكون بالفعل سجينة داخل رأسي ولا وسيلة للخروج، لا طريقة للاستراحة منه أبدًا، لأن هذه حياتي. فلأستخدم تشبيه ميكال الذكي، تخيّلي تناول لا شيء سوى الخردل، أن تُجبري على تناول الخردل طوال الوقت وما دمت تكرهينني لهذه الدرجة فلا تطلبي مني أن ـ»

«هولمزي!» صرخت، لكن بعد أن فات الأوان. رفعت رأسي لأدرك أنني واصلت الإسراع بينما تباطأت حركة المرور. لم أتمكّن من وضع قدمي على المكابح قبل أن نصطدم بسيارة رباعية الدفع أمامنا. بعد لحظة، ارتطم بنا شيءٌ من الخلف. صوت عجلات. أبواق. اصطدام آخر، أصغر هذه المرة. ثم صمت.

حاولت التقاط أنفاسي، لكنني لم أستطِع، لأن كل نفَس كان مؤلمًا.

أطلقت شتيمة، لكنها صدرت منّي مثل آآآآآآه. مددت يدي إلى

مكتبة

الباب فأدركت أنّ حزام الأمان ما زال مُحكمًا. نظرت إلى ديزي التي كانت تُحدّق فيّ. «هل أنت بخير!» صرختْ. انتبهت إلى أنني كنت أتأوّه مع كل زفير. طنينٌ في أذنيّ. «نعم»، قلت. «وأنت؟» جعلني الألم أشعر بدوار. خيمت الظلمة على حافة بصري. «أعتقد ذلك»، قالت. ضاق العالم وأصبح نفقًا وأنا أحاول التنفّس. «ابقي في السيارة يا هولمزي. أنت مُصابة. هل هاتفك معك؟ يجب أن نتصل بالنجدة. ٩١١».

الهاتف. أزحت حزام الأمام ودفعت الباب مفتوحًا. حاولت الوقوف، إلّا أن الألم أعادني إلى مقعد هارولد. اللعنة. هارولد. ركعت امرأة ترتدي بدلة على مستوى عينيّ. قالت لي ألّا أتحرّك، لكن كان عليّ أن أفعل. رفعت نفسي، وأعماني الألم دقيقة، ثم تلاشت البقع السود واستطعت رؤية الدمار حولي.

كان صندوق هارولد الخلفي محطّمًا شأنه شأن مقدّمته ـ كان شكله مثل تحليل لمقياس رصد الزلازل، ما عدا مقصورة الركاب، التي كانت سليمة تمامًا. هارولد لم يخيّب ظني يومًا حتى عندما خيّبت ظنه.

استندت إلى جانب هارولد وأنا أترنّح متوجّهة إلى صندوقه. حاولت رفع باب الصندوق لكنه كان محطّمًا. بدأت أضرب على الصندوق بيدي، وأصرخ بأعلى صوتي، «اللعنة، أو يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي، لقد تحطّم تمامًا».

«هل أنت جادة»، قالت ديزي وهي تمشي باتجاه خلفيّة هارولد.

مكتبة

«أنت مستاءة بشأن السيارة اللعينة؟ إنها سيارة، يا هولمزي. كدت أن تموتي، ولكنك مستاءة بشأن سيارتك؟»

ضربت على الصندوق ثانية، حتى سقطت لوحة هارولد، لكنني لم أستطع فتحه.

«هل تبكين على السيارة؟»

رأيت المقبض؛ لكنني لم أستطِع فتح الصندوق، وكلّما حاولت رفعه، أعماني الألم في أضلاعي. تمكّنت من فتح الصندوق في النهاية بدرجة تكفي أن أمد ذراعي داخله. تلمّست بيدي حتى وجدت هاتف أبي. كانت الشاشة محطّمة.

ضغطتُ زرّ التشغيل، لكن لم ينبعث من شاشته المشروخة وكأنها أغصان سوى ضوء رمادي قاتم. جررت نفسي إلى الجانب الأيسر من هارولد ورميت نفسي في مقعد السائق، جبهتي على عجلة القيادة.

كنت أعرف أن الصور محفوظة، وأنني لم أفقد أيًا منها. لكنه كان هاتفه. أمسكه بيديه، تحدث عليه. التقط صورًا به.

مرّرت إبهامي على الزجاج المكسور وبكيت حتى شعرت بيدٍ على كتفي. «اسمي فرانكلن. لقد أُصبتِ في حادث سيارة. أنا رجل مطافئ. حاولي عدم الحركة. هناك سيارة إسعاف في طريقها إلى هنا. ما اسمك؟»

«آزا. لم أتأذّ».

«ابقي مكانك يا آزا. هل تعرفين ما هو اليوم؟

«إنه هاتف أبي»، قلت. «هذا هاتفه، و..».

«هل هذه سيارته؟ هل أنت خائفة أن يغضب؟ آزا، أنا أقوم بهذا العمل منذ وقت طويل، وأعدك، لن يغضب منك أبوك. بل سيشعر بالارتياح لأنك بخير».

شعرت بأحشائي تتمزّق، وكأني نجمٌ انفجر وانهار في الوقت نفسه. آلمني البكاء، لكني لم أبكِ منذ زمن، ولم أرغب في التوقف. «أين تشعرين بالألم؟» سألني.

أشرت إلى الجزء الأيمن من قفصي الصدري. اقتربت امرأة، وبدآ يتحدثان عمّا إذا كنت بحاجة إلى لوح ظهريّ. حاولت أن أقول إنني أشعر بدوار ثم شعرت بنفسي أهوي، برغم أنه لم يكن هناك مكان أهوي فيه.

استيقظت محدّقة إلى سقف سيارة إسعاف، مربوطة فوق لوح ظهريّ، رجل يمسك بقناع أوكسجين فوق وجهي، صفّارات الإنذار بعيدة، الطنين مستمرٌ في أذني. ثم السقوط مرة أخرى، أسفل وأسفل، ثم على سرير مستشفى في ممرّ، أمي فوقي، الماكياج يقطر من عينيها. «حبيبتي، أو يا إلهي. حبيبتي، هل أنت بخير؟»

«أنا بخير»، قلت. «أظن أنني كسرت ضلعًا أو شيئًا ما. هل تحطّم هاتف أبي؟»

«لا عليك. كل شيء مخزّن. اتصلوا بي وقالوا لي إنك مصابة لكن لم يخبروني إن كُنتِ..». قالت، ثم بدأت في البكاء. اصطدمتْ بديزي وعندئذٍ لاحظت أن ديزي موجودة، وأنّ هناك بقعة حمراء على ترقوتها.

مكتبة

استدرت عنهما وحدّقت إلى الضوء الأبيض المشعّ فوق سريري، شاعرة بالدموع الساخنة على وجهي، وأخيرًا قالت أمي، «لا أستطيع أن أفقدك أيضًا».

جاءت امرأة وأخذتني لإجراء أشعة مقطعية، وشعرت بالراحة شيئًا ما للابتعاد عن أمي وديزي لبرهة، بعيدًا عن الشعور بالخوف والذنب لفشلي الذريع بأن أكون ابنة وصديقة.

«حادث سيارة؟» سألت المرأة وهي تدفعني بمحاذاة كلمة حنان مخطوطة بطريقة فنية على الحائط.

«نعم»، قلت.

«أحزمة الأمان تؤذيك في الوقت نفسه الذي تُحافظ فيه على حياتك»، قالت.

«نعم. سأحتاج إلى مضادّ حيوي».

«لست طبيبة. ستأتي بعد أن ننتهي من هذه الفحوص».

وضعوا شيئًا في المحلول السائل بوريدي جعلني أشعر بأنني أتبوّل في بنطلوني، وأدخلوني في أسطوانة الأشعة المقطعية، ثم أعادوني أخيرًا لأعصاب أمي المتهالكة. لم أستطع نسيان الغصّة في صوتها عندما قالت إنها لا تستطيع أن تفقدني أيضًا. شعرت بتوتّرها وهي تقطع الغرفة جيئة وإيابًا، تبعث برسائل نصية إلى خالتي وخالي في تكساس، تلتقط أنفاسًا طويلة بين شفتين مطبقتين، تمسح ماكياج عينيها بمحرمة ورقية.

مكتبة

لم تتفوّه ديزي بالكثير، على غير عادتها. «لا ضير إن أردتِ المغادرة»، قلت لها في مرحلة ما.

«هل تريدين أن أغادر؟» سألتْ.

«الخيار لك»، قلت. «بجديّة».

«سأمكث»، أجابت، وجلست بهدوء، عيناها تتنقّلان بيني وبين أمي.

مكتبة

١٩

«أخبار جيدة وأخبار سيئة»، أعلنت امرأة بملابس مستشفى زرق فور دخولها الغرفة. «الأخبار السيئة، كبدك ممزّقة. الأخبار الجيدة، التمزّق طفيف. سنراقبك عن كثب ليومين، لنتأكّد أن نزفك لن يزداد، وستشعرين بالألم لعدة أسابيع، لكنني سأكتب لك دواء للألم الآن لتكوني مرتاحة. أيّ أسئلة؟»

«ستصبح على ما يرام؟» سألت أمي.

«نعم. إذا تفاقم النزف، فستصبح الجراحة ضرورية، لكن بناءً على تقرير اختصاصيّ الأشعة، أعتقد أن ذلك غير محتمل. بالنسبة إلى حالات تمزّق الكبد، هذا أفضل شيء ممكن. بصورة عامة، ابنتك محظوظة بالفعل».

«ستكون على ما يُرام»، قالت أمي ثانيةً.

مكتبة

«كما قلت، سنراقبها عن كثب لمدة يومين، ثم عليها أن ترتاح أسبوعًا في السرير. بعد نحو ستة أسابيع ستعود كما كانت».

انهمرت دموع الشكر من عيني أمي، بينما فكرت في تعبير كما كانت. «هل سأحتاج إلى مضادّ حيوي؟» سألت.

«لا. إذا اضطررنا إلى إجراء عملية جراحية، فعندها ستحتاجين إليه، لكن حاليًا، لا». سَرَت في أطرافي رعشة ارتياح. لا للمضادّ الحيوي. لا لخطر ارتفاع الإصابة بالتهاب القولون الغشائي الكاذب. كل ما عليّ هو الخروج من هنا إذن.

سألتني الدكتورة عن أدويتي، وأخبرتها. دوّنت بعض الملاحظات في اللائحة ثم قالت، «سيحضر أحدهم إلى هنا قريبًا ليأخذك إلى الأعلى، وستتناولين شيئًا للألم قبل ذلك».

مهلًا»، قلت. «ماذا تعنين بـ«إلى الأعلى»؟

«كما قلت، يجب أن تمكثي هنا ليلتين حتى نتمكّن من ـ»

«لا لا لا لا. لا أستطيع البقاء في المستشفى».

«حبيبتي»، قالت أمي. «يجب أن تظلي».

«لا، لا أستطيع حقًا. أنا، حقًا، هذا هو المكان الوحيد الذي لا أستطيع البقاء فيه الليلة. أرجوكِ. دعيني أعود إلى المنزل».

«لا ننصحك بهذا».

أوه، لا. اسمعي. لا ضرر. معظم الناس الذين يدخلون المستشفى يغادرونه بصحة أفضل. تقريبًا كل شخص، فعلًا. التهاب القولون

مكتبة

الغشائي الكاذب شائع فقط لدى المرضى بعد العمليات الجراحية. حتى إنك لن تتناولي المضادّات الحيوية. لا لا لا لا لا لا لا لا.

من بين كل الأماكن التي تنتهي بها في هذه الدوّامة الخانقة، ها نحن، في الطابق الرابع داخل مستشفى بكارمل، إنديانا.

غادرت ديزي عندما صعدت إلى الأعلى، لكنّ أمي ظلت، متمدّدة على جانبها على المقعد بجوار سرير المستشفى، قبالتي.

شعرت بأنفاسها عليّ تلك الليلة أثناء نومها، شفتاها منفرجتان، عيناها الملوّثتان بالماكياج مغمضتان، الميكروبات من رئتيها تحوم فوق وجنتيّ. لم أستطع أن أستدير على جانبي لأنّ الألم كان يشلّني حتى مع الدواء، وعندما أدرت رأسي، حرّك تنفّسها شعري على وجهي، فلم أتحرّك بعدها.

تحرّكت، عيناها على عيني. «هل أنت بخير؟»

«نعم»، قلت.

«هل تشعرين بالألم؟» أومأت لا. «في إحدى قصائده، يقول سيدكو سونديايا إن أكثر جزء مهم في الجسد ليس القلب أو الرئتين أو الدماغ. أكبر وأهم جزء في الجسد هو الجزء الذي يؤلم». وضعت أمي يدها على رسغي وعادت إلى النوم.

برغم أنني كنت مُشبعة بالمورفين، لم أستطع النوم. كنت أسمع صوت صفير في الغرفة المجاورة، ولم يكن المكان معتمًا تمامًا، وواصل غرباء طيّبو النية المجيء لسحب الدم من جسدي و/ أو لفحص ضغط دمي، وأهم شيء، كنت أعرف: أعرف أن التهاب القولون الغشائي

مكتبة

الكاذب كان يجتاح جسدي، وأنه كان طافيًا في الهواء. على هاتفي، قرأت قصص مرضى ذهبوا إلى المستشفى لإجراء عملية مرارة أو حصى في الكلى، وغادروه وقد انتهوا.

مأساة التهاب القولون الغشائي الكاذب أنه موجود في كل شخص. فينا كلنا، هو كامن داخلنا. يتفاقم أحيانًا بطريقة خارجة عن السيطرة ويستولي عليك ويبدأ بمهاجمة أمعائك. يحدث ذلك أحيانًا. يحدث ذلك لأنك ابتلعت بكتيريا التهاب القولون الغشائي الكاذب لشخص ما، المختلف قليلًا عن بكتيريتك، ويبدآن في الاختلاط به، وتحدث الكارثة.

شعرت بذراعيّ وساقيّ ترتجف وبمخّي يدور في دوّامة من الأفكار، محاولًا إيجاد طريقة لإصلاح الوضع. جهاز السائل المغذّي يصفّر. لم أستطع حتى تذكّر آخر مرة غيّرت فيها اللصقة الطبية على إصبعي. التهاب القولون الغشائي الكاذب داخلي وحولي في الوقت نفسه. يستطيع الحياة لأشهر خارج جسد، في انتظار مُستضيف جديد. يبلغ مجموع وزن كل الحيوانات الكبيرة في العالم ـ البشر، الأبقار، البطاريق، أسماك القرش ـ نحو ١,١ مليار طن. يبلغ مجموع وزن البكتيريا على الأرض ٤٠٠ مليار طن. إنها تطغى علينا.

لسبب ما، بدأت أسمع تلك الأغنية، «لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيك» في رأسي. كلما فكّرتُ في تلك الأغنية أكثر، أصبحت أكثر غرابة. وكأنّ الجوقة ـ لا أستطيع لا أستطيع لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيك ـ تتخيّل أنه شيء جميل أو رومانسي أنك لا تستطيع تحويل أفكارك بعيدًا عن شخص ما، لكن ليس هناك أي شيء

مكتبة

رومانسي أو جميل في فتى يفكر فيكِ مثلما تفكرين في التهاب القولون الغشائي الكاذب. لا أستطيع التوقّف عن التفكير. أحاول أن أجد شيئًا صلبًا أتشبّث به في خضمّ الأفكار الهائجة هذه. اللوحة اللولبية. ديزي تكرهك والأحرى بها أن تكرهك. لسان دايفيس المُشبّع بالميكروبات على رقبتك. أنفاس أمك الدافئة. رداء المستشفى ملتصق بظهرك مغرورق بالعرق. وفي أعمق أعماقي، بعضي يصرخ، أخرجيني من هنا أخرجيني من هنا أخرجيني أرجوك سأفعل أي شيء، لكن الأفكار ظلت تدور، الدوّامة الخانقة، فم العدّاء، غباء آيالا، آزا، وهولمزي وكل أنفسي المتناقضة، استيعابي لنفسي، القذارة داخل أمعائي، فكّري في أي شيء سوى نفسك أيتها الأنانية المقرفة.

أخرجت هاتفي وبعثت برسالة نصية إلى ديزي: آسفة لأنني لم أكن صديقة مخلصة لك. لا أستطيع التوقف عن التفكير في الأمر.

ردّت مباشرة: لا عليك. كيف حالك؟

أنا: أنا أهتمّ لحياتك وآسفة لأنني لم أُبدِ ذلك.

ديزي: هولمزي اهدئي، كل شيء على ما يرام آسفة أننا تشاجرنا سنتصالح وسيصبح كل شيء على ما يرام.

أنا: أنا آسفة حقًا. لا أستطيع التفكير الصحيح.

ديزي: كفى اعتذارًا. هل يعطونك أدوية تجعلك لطيفة؟

لم أردّ، لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير في ديزي، في آيالا، وأكثر شيء، عن التفكير في الجراثيم داخلي وخارجي، وكنت أعرف

مكتبة

أنني أنانية لأنني أعطي الأمر أكثر من حجمه، جاعلة حالات التهاب القولون الغشائي الكاذب الفعلية لغيري من الناس تصبح حالتي الافتراضية. بغيضة. قرصت إصبعي بظفر إبهامي لأتحقّق من واقعية اللحظة، لكنني لم أستطع الهروب من نفسي. لا أستطيع تقبيل أي شخص، لا أستطيع قيادة سيارة، لا أستطيع الحياة في العالم المحسوس المأهول. كيف لي أن أتخيّل حتى الذهاب إلى جامعة بعيدة حيث تدفعين ثروة للسكن في مساكن للطلاب مليئة بالغرباء، بحمّامات مشتركة وكافيتيريات ومن دون مساحات خاصة بك تستطيعين أن تكوني مجنونة فيها؟ سأظل عالقة في كلية هنا، هذا إذا تمكّنت حتى من تجميع أفكاري كفاية للذهاب إلى الكلية. سأعيش في منزلي مع أمي، وأظل هناك بعد ذلك أيضًا. لن أصبح أبدًا شخصًا بالغًا قادرًا على العمل وأنا على هذا الحال؛ من الصعب تصوّر أنه سيكون لي وظيفة يومًا. أثناء مقابلات التوظيف سيسألونني، ما هي نقطة ضعفك الكبرى؟ وسأشرح لهم أنني سأقضي جزءًا كبيرًا من يوم العمل مرعوبة من أفكار أنا مُجبرة على التفكير فيها، مسكونة بشيطان عديم الوجه والشكل، وإذا كانت هذه مشكلة، فقد لا تَرغبون في توظيفي.

الأفكار ليست إلّا نوعًا آخر من البكتيريا، تستعمرك. فكرت في محور معلومات المعدة-المخّ. على الأرجح أنه قد قضي عليك. المساجين يديرون السجن الآن. ليس شخصًا بل سرب. ليست نحلة، بل خليّة النحل.

لم أستطع تحمّل أنفاس أميّ على وجهي. كانت كفّاي متعرقتين. شعرت بأنني أهوي. تعرفين طريقة التعامل مع هذا! «هل بإمكانك أن تستديري»، همست، لكنها ردّت بالتنفس فقط. كل ما عليك هو الوقوف.

مكتبة

أمسكت هاتفي لأبعث برسالة إلى ديزي، لكنّ الحروف غبّشت على الشاشة، وتملّكني رعب كامل. رأيت معقّم اليدين المعلّق بجوار الباب. إنه الطريقة الوحيدة هذا غباء لو أنّ الأمر ناجع لكان مدمنو الكحول أكثر الناس صحة في العالم كل ما ستفعلينه هو تعقيم يديك وفمك أرجوك فكري في أي شيء آخر قفي، أكره أن أكون سجينة داخلك أنت أنا لست كذلك أنت نحن لست كذلك تريدين أن تتحسّني تعرفين كيف تتحسّنين سيجعلني أتقيأ ستصبحين نظيفة ستتأكّدين. لا أستطيع أن أتأكد أبدًا. قفي لست حتى شخصًا بل منطق مغلوط جدًا. أنت بحاجة إلى الوقوف قالت الدكتورة امكثي في السرير وآخر شيء نحتاج إليه هو عملية جراحية ستقفين وتجرّين عربة السائل المغذّي أخرجيني من هذا. ستجرّين عربة السائل المغذّي إلى مدخل الغرفة أرجوكِ وستضخّين رغوة معقّم اليدين على يديك، وتنظفينهما جيدًا، ثم ستضخين المزيد من الرغوة على يديك وستضعين تلك الرغوة في فمك، تتمضمضين بها حول أسنانك ولثتك القذرة. لكنه يحتوي على كحول، سيضطرّ كبدي الممزّق إلى امتصاصه، هل تريدين الموت من التهاب القولون الغشائي الكاذب؟ لا، لكن هذا ليس عقلانيًا، إذن قفي وجرّي عربة السائل المغذّي إلى وعاء معقّم اليدين المعلّق على الجدار البائس يا بلهاء. أرجوك أمزجي عني. سأفعل أي شيء. سأنسحب. خذي جسدي. ما عدتُ أريده. ستقفين. لن أفعل. أنا طريقتي وليست إرادتي. ستقفين. أرجوكِ. ستذهبين إلى معقّم اليدين. أنا أفكر، لذلك أنا حية. أتعرّق لقد أُصبت به فعلًا لا شيء يؤلم كهذا لقد أُصبت به فعلًا كفى أرجوك يا إلهي كفى لن تتحرري أبدًا من هذا لن تتحرّري أبدًا من هذا. لن تعود إليك نفسك مرة ثانية، لن تعود إليك نفسك مرة ثانية

مكتبة

هل تريدين الموت بسبب هذا؟ هل تريدين الموت بسبب هذا؟ لأنك ستموتين ستموتين ستموتين ستموتين ستموتين ستموتين.

وقفت. للحظة، ظننت أنه سيُغمى عليّ عندما انتشر الألم داخلي. قبضت على عمود السائل المغذّي وخطوت بضع خطوات مترنّحة. سمعت أمي تتحرك. لم أهتم. ضغطت وعاء معقّم اليدين، فركت الرغوة على يديّ. ضغطته مرة ثانية، وحشوت الرغوة في فمي.

«آزا، ماذا تفعلين؟» سألت أمي. شعرتُ بالإحراج، لكنني أعدتُ الكرّة، لأنه كان يجب عليّ أن أفعل ذلك. «آزا، توقّفي!»

سمعت أمي تقف، وأدركت أن فرصتي كادت تتلاشى. لهذا أخذت جرعة أخرى من الرغوة وحشوتها في فمي وزوِرت بها. اجتاحتني نوبة من الغثيان، وتقيّأت، الألم في ضلوعي قاتل، وأمي تمسك بذراعي. كان القيء الأصفر يغطي رداء المستشفى الأزرق الفاتح.

جاء صوت من مكبّر في مكان ما خلفي. «هذه الممرضة والاس».

«ابنتي تتقيّأ. أعتقد أنها شربت معقّم اليدين».

أدركتُ مدى قرفي. أدركت. أدركت الآن بالتأكيد أنني لم أكن مسكونة بشيطان. كنت أنا الشيطان.

مكتبة

٢٠

في صباح اليوم التالي، تستيقظين في سرير المستشفى، محدّقة إلى بلاط السقف. بحذر، بعناية، تقيّمين وعيك لحظة. تتساءلين: هل انتهى كل شيء؟

«لم يبدُ طعام المستشفى لذيذًا، لهذا أعددت لك إفطارًا»، تقول أمّك. «حبوب العسل». تنظرين إلى جسمك، وقد فقد شكله تحت بطانية بيضاء.

تقولين، «حبوب العسل ليست شيئًا تعدّينه»، وتضحك أمك. في نهاية سريرك تلاحظين باقة ورد كبيرة على طاولة. «من دايفيس»، تقول أمّك. على مقربة أكثر منك، صينية طعام. تبلعين. تنظرين إلى حبوب العسل تسبح في الحليب. جسمك يؤلم. فكرة تخطر ببالك: وحده اللّه يعرف ماذا تنفستِ أثناء نومك.

لم ينتهِ الأمر.

مكتبة

تتمدّدين هناك، من دون أن تفكري بالفعل، وتحاولين التركيز على طريقة تصفين بها الألم، وكأنّ العثور على لغة لوصفه قد يخرجه منك. إذا كان بإمكانك جعل شيء ما حقيقة، إذا كان بإمكانك رؤيته وشمّه ولمسه، فستستطيعين قتله.

تفكرين، هو مثل نار مشتعلة في الدماغ. مثل حيوان قارض يقضمك من الداخل. سكين مغروزة في معدتك. لولب. دوّامة. ثقب أسود.

الكلمات المستخدمة لوصفه ـ يأس، خوف، قلق، وسواس ـ بالكاد توصل المعنى. قد نكون اخترعنا المجاز كردّ فعل للألم. ربما كنا بحاجة لمنح شكل للألم المبهم العميق الذي يتجنّب الإحساس والحواسّ معًا.

للحظة، تفكرين في أنك تحسّنت. لقد مرّ بذهنك قطار ناجح من الأفكار، بمحرّك ومطبخ وكل شيء. أفكارك. من تأليفك. ثم تشعرين بموجة غثيان، قبضة يد تُغلق من داخل قفصك الصدري، عرق بارد جبهة ساخنة لقد أصبت به إنه داخلك طاردًا كل شيء آخر مستحوذًا عليكِ وسيقضي عليكِ ويأكل طريقه خارجًا منك ثم بصوت منخفض، مخنوقة بالذعر الذي لا يوصف، بالكاد تُخرجين الكلمات التي تريدين التفوّه بها تقولين. «أنا في ورطة يا أمي. ورطة كبيرة».

مكتبة

٢١

هكذا تستمر القصة: مع تدهوري نحو الجنون بعينه، أبدأ بفهم الروابط التي تحل قضية اختفاء راسيل بيكيت المنسية. إصراري العنيد يقودني نحو تجاهل كل التهديدات، والمخاطرة بالثروة التي حلّت عليّ أنا وديزي. أركّز فقط في القصة على اللغز، وأؤمن بأنّ حلّه هو الخير الأعظم، بأن الجمل التفسيرية أفضل جوهريًا من الجمل الاستجوابية، ومع العثور على الإجابة برغم جنوني، أعثر في الوقت نفسه على طريقة للتعايش مع جنوني. أصبح محقّقة عظيمة، ليس رغمًا عن أسلاك مخّي المعطوبة، بل بسببها.

لا أعرف مع من أمشي نحو غروب الشمس في القصة، دايفيس أم ديزي، لكنني أمشي نحوه. ترون الضوء ينعكس على ظهري، مظلّلًا بضوء شمسنا بعمر ثماني دقائق، ممسكةً بيد شخص ما.

وفي الطريق، أدرك أنني أتحكّم في نفسي، أنّ أفكاري ـ كما

مكتبة

تحب د. سينغ أن تقول ـ أفكار فقط. أدرك أن حياتي قصة أسردها، وأنني حرّة وأتمتّع بقوة وأنا قبطان وعيي. لا. لم تنته القصة هكذا.

لم أصبح عنيدة أو واضحة، لم أمش نحو غروب الشمس ـ في الواقع، لفترة هناك، بالكاد رأيت أيّ ضوء طبيعي.

ما جرى كان مملًّا بصورة قاسية ومؤلمة: تمدّدت على سرير مستشفى وتألمت. أضلاعي تؤلم، عقلي يؤلم، أفكاري تؤلم، ولم يسمحوا لي بالعودة إلى المنزل بعد ثمانية أيام.

في البداية، ظنّوا أنني مدمنة على الكحول ـ أنني توجّهت إلى معقّم اليدين لأنني كنت بحاجة إلى مشروب بطريقة يائسة. كانت الحقيقة أشدَّ غرابة وأقل عقلانية لدرجة أن أيًّا منهم لم يكن مستعدًا لتصديقها حتى اتصلوا بالدكتورة سينغ. عندما وصلتْ إلى المستشفى، وضعت كرسيًا قرب طرف سريري. «حدث أمران»، قالت. «أوّلًا، لا تتناولين دواءك كما هو مفروض».

أخبرتها أنني تناولته كل يوم تقريبًا، وشعرت بأنها الحقيقة، إلّا أنها لم تكن كذلك. «شعرت بأنه كان يجعلني أسوأ»، اعترفتُ أخيرًا.

«آزا، أنت شابة ذكية. بالتأكيد لا تظنين أن شرب معقّم اليدين أثناء بقائك في المستشفى بسبب تمزّق الكبد يشير إلى تقدم في مسار صحتك العقلية». حدّقت إليها. «أنا متأكدة أنهم شرحوا لك، شرب معقّم اليدين خطير ـ ليس فقط بسبب الكحول، لكن لأنه يحتوي على موادّ كيميائية قادرة على قتلك عند ابتلاعها أيضًا. لذا لن نتقدم إلى الأمام بفكرة أنّ الدواء الذي توقفت عن تناوله كان يجعلك تشعرين بأنك أسوأ». قالت كل شيء بطريقة صارمة فما كان بوسعي سوى الإيماء.

مكتبة

«والشيء الثاني الذي جرى هو أنك مررت بصدمة جادّة مع الحادث، وهذا يمثّل تحدّيًا لأي شخص». واصلتُ التحديق. «علينا أن نغيّر دواءك لدواء يعمل أفضل معك، دواء بإمكانك تحمّله، وتناوله».

«لم يُجد أيّ منها»، قلت

«لم يُجد أيّ منها بعد»، صحّحت.

جاءت د. سينغ كل صباح، وفي الظهر زارني طبيب آخر لتقييم وضع كبدي. مثّلت زياراتهما نوعًا من الراحة لي لأنّ أمي الباقية معي باستمرار كانت مُجبرة على ترك الغرفة لفترة وجيزة.

في آخر يوم، جلست د. سينغ محاذية لطرف سريري ووضعت يدًا على كتفي. لم تلمسني يومًا من قبل وقالت. «أدرك أن البقاء في المستشفى لم يُساعد على تبديد قلقك».

«نعم»، قلت.

«هل تشعرين بأنك تمثّلين خطرًا على نفسك؟»

«لا»، قلت. «أنا فقط مرعوبة جدًا وتنتابني الكثير من الأفكارِ الاجتياحية».

«هل شربت معقّم يدين أمس؟»

«لا».

«لستُ هنا لأحكم عليك، يا آزا. لكنني أستطيع مساعدتك فقط عندما تكونين صادقة معي».

مكتبة

«أنا صادقة. لم أشربه». على أيّ حال، «لقد أزالوا محطة تعقيم اليدين المعلّقة في غرفتي».

«هل فكرتِ في الأمر؟»

«نعم».

«لا تخافي من تلك الفكرة. الفكرة ليست حدثًا».

«لا أستطيع التوقّف عن التفكير في الإصابة بالتهاب القولون الغشائي الكاذب. أريد أن أتأكد فقط أنني لست..».

«شرب معقّم اليدين لن يجدي».

«لكن ما الذي سيجدي؟»

«الوقت. العلاج. تناول دوائك».

«أشعر بأنشوطة تضيق حولي وأريد الخلاص، لكنّ المقاومة تضيّق العُقدة. اللولبة تَضْيَقُ باستمرار».

حدّقت في عينيّ مباشرة. من الطريقة التي نظرت بها إليّ، ظننت أنها على وشك أن تبكي. «آزا، ستتغلّبين على هذا»، قالت لي.

حتى بعد أن غادرت، واصلت د. سينغ زيارتي في المنزل مرتين في الأسبوع للتأكّد من تحسّني. انتقلتُ إلى دواء مختلف تأكّدت أمي أنني أتناوله كل صباح، ولم يُسمح لي بالوقوف إلّا للذهاب إلى الحمام خوفًا من إعادة تمزيق كبدي.

لم أذهب إلى المدرسة لمدة أسبوعين. أربعة عشر يومًا من حياتي

مكتبة

تقلّصت في جملة واحدة، لأنني لا أستطيع وصف أيّ شيء حدث أثناء تلك الأيام. أشعر بالألم، طوال الوقت، بطريقة لا تمسُّها اللغة. كانت مملّة. كانت متوقّعة. مثل المشي في متاهة تعرف أنْ لا خروج منها. من السهل أن تقول كيف كانت، لكن من المستحيل أن تقول ما كانت.

أراد ديزي ودايفيس زيارتي، لكنني رغبتُ في أن أظلّ وحدي، في السرير. لم أقرأ أو أشاهد التلفزيون؛ لم يكن بإمكان أيّهما إلهائي. تمدّدت هناك فقط، أقرب إلى الخمول التامّ، وأمي حولي، قريبة دائمًا، تكسر الصمت كل بضع دقائق بسؤال على شكل جملة. كل يوم أفضل قليلًا؟ تشعرين بأنك أحسن؟ تتحسّنين؟ استجواب الجمل التفسيريّة.

لم أشغّل هاتفي لفترة، قرار وافقت عليه د. سينغ. عندما شغّلته أخيرًا، شعرت بخوف كبير. أردت أن أجد عليه العديد من الرسائل النصية وفي الوقت نفسه لم أُرِدْ ذلك.

تبيّن أن لديّ أكثر من ثلاثين رسالة ـ ليس فقط من ديزي ودايفيس، برغم أنهما قد كتبا، لكن أيضًا من ميكال وغيره من الأصدقاء، وحتى من بعض المعلّمين.

عدت إلى المدرسة صباح يوم اثنين في أوائل شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. لم أكن متأكّدة إن كان الدواء الجديد مجديًا، لكنني أيضًا لم أكن أتساءل إن كان عليّ تناوله. شعرت بأنني مستعدة، وكأنني عدت إلى العالم ـ ليس كما كنت، لكن ما زلت نفسي.

قادتني أمي إلى المدرسة. كان هارولد قد انتهى، وعلى أي حال، كنت أشعر بالخوف من القيادة.

مكتبة

«متحمّسة أم متوتّرة؟» سألتني أمي. قادت ويداها الاثنتان على عجلة القيادة، وكأنهما الساعة العاشرة والدقيقة الثانية.

«متوتّرة»، قلت.

«أساتذتك، أصدقاؤك، كلهم متفهّمون، يا آزا. يريدون أن تتحسّني فقط وسيدعمونك مئة بالمئة، وإن لم يفعلوا ذلك، فسأسحقهم».

ابتسمت قليلًا. «الكل يعرف، هذا ما في الأمر. أني جُننت».

«حبيبتي»، قالت. «لم تُجنّي. أنت مجنونة من الأول». ضحكتُ الآن، ومدّت يدها لتضغط على رسغي.

كانت ديزي بالانتظار على الدرج الأمامي. أوقفت أمي السيارة، ونزلت منها، أضلاعي حسّاسة تحت وزن حقيبة المدرسة. كان يومًا باردًا، إلّا أنّ الشمس كانت مشرقة برغم أنها صعدت للتو، وواصلت أغمض عينيّ من وهج الضوء. لقد مرّ زمن منذ قضيت وقتًا في الخارج.

بدت ديزي مختلفة. وجهها أكثر إشراقًا شيئًا ما. استغرق مني الأمر لحظة لأدرك أنها قصّت شعرها، قَصة جميلة جدًا تصل إلى تحت ذقنها.

«هل أستطيع احتضانك من دون أن تتمزّق كبدك؟»

«أحبّ قَصة شعرك»، قلت ونحن نتعانق.

«ما ألطفك، لكنْ كلتانا تعرف أنها كارثة».

«اسمعي»، قلت. «أنا آسفة حقًا».

«وأنا أيضًا، لكن سامحت إحدانا الأخرى، وسنعيش الآن في راحة وأمان».

مكتبة

«أنا جادّة»، قلت. «أشعر بالاستياء بشأن ـ»

«وأنا أيضًا»، قالت. «يجب أن تقرئي قصتي الجديدة. هي اعتذار بطول خمسة عشر ألف كلمة تدور أحداثه في كوكب جِذْها بعد نهاية العالم. ما أريد أن أقوله لك يا هولمزي هو، نعم، أنت مرهِقة، ونعم، صداقتك عمل مجهد. لكنك أيضًا أكثر شخص مدهش أعرفه، وأنت لا تشبهين الخردل. أنت تشبهين البيتزا، وهذا أعلى إطراء أقدمه إلى شخص».

«أنا آسفة حقًا، يا ديزي، لأنني لست ـ»

«يا إلهي، هولمزي، إنك بالتأكيد قادرة على كتم الضغينة ضد نفسك. أنت شخصي المفضّل. أريد أن أُقبر بجوارك. سنتشارك شاهد القبر. سيُكتب عليه: هولمزي وديزي: قاما بكل شيء معًا، إلّا الفعل الفاحش». على أي حال، «كيف حالك؟» هززت كتفي. «هل تريدين أن أستمر في الكلام؟» أومأت بنعم. «تعرفين كيف يقول الناس أحيانًا فلانة تحب الاستماع إلى صوتها؟ أنا جديًا أحب الاستماع إلى صوتي. صوتي جدير بالراديو». استدارت وصعدت الدرج ووقف في طابور كاشف المعادن. «لهذا أعرف عمّا تتساءلين: ديزي، هل ما زلت تواعدين ميكال؟ أين سيارتك؟ ماذا جرى لشعرك؟ الأجوبة هي: لا، بعتها، والقصّة أصبحت ضرورية بعد أن وضعت إلينا عمدًا ثلاث قطع علكة ممضوغة بشعري وأنا نائمة. كانا أسبوعين طويلين يا هولمزي. هل تريدين التفصيل المملّ؟»

أومأت بنعم.

«بكل سرور»، أجابت ونحن نجتاز كاشف المعادن. «مع ميكال

مكتبة

كل ما في الأمر أنني أردت أن أكون شابة ومنطلقة وحرة ـ أعني، مررت بتجربة أقرب إلى الموت وفكرت، هل أريد أن أضيّع شبابي في علاقة جادّة؟ فقلت، «فلنواعد أشخاصًا آخرين»، وقال، «لا»، قلت، «أرجوك»، فقال، «أريد أن أكون في علاقة أحادية»، فقلت، «لا أريد ثقل هذا الشيء أن يطغى على حياتي»، فقال، «لست شيئًا»، وانفصلنا. أعتقد أنه هو من تركني فعلًا في النهاية، لكنها كانت إحدى تلك الحالات التي تحتاجين معها إلى لجنة تحكيم بثلاثة حكّام تقرّر من المذنب.

«على أي حال، السيارة. تبيّن أن امتلاك السيارات مكلِف كما أن بإمكانها إيذاءك، لهذا استعدت أموالي لأنها كانت بحوزتي لأقل من ستين يومًا، ومن الآن سأستخدم أوبر للذهاب إلى أي مكان لبقية حياتي، لأن ذلك مثل امتلاكي كل سيارة، وأيضًا بوصفي فتاة ثرية، أستحق سائقًا خاصًا يقودني إلى كل مكان. هل أستمر؟»

وصلنا إلى خزائننا الصغيرة، وفوجئتُ عندما تبيّنت أنني ما زلت أتذكّر الرقم السري للقفل. كان هناك أجساد بشرية كثيرة حولي. لم أستطع تصديق ذلك. فتحت خزانتي. لم أؤدّ واجبي المدرسي. كنت متأخرة في كل شيء. الضوضاء في الممر مرتفعة، والازدحام شديد. «نعم»، قلت.

«على الرحب والسعة. أستطيع فعل ذلك طوال اليوم. هذا سبب آخر أنه قُدّر لنا أن نكون معًا ـ أنت بارعة في عدم التكلّم. مع إلينا، وضعت العلكة في شعري عمدًا وأنا نائمة، وفي صباح اليوم التالي سألت، «لماذا توجد علكة ممضوعة في شعري؟» وأجابت، «ها

مكتبة

ها!» قلت، «إلينا، أنت لا تعرفين معنى المزاح. ليس من المضحك أن تجعلي حياة شخص ما أسوأ. مثلًا، إذا كسرتُ ساقك، فهل سيكون ذلك مضحكًا؟» فقالت، «ها ها!» لهذا حصلت على هذه القصة الفاخرة وصدّقيني، دفعت ثمنها من صندوق التوفير لكلّية إلينا. أجبرني والداي على فتح صندوق توفير لكلية إلينا، بالمناسبة.

«في مقطع إخباري آخر، ما جرى مع ميكال أضفى الارتباك على تجمّع طاولة الغداء، لهذا سنقوم أنا وأنت بنزهة وقت الغداء. أعرف أن الطقس باردٌ قليلًا، لكن صدقيني، الجلوس بجوار ميكال في الكافتيريا أبرد بكثير. هل أنت مستعدة للذهاب إلى حصة الأحياء الآن والقضاء عليها؟ في غضون سبع وأربعين دقيقة، ستتمدّد جيفة الأحياء الميّتة الخالية من الدم تحت قدميك. يا إلهي، حدثت أشياء كثيرة منذ فقدت عقلك. هل من الفظاظة أن أقول ذلك؟»

«في الواقع، المشكلة أنني لا أستطيع فقدان عقلي»، قلت. «ليس هناك مفرٌّ منه».

«هذا بالتحديد ما أشعر به إزاء عذريتي»، قالت ديزي. «سبب آخر أنه كان محكومًا عليّ وعلى ميكال بالفشل ـ لا يريد ممارسة الجنس حتى يقع في الحب. ونعم، أعرف أن العذرية صرح اجتماعي قمعي كاره للنساء، لكن مع هذا أريد أن أفقدها، وأنا مع شاب متعفّف وكأننا في رواية لجاين أوستن. أتمنى لو أن الأولاد لا يملكون كل هذه المشاعر التي يتعيّن عليّ إدارتها ومراعاتها وكأنني طبيبة نفسية». مشت ديزي حتى وصلت إلى باب فصلي، فتحته، وتوجّهت معي نحو مقعدي. جلست. «تعرفين أني أحبك، أليس كذلك؟» أومأت. «طيلة

مكتبة

حياتي وأنا أظنّ أنني نجمة فيلم رومانسي جادّ، واتّضح أنني كنتُ في كوميديا لعينة طوال الوقت. يجب أن أذهب إلى حصة التفاضل والتكامل. سعيدة برؤيتك يا هولمزي».

أحضرت ديزي بيتزا لنزهتنا، وجلسنا تحت شجرة البلّوط الوحيدة في مدرستنا، في منتصف ملعب الكرة. كان البرد قارصًا، وكنا ملتفّتين بمعاطف الشتاء، قُبّعات سترنا على رؤوسنا، بنطالاتنا الجينز قاسية على الأرض المتجمّدة.

لم أكن أرتدي قفّازات، لهذا أقحمت كفّي في المعطف. لم يكن الجوّ ملائمًا لنزهة.

«أفكر كثيرًا في بيكيت»، قالت ديزي.

«حقًا؟»

«حقًا. عندما ذهبتِ، فكّرت كثيرًا بغرابة أن تترك أبناءك هكذا، من دون أن تودّعهم حتى. أشعر بالاستياء تجاهه غالبًا. أي، ما الذي يمنعه من شراء هاتف من أي مكان والبعث برسالة نصية إلى أبنائه ليطمئنهم أنه بخير؟»

شعرت بالاستياء أكثر لصبي الثالثة عشرة الذي يستيقظ كل صباح مفكرًا في أن هذا اليوم قد يكون هو اليوم. ثم يلعب ألعاب فيديو كل ليلة ليلتهي عن الوجع الكامن في إدراكه أن أباك لا يثق بك أو يحبك كفاية ليتصل بك، إنه أبوك الذي فضّل عليك توَتارا في مخطّطاته لأملاكه. «أشعر بالاستياء إزاء نوا أكثر مما أشعر به تجاه بيكيت»، قلت.

«لقد تعاطفتِ دائمًا مع ذلك الصبي»، قالت. «حتى عندما لم تستطيعي التعاطف مع صديقتك المفضلة». رميتها بنظرة وضحكت متجاهلة الأمر، لكنني كنت أعرف أنها لم تكن تمزح.

«إذن، ماذا يعمل والداك؟» سألت.

ضحكت ديزي مرة أخرى. «يعمل أبي في متحف الولاية. هو حارس أمن هناك. يحب عمله، لأنه يهتم بتاريخ إنديانا، لكن وظيفته هي التأكد ألّا يلمس أي شخص عظام الحيوانات المنقرضة. تعمل أمي في محل غسيل جاف في برود ريبل».

«هل أخبرتهما عن النقود؟»

«نعم. لهذا السبب حصلت إيلينا على صندوق التوفير للكلية. أجبراني على وضع عشرة آلاف دولار فيه. قال أبي، 'كانت إيلينا ستفعل الشيء نفسه لك لو أنها حصلت على مبلغ من المال'. وكأنها ستفعل ذلك حقًّا».

«لم يغضبا منك؟»

«لأنني عدت إلى المنزل يومًا بخمسين ألف دولار؟ لا يا هولمزي، لم يغضبا».

داخل ذراع معطفي، شعرت بشيء ينزّ من إصبعي الوسطى. يجب أن أغيّر اللصقة قبل حصّة التاريخ، عليّ تأدية ذلك الطقس المزعج حتّى النهاية. لكن الآن، راقني الجلوس بجوار ديزي. راقتني مشاهدة أنفاسي الدافئة في البرد.

«كيف حال دايفيس؟» سألَتْ.

مكتبة

«لم أتحدث معه»، قلت. «لم أتحدث مع أي شخص».

«كانت حالك سيئًا جدًا؟»

«نعم»، أجبتها.

«آسفة».

«هذا ليس ذنبك».

«هل فكرت... هل تفكّرين في قتل نفسك؟»

«فكرت في عدم الرغبة في الاستمرار على تلك الحالة».

«هل ما زلتِ...»

«لا أدري». زفرتُ زفرة طويلة، بطيئة، وراقبت بخارها يتلاشى في هواء الشتاء. «أعتقد أنني مثل النهر الأبيض. لا يُمكن الإبحار فيّ».

«ليس هذا الهدف من قصة النهر الأبيض، يا هولمزي. الفكرة وراء القصة أنهم شيّدوا المدينة على أي حال. تعملين مع ما يتوافر لديك. كان لديهم هذا النهر السيّىء، واستطاعوا تشييد مدينة مقبولة حوله. ربما ليست بالمدينة العظيمة. لكنها ليست سيئة. أنت لست النهر. أنت المدينة».

«إذن، أنا لست سيئة؟»

«صحيح. أعطيك علامة جيد جدًا. إذا استطعت بناء مدينة جيدة جدًا مع جغرافيا بعلامة مقبول، فذلك أمر رائع حقًا».

ضحكت. تمدّدت ديزي بجواري وأشارت إليّ أن أتمدّد بجوارها. كنا ننظر نحو الأعلى، رأسانا قرب جذع شجرة البلوط الوحيدة، السماء

مكتبة

رمادية بلون الدخان فوق بخار أنفاسنا، الأغصان الخالية من الأوراق تتقاطع فوقنا.

لا أعرف إن كنت قد أخبرت ديزي من قبل عن ذلك ـ إن كانت قد تمدّدت في تلك اللحظة بالتحديد لأنها تعرف كم أحب رؤية السماء مقسّمة. فكرت كيف أنّ الأغصان المتباعدة تتقاطع في خط رؤيتي، كيف أن النجوم في الكوكبة ذات الكرسي متباعدة، لكنها قريبة مني شيئًا ما.

«أتمنى لو أنني أفهم ما يحدث معك»، قالت.

«لا عليك»، أجبتها. «لا أحد يفهم الشخص الآخر، ليس بالفعل. كلّنا عالقون داخل أنفسنا».

«أنت تكرهين نفسك؟ تكرهين كونك نفسك؟»

«ليس هناك نفس لأكرهها. عندما أنظر إلى نفسي، أدرك أنه ليس هناك أنا فعلية ـ فقط مجموعة أفكار وتصرفات وظروف. ولا أشعر بأنّ معظمها لي. ليست أشياء أريد التفكير فيها أو تنفيذها أو أي شيء. وعندما أبحث عن الأنا الحقيقية، لا أجدها أبدًا. مثل الدمى المُفرغة، تعرفينها؟ الدمى مفرغة وعندما تفتحين إحداها تجدين دمية أصغر داخلها، وتواصلين فتح الدمى المفرغة حتى تصلي إلى أصغر دمية، وهي صلبة تمامًا. لكن معي، لا أظن أن هناك دمية صلبة. تظل تصغر فقط».

«يذكّرني ذلك بقصة تحكيها أمي»، قالت ديزي.

«أيّ قصة؟»

مكتبة

كنت أسمع أسنانها تصطكّ وهي تتحدث لكن لم تُرد أي منا التوقف عن تأمل السماء المشبّكة. «كان هناك عالِم يلقي محاضرة لحشد كبير عن تاريخ الأرض، ويشرح لهم أن الأرض تكوّنت قبل مليارات السنين من سحابة غبار كوني، ولفترة من الزمن، أصبحت الأرض حارة جدًا، ثم انخفضت درجة حرارتها كفاية لتتكوّن المحيطات. ظهرت خلية حية واحدة في المحيطات، ثم على مدى مليارات السنين، أصبحت الحياة أكثر وفرة وتعقيدًا، حتى نشأ الجنس البشري منذ ما يقارب مئتين وخمسين ألف عام، وبدأنا في استخدام أدوات أكثر تطوّرًا، ثم في نهاية المطاف بنينا سفنًا فضائية وما إليه.

«قدّم عرضًا كاملًا عن تاريخ الأرض والحياة عليها، وفي النهاية استفسر إن كانت هناك أيّ أسئلة. رفعت امرأة عجوز في آخر القاعة يدها وقالت، 'كل هذا جميل وجيد، أيها العالم، لكن الحقيقة أن الأرض سطح مستوٍ محمول على ظهر سلحفاة ضخمة'.

«قرر العالِم أن يلاطف المرأة فأجاب، 'حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فعلى أي شيء تقف السلحفاة الضخمة؟'».

فأجابت المرأة، «تقف على صَدفةِ سلحفاة ضخمة أخرى».

بدأ العالِم يشعر بالإحباط الآن، فردّ عليها، «إذن، على أي شيء تقف تلك السلحفاة؟»

فأجابت المرأة العجوز، «سيدي، أنت لا تفهم. إنها سلاحف حتى القاع».

ضحكت. «إنها سلاحف إلى ما لا نهاية».

مكتبة

«إنها سلاحف حتى القاع يا هولمزي. تحاولين العثور على السلحفاة في أسفل الكومة، لكنّ الأمور لا تجري كذلك».

«لأنها سلاحف إلى ما لا نهاية»، قلت مرة ثانية، يغمرني إحساسٌ أشبه بالتجلي الروحي.

توقّفت عند صف أمي لآخر دقائق قبل انتهاء الغداء. أغلقت الباب ورائي وجلست على مقعد مقابل لها. نظرت إلى الساعة على الحائط. ١:٠٨. لدي ست دقائق. لم أكن بحاجة إلى المزيد.

«مرحبًا»، قلت.

«أول يوم يجري على ما يُرام؟» تمخَّطَت بمنديل ورقي. كانت تعاني من البرد، لكنها استهلكت كل أيام إجازتها المرَضية على مرضي.

«نعم»، قلت. «اسمعي، دايفيس أعطاني بعض المال. الكثير من المال. حوالى خمسين ألف دولار. لم أصرفها أو أي شيء. أنا أوفرها للكلية». تجهّم وجهها. «كانت هدية»، قلت مرة ثانية.

«متى؟» سألت.

«قبل شهرين».

«هذه ليست هدية. العقد هدية. خمسون ألف دولار ليست هدية. لو كنت مكانك لأعدت المال إلى دايفيس»، قالت. «لا تريدين أن تشعري بأنك مدينة له».

«لكنني لست أنت»، قلت. «ولست مدينة له».

بعد ثانية قالت، «بالفعل. أنت لست كذلك». انتظرتُ أن تقول المزيد، أن تخبرني لِما أنا مخططة بالاحتفاظ بالمال.

مكتبة

أخيرًا قالت، «حياتك لك يا آزا، لكن أظن أنك إن فكّرتِ في صحتك العقلية خلال الشهرين الماضيين..».

«المال لم يُسبّب ذلك. لقد كنت مريضة منذ زمن طويل».

«ليس بهذا الشكل. أريد أن تتحسّني يا آزا. لا أستطيع فقد ـ»

«يا إلهي، أمي، أرجوكِ توقّفي عن قول ذلك. أعرف أنك لا تحاولين الضغط علي، لكنني أشعر بأنني أؤلمك، وكأنني أرتكب جُرمًا أو شيئًا كذلك، وهذا يجعلني أشعر بأنني أسوأ عشرة آلاف ضعف. أنا أحاول جهدي، لكنني لا أستطيع أن أبقى عاقلة من أجلك، حسنًا؟»

بعد دقيقة واحدة، قالت، «يوم عدتِ إلى المنزل بعد الحادث، حملتك إلى الحمام، وحملتك إلى السرير بعدها وشددت الأغطية حولك، وأدركت أنني قد لا أحملك بعدها أبدًا. أنت محقة. أظل أقول لا أستطيع فقدانك، لكني سأفقدك. أنا أفقدك. وهي فكرة قاسية. إنها فكرة قاسية جدًا. لكنك محقّة. أنت لستِ أنا. تنتقين خياراتك بنفسك. وما دمت تدّخرين المال لتعليمك، تعقدين قرارًا مسؤولًا. حسنًا، إذن، أنا ـ» لم تنه الجملة أبدًا، لأن الجرس قُرع من عليائه.

«حسنًا»، قلت.

«أحبك يا آزا».

«وأنا أحبك أيضًا يا أمي». أردت أن أقول المزيد، أن أجد طريقة أعبّر بها عن أقطاب حبي المغناطيسية لأمي: شكرًا لك آسفة شكرًا لك آسفة. لكنني لم أستطع فعل ذلك، وعلى أي حال، قُرع الجرس.

مكتبة

قبل وصولي إلى حصة التاريخ، اعترضني ميكال. «مرحبًا. كيف أمورك؟» سأل.

«أنا بخير. وأنت؟»

«أنا وديزي انفصلنا».

«سمعتُ هذا».

«أنا محطّم».

«آسفة».

«هي حتى لا تشعر بالاستياء إزاء ما جرى، ما يجعلني أشعر بالبؤس. تظن أن عليّ نسيان الأمر، لكن كل شيء يذكّرني بها، يا هولمزي، وهي تتجاهلني، لا تأتي إلى الغداء، كل هذا ـ هل بإمكانك التحدث معها نيابة عني؟»

لحظتها لمحت ديزي في منتصف الممر المزدحم، مطأطأة الرأس. «ديزي»، صرخت. تابعتْ المشي، فصرخت مرة ثانية، بصوت أعلى. نظرت إلى الأعلى وتوجهت نحونا بين الحشود.

قرّبتها من ميكال. «يستطيع كل منكما التحدث معي عن الشخص الآخر، لكنكما لا تستطيعان التحدث معًا أحدكما عن الآخر؟ عليكما إصلاح ذلك، لأنه أمر مزعج. حسنًا؟ حسنًا. يجب أن أذهب إلى حصة التاريخ».

بعثت إليّ ديزي برسالة نصية أثناء الحصة. شكرًا على صنيعك. لقد قرّرنا أن نظل صديقين.

مكتبة

أنا: جميل.

هي: لكن من نوع الأصدقاء الذين يتبادلون القبل بعد اتخاذهم القرار أن يظلوا أصدقاء فقط.

أنا: أنا متأكدة أن الأمور ستجري على ما يُرام.

هي: كل الأمور تنتهي كذلك دائمًا.

لأنني كنت ممسكة بهاتفي، ولأننا كنا نشاهد فيلمًا في الصف، قررت أن أبعث برسالة نصية إلى دايفيس. آسفة لعدم الرد لفترة طويلة. مرحبًا. اشتقت إليك.

رد فورًا. متى أستطيع رؤيتك؟

أنا: غدًا؟

هو: السابعة في أبلبيز؟

أنا: اتفقنا.

مكتبة

٢٢

ظننت أنني سأكون على ما يرام عند قيادة تويوتا كامري أمي الذهبية لأبلبيز ليلتها، لكنني لم أستطع التخلص من ذكريات الحادث. بدا لي سرياليًا وخارقًا أن كل هذه السيارات تتجاوز بعضها بعضًا من دون أن ترتطم، وشعرت بأنني متأكّدة أن كل ضوء آتٍ باتجاهي سينتهي حتمًا بالانعطاف إلى مساري. تذكّرت صوت موت هارولد سحقًا، الصمت الذي تبعه، الألم في أضلاعي. فكّرت كيف أنّ الجزء الأكبر هو الجزء الذي يؤلم، فكرْت بهاتف أبي، ذهب إلى الأبد. حاولت أن أترك نفسي تفكر هذه الأفكار، لأن إنكارها سيجعلها تتغلّب علي. نجحت في ذلك بعض الشيء ـ مثل كل شيء آخر.

وصلت إلى أبلبيز مبكّرة خمس عشرة دقيقة. وجدت دايفيس هناك، واحتضنني في المدخل قبل أن نتوجّه إلى مقاعدنا. خطرت في بالي فكرة لا يمكن إنكارها واضحة وضوح الشمس في السماء: سيرغب حتماً في وضع ميكروباته في فمي.

مكتبة

«مرحبًا»، قلت.

«اشتقت إليك»، أجابني.

بعد رحلتي المتوتّرة في السيارة، بدأ عقلي يدور. قلت لنفسي إن التفكير ليس خطرًا، إن الأفكار ليست أعمالًا، إن الأفكار أفكار فقط.

تحب د. كارين سينغ أن تقول إن فكرة غير مرغوبة هي مثل سيارة تتجاوزك وأنت تقفين على جانب الطريق. قلت لنفسي إنني لست مضطرة إلى ركوب تلك السيارة، إن اللحظة الحاسمة ليست في التفكير بالفكرة، بل إن كنت سأتركها تحملني بعيدًا.

ثم ركبت في السيارة.

جلست على المقعد وبدل أن يجلس مقابلًا لي، جلس بجواري، وركه يلامس وركي. «تحدثت مع أمك أكثر من مرة»، قال. «أعتقد أنها بدأت تتقبّلني».

من يكترث إن كان يريد أن يشاركني في ميكروبات فمه؟ التقبيل جميل. التقبيل إحساس رائع. أريد أن أقبّله. لكنك لا تريدين أن تصابي ببكتيريا العطيفة؟ لن أكتسبها. ستمرضين لأسابيع. وقد تضطرين إلى تناول المضادات الحيوية. توقفي. ثم ستصابين بالتهاب القولون الغشائي الكاذب. أو بفيروس إبشتاين- بار من بكتيريا العطيفة. توقفي. قد يشلّك هذا، كله لأنك قبّلته برغم أنك لا تريدين ذلك فعلًا لأنه فعل مقرف جدًا، إقحام لسانك في فم شخص آخر. «هل أنت هنا؟» سأل.

«ماذا، نعم»، قلت.

«سألت كيف تشعرين».

مكتبة

«بخير»، قلت. «بصراحة، لست على ما يرام الآن، لكنني بخير بصورة عامة».

«لمَ لست على ما يرام الآن؟»

«هل تستطيع الجلوس مقابلًا لي؟»

«نعم، بالتأكيد». وقف وانتقل إلى المقعد المقابل، وذلك جعلني أشعر بأنني أفضل. للحظة، على أي حال.

«لا أستطيع فعل هذا»، قلت.

«لا تستطيعين فعل ماذا؟»

«هذا»، قلت. «لا أستطيع يا دايفيس. لا أعرف إن كنت سأستطيع ذلك يومًا. أعرف أنك تنتظر أن أتحسّن، وأنا أقدّر رسائلك كثيرًا. أنت في غاية اللطف، لكن على الأرجح أنّني الآن في أفضل حال قد أبلغها».

«أحبك هكذا».

«لا، أنت لا تفعل. أنت تريد أن نتعانق وأن نجلس على المقعد نفسه وأن نفعل ما يفعله الأحباب الطبيعيون. بالتأكيد أنك تريد ذلك».

لم يقل أي شيء لدقيقة. «ربما لا تجدينني جذابًا؟»

«الأمر ليس كذلك»، قلت.

«لكن قد يكون كذلك».

«ليس كذلك. ليس أنني لا أريد تقبيلك أو أنني لا أحب تقبيلك أو أي شيء. أنا... عقلي يقول إنّ التقبيل واحد من مجموعة من الأشياء

مكتبة

التي ستقضي علي. تقضي عليّ بالفعل. لكنه ليس حتى عن الموت، حقًا ـ أقصد، لو أنني أعرف أنني على وشك أن أموت، وقبّلتك مودّعة، فلن تكون آخر فكرة تخطر لي عن \الموت؛ ستكون عن الثمانين مليون ميكروب التي تبادلناها للتو. أعرف أنك عندما لمستني للتو لم تُصبني بأي مرض، أو من المحتمل أن ذلك لم يحدث. يا إلهي، لا أستطيع حتى أن أقول إن من المؤكد أن ذلك لم يحدث لأنني خائفة من ذلك بشدة. لا أستطيع أن أسميه أي شيء، فقط هو. لا أستطيع».

كان واضحًا أنني أتسبّب في إيلامه. رأيت ذلك في رعشة جفنيه. كنت أدرك أنه لم يفهمني، أنه لم يستطع فهمي. لم أَلُمْهُ. كلامي غير منطقي. أنا قصة مليئة بالثقوب.

«يبدو هذا مخيفًا بالفعل»، قال. أومأت فقط. «هل تشعرين بأنك تتحسنين؟» يريد مني الجميع أن ألقّمَهم تلك القصة ـ من الظلمة إلى الضوء، من الضعف إلى القوة، من الانكسار إلى الاكتمال. وأردتُ أنا ذلك أيضًا.

«ربما»، قلت. «بصراحة، أشعر بأنني هشّة جدًا، وكأنني قطع أعيد إلصاقها ثانية».

«أعرف ذلك الشعور».

«كيف حالك؟» سألت.

هزّ كتفيه.

«وكيف حال نوا؟» سألت.

«ليس بخير».

مكتبة

«اشرح ذلك لي»، قلت.

«إنه يفتقد أبي. نوا شخصان، على الأرجح: هناك الأخ المصغّر الذي يشرب الفودكا السيئة ويترأس عصابته الصغيرة من طلبة الصف الثامن. ثم هناك الطفل الذي يتسلل أحيانًا إلى سريري في الليل ويبكي. وكأن نوا يعتقد أنه إن أساء تصرفاته كفاية، فسيُجبر أبي على الخروج من مخبئه».

«إنه محطّم الفؤاد»، قلت.

«نعم. ألسنا جميعًا كذلك. إن... لا أريد الحديث عن حياتي، إن كنت لا تمانعين». خطر ببالي أن دايفيس يحب ما يُغضب ديزي ـ أنني لا أطرح الكثير من الأسئلة. الآخرون فضوليون بقسوة إزاء حياة فتى ملياردير، لكنني عالقةٌ دائمًا داخل نفسي لاستجوابه.

ببطء، أخذت المحادثة تتكوّن. بدأنا نتحدث معًا مثل شخصين كانا مقرّبين لزمن ـ نخبر الآخر عما حدث في حياتنا بدل أن نعيشها معًا. عندما دفع فاتورة الحساب، عرفت أن ما كنّاه، لم نعده.

لكن، عندما وصلت إلى المنزل وتمدّدت تحت غطائي، بعثت إليه برسالة نصية. هل أنت مستيقظ؟

لا تستطيعين الاستمرار بالطريقة الأخرى، ردّ، وأنا لا أستطيع الاستمرار هكذا.

أنا: لماذا؟

هو: أشعر وكأنك تحبينني عن بعد. أريد أن أُحَبَّ عن قرب.

مكتبة

واصلت الكتابة والمحو، الكتابة والمحو. ولم أردّ عليه في نهاية الأمر.

اليوم التالي في المدرسة، كنت أمشي عبر الكافتيريا متوجهة نحو طاولة غدائنا عندما اعترضتني ديزي. «هولمزي، يجب أن نتحدث على انفراد». أجلستني على طاولة شاغرة تقريبًا، على بعد بضعة مقاعد من بعض طلبة الصف التاسع.

«هل انفصلت عن ميكال مرة أخرى؟»

«لا، بالتأكيد لا. الشيء السحري في كوننا صديقين فقط هو أنك لا تستطيعين الانفصال. أشعر كأنني نجحتُ في حل سر الكون بفكرة الأصدقاء فقط هذه. لكن لا، سننطلق في مغامرة».

«نحن؟»

«هل تشعرين بأنك استعدت عقلك كفاية لدرجة تستطيعين معها، على سبيل المثال، التسلل تحت مدينة إنديانا بوليس لحضور عرض فني للعصابات؟»

«حضور ماذا؟»

«حسنًا، تذكرين كيف اقترحت تلك الفكرة لميكال ليجري مونتاج صور للسجناء الذين جرت تبرئتهم؟»

«كانت بمعظمها فكرته هو»

«لا داعي لأن نتوه في التفاصيل، يا هولمزي. النقطة المهمّة هي أنه أنهاها وقدمها إلى مجموعة فنية رائعة اسمها المدينة المعروفة،

مكتبة

وسيعرضونها لليلة واحدة فقط في معرض سيقيمونه ليلة الجمعة اسمه الفن تحت الأرض، حيث يحوّلون جزءًا من نفق مجرى بوغ إلى معرض فني». مجرى بوغ هو النفق الذي يفرغ ماءه في النهر الأبيض والذي جرى التعاقد مع شركة بيكيت لتوسيعه، العمل الذي لم ينتهوا من إنجازه أبدًا. كان يبدو مكانًا غريبًا لمعرض فني.

«لا أريد أن أقضي ليلة الجمعة في معرض فن غير قانوني».

«من قال إنه غير قانوني؟ لديهم تصريح. لكنه تحت الأرض. أعني، تحت الأرض حرفيًا». لويتُ عندئذٍ تعابير وجهي. «إنه أروع شيء يحصل في إنديانا بوليس على الإطلاق، ولدى صديقي عمل فني في المعرض. بالتأكيد، لست مضطرة للحضور، لكن... احضري».

«لا أريد أن أكون العجلة الثالثة».

«سأكون متوترة ومحاطة بأشخاص أروع مني وأريد صديقتي المقربة أن تكون هناك».

فتحت الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على سندويش زبدة الفستق والعسل وقضمت قطعة.

«أنا أفكر في الموضوع»، اعترفت.

ثم، بعد أن ابتلعت، قلت، «حسنًا، فلنفعل بذلك».

«نعم! نعم! سنأتي لنقلّك الساعة السادسة والربع يوم الجمعة؛ ستكون ليلة رائعة».

الطريقة التي ابتسمت بها نحوي جعلت من المستحيل ألّا أبتسم. بصوت منخفض لم أكن متأكّدة أن ديزي سمعته، قلت، «أحبك يا

مكتبة

ديزي. أعرف أنك تقولين هذا لي دائمًا ولا أقوله أبدًا. لكنني أحبك فعلًا».

«آآآه اللعنة. لا تتهاوي أمامي يا هولمزي».

وصل ميكال وديزي عند باب منزلنا الساعة السادسة والربع تمامًا. كانت ديزي ترتدي فستانًا وبنطلونًا ضيقًا يخفيه معطفها السميك، وميكال يرتدي بدلة رمادية فضية أكبر من حجمه قليلًا. وأنا كنت أرتدي تيشيرتًا بكمّ طويل، جينزًا، ومعطفًا. «لم أكن أعرف أن عليّ ارتداء ملابس أنيقة للمجاري»، قلت بخجل.

«مجاري الفن»، ابتسمت ديزي. تساءلت إن كان من الأفضل أن أغيّر ملابسي، لكنها أمسكتني وقالت، «هولمزي، تبدين مشرقة. تبدين مثل... مثل نفسك».

جلست في المقعد الخلفيّ بسيارة ميكال، وبينما هو يقود باتجاه الجنوب على طريق ميتشيغان، شغّلت ديزي إحدى أغانينا المفضّلة. «أنت الشخص المقصود». ضحك ميكال وأنا وديزي نغنّي الكلمات بصوت مرتفع بعضنا لبعض. ردّدت هي مقاطع المغني الرئيسي وأنا ردّدت الكورس الذي كرر، «أنت كل شيء كل شيء كل شيء»، وشعرت بأنني كذلك بالفعل. أنت النار والماء الذي يخمدها. أنت من يُملي القصة، البطل، والشخصية الجانبية. أنت الحكواتي والقصة التي يحكيها. أنت شيء لشخص، ولكنك أيضًا أنت أنت.

غيّرت ديزي الأغنية إلى أغنية رومانسية ردّدتها مع ميكال، وبدأت التفكير في السلاحف الممتدة إلى ما لا نهاية. فكرت في أن المرأة

مكتبة

العجوز والعالِم كلاهما محقّ. عمر الكون مليارات السنين، والحياة نتاج تطوّر أحماض نووية وما إلى ذلك. إلّا أن الكون أيضًا هو القصص التي نحكيها عنه.

انعطف ميكال عن ميتشغان باتجاه الشارع العاشر، وقدنا لفترة حتى وصلنا إلى محل يبيع برك السباحة تعلوه إشارة ضوئية وامضة مكتوب عليه 'برك سباحة روزنثال'. وجدنا موقف السيارات نصف ممتلئ. أوقفت ديزي الموسيقى وركن ميكال السيارة في أحد المواقف. غادرنا السيارة ووجدنا أنفسنا محاطين بخليط غريب من محبيّ الفن والأزواج الذين تراوح أعمارهم بين العشرين عامًا ومنتصف العمر. بدا أن كل من هناك، سوانا، يعرف بعضهم بعضًا ووقفنا ثلاثتنا بجوار سيارة ميكال وقتًا طويلًا بصمت، نتأمل المشهد فقط، حتى توجّهت نحونا امرأة متوسطة السن ترتدي ملابس سوداء وقالت، «هل أنتم هنا لحضور الفعالية؟»

«أنا، أنا ميكال تيرنر»، قال ميكال. «لدي، لدي لوحة في المعرض».

«السجين ١٠١؟»

«نعم. أنا هو».

«أنا فرانسيس أوليفر. أعتقد أن السجين ١٠١ واحدة من أقوى القطع الفنية في المعرض. وأنا مديرة المعرض، لهذا من المفروض أن أعرف. تفضّلوا، تعالوا، لنذهب معًا. سيكون من المدهش حقًا أن أعرف المزيد عن طريقة عملك».

بدأ ميكال وفرانسيس المشي عبر موقف السيارات، وكلما مرت

مكتبة

بضع ثوان، توقفت فرانسيس وقالت، «أوه، يجب أن أعرّفك على..». ونتوقف لفترة لنلتقي فنانًا أو جامع قطع فنية أو «شريكًا مموّلًا». بالتدريج، بدأ ميكال يختفي في الزحمة بين محبي السجين ١٠١ الذين أرادوا التحدث معه عن اللوحة، وبعد أن وقفنا وراءه لفترة، قبضت ديزي على يده وقالت، «سنتوجه إلى المعرض. تمتّع بكل شيء. أنا فخورة بك».

«سآتي معكما»، قال، ملتفتًا عن جمع من طلاب الفن من هيرون، كلية الفنون في إنديانا بوليس.

«لا، تمتّع أنت. عليك أن تقابل كل هؤلاء الأشخاص حتى يشتروا لوحاتك». ابتسم وقبّلها ثم عاد إلى جمهور المعجبين.

عندما وصلت أنا وديزي إلى طرف موقف السيارات، رأينا ضوء كشاف يلوح يمنة ويسرة عبر الأشجار، فنزلنا عن التلة الصغيرة ومشينا باتجاهه إلى أن انفتحت الأشجار عن حوضٍ إسمنتي واسع. كان هناك خيط رفيع من الماء ـ كنت أستطيع العبور فوقه بسهولة ـ يجري في قعره. مشينا باتجاه الرجل الملتحي الذي وقف يلوّح بالكشّاف، فعرّفنا بأنّ اسمه كيب وأعطانا قبعات صلبة بمصابيح رأسية وكشافات وقال «اتبعا النفق لمئتي ياردة، ثم انعطفا لأول يسار، وستصلان إلى المعرض».

تتبّع المصباح في قبعتي جدول الماء. عن بُعد، تمكّنت من رؤية بداية النفق، مربع محفور في جانب الهضبة ينتهي عنده الضوء. كانت هناك عربة تسوّق مقلوبة عند بداية القناة، عالقة على جانب صخرة مغطّاة بالطحالب. ونحن نمشي باتجاه مدخل النفق، نظرت إلى الأعلى

مكتبة

إلى ظلال أغصان أشجار الإسفندان السود الخالية من الأوراق تقسّم السماء.

جرى الجدول على طول الجانب الأيسر لنفق مجرى بوغ؛ مشينا على طريق جانبي مصنوع من الخرسانة مرتفع قليلًا على الجهة اليمنى من الجدول. غمرتنا الرائحة فورًا ـ رائحة المجاري والتعفّن الغثة. ظننت أن أنفي سيعتادها.

بعد بضع خطوات، بدأنا نسمع أصوات القوارض مسرعة في قاع الجدول. سمعنا أصواتًا أيضًا ـ صدى حديث غير مفهوم بدا كأنه آتٍ من جميع الجهات. أضاءت أنوار قبعاتنا الغرافيتي الذي كسا الجدران ـ شعارات مرشوشة بالدهان بحروف كبيرة، وصور مرسومة ورسائل. توقّف ضوء ديزي على صورة تمثّل جُرذًا سمينًا يشرب من قارورة خمر والتعليق عليها، الملك الجرذ يعرف أسرارك. رسالة أخرى، مكتوبة بما بدا أنه دهان أبيض للمنازل، تقول، ليس المهم كيف تموت. المهم من تكون عندما تموت.

«هذا مرعب شيئًا ما»، همست ديزي.

«لمَ تهمسين؟»

«مرعوبة»، همست. «هل قطعنا مئتي ياردة؟»

«لا أدري»، قلت. «لكنني أسمع أصوات أناس هناك». استدرت وسلطت ضوئي على مدخل النفق، فلوّح لنا رجلان في منتصف العمر. «كما ترين، كل شيء على ما يُرام».

لم يكن الجدول حيزًا مائيًا أكثر من كونه بركة ماء صغيرة بطيئة

مكتبة

الحركة؛ تأمّلت جرذًا يعبره من دون أن يبتلّ أنفه حتى. «كان ذلك جُرذًا»، قالت ديزي، بصوت مقبوض.

«إنه يعيش هنا»، قلت. «نحن المجتاحتان». واصلنا المشي. بدا كأنّ الضوء الوحيد في العالم منبعث من أشعة مصابيح القبعات والكشّافات الصفر ـ كأنّ كل من هناك قد أصبحوا شعاع ضوء، يتراقصون عبر النفق بمجموعات صغيرة.

أمامنا، رأيت مصابيح رأسية تنعطف باتجاه اليسار، في نفق جانبي مربّع، بارتفاع مترين ونصف مترٍ تقريبًا. قفزنا فوق الجدول الهزيل، لنتجاوز لافتة مكتوب عليها، مشروع بيكيت للهندسة، ودخلنا نفقًا جانبيًا مصنوعًا من الخرسانة.

تمكّنّا من رؤية الأعمال الفنية فقط بسبب المصابيح الرأسية والكشافات، لهذا كانت اللوحات والصور المعروضة على الجدران تظهر وتختفي. كي تتمكّن من رؤية لوحة ميكال بأكملها، عليك الوقوف أمام الحائط المقابل في النفق. كان عملًا رائعًا بحق ـ السجين ١٠١ بدا حقيقيًا مثل أي شخص آخر، إلّا أنه كان مؤلَّفًا من أجزاء من مئة صورة اعتقال عثر عليها ميكال لرجال اتُّهموا بالقتل ثم تبينت براءتهم. حتى عن قرب، لم أستطع أن أتبيّن أن السجين ١٠١ ليس حقيقيًا.

كانت بقية الأعمال الفنية جميلة أيضًا ـ لوحات تجريدية كبيرة لأشكال هندسية حادّة، مجموعة كراسٍ خشبية قديمة متراصّة بصورة غير مستقرّة تلامس السقف، صورة ضخمة لطفل يقفز على الترامبولين

مكتبة

وحده في وسط حقل ذرة واسع محصود ـ إلّا أنّ لوحة ميكال كانت المفضّلة لدي، ليس فقط لأنني أعرفه.

بعد فترة، سمعنا أصواتًا تقترب، وأصبح المعرض مزدحمًا. شغّل أحدهم ستيريو، وبدأت الموسيقى في التردّد عبر النفق. مُرّرت أكواب بلاستيكية وبعدها قوارير الخمر، وارتفعت الأصوات في المكان أعلى وأعلى، وبرغم أن البرد كان قارصًا هناك، بدأت أشعر بالتعرّق، فسألت ديزي إن أرادت أن نتمشّى.

«نتمشّى؟»

«نعم، لا أدري، على طول النفق أو شيئًا من هذا القبيل».

«تريدين أن نتمشّى على طول النفق».

«نعم. أقصد، انسي الأمر».

أشارت إلى الظلمة التي تتعدّى ضوء مصابيحنا الرأسية. «تقترحين أن نمشي في الفراغ».

«ليس مسافة ميل أو أيّ شيء. فقط لنرى ما يمكن أن نراه».

تنهّدت ديزي. «حسنًا. فلنتمشَّ».

لم تمرّ سوى دقيقة واحدة قبل أن يصبح الهواء ألطف. كان النفق أمامنا معتمًا، وانثنى في قوس طويل بطيء بعيدًا عن الحفلة حتى لم نعد نرى الضوء المنبعث منها. كنا نستطيع سماع الموسيقى وأصوات الناس فوقها، لكنها بدت بعيدة، مثل حفلة تقود سيارتك متجاوزًا موقعها.

مكتبة

«لا أعرف كيف بإمكانك أن تكوني هادئة لهذه الدرجة هنا، على عمق خمسة أمتار تقريبًا تحت إنديانا بوليس، غارقة إلى كاحليك في براز الجراذين، لكنك تُصابين بنوبة ذعر عندما تظنين أن إصبعك ملتهبة».

«لا أدري»، قلت. «هذا ليس مخيفًا».

«بل هو كذلك»، قالت.

مددت يدي وأطفأت مصباحي الرأسي. «أطفئي مصباحك»، قلت.

«حتمًا لا».

«أطفئيه. لن يحدث أي شيء سيّىء». أطفأت مصباحها، وتحوّل العالم إلى سواد. شعرت بعيني تحاول التعوّد عليه، لكن لم يكن هناك ضوء لتتعود عليه. «لا تستطيعين رؤية الجدران الآن، أليس كذلك؟ لا تستطيعين رؤية الجراذين. دُوري أكثر من مرة ولن تتمكّني بعدها من معرفة المدخل من المخرج. هذا مخيف. تخيّلي الآن لو أننا غير قادرتين على الكلام، لو أننا لا نستطيع أن نسمع صوت تنفّس الآخر. تخيّلي لو أننا لا نملك الإحساس باللمس، لدرجة أننا حتى لو وقفنا متجاورتين، فلن نعرف ذلك أبدًا.

«تخيّلي أنك تحاولين العثور على شخص ما، أو حتى تحاولين العثور على نفسك، لكن لا حواس لديك، وما من طريقة لتعرفين أين هي الجدُر، أيهما الطريق إلى الأمام وأيهما إلى الوراء، ما هو الماء وما هو الهواء. أنت بلا حواسّ وبلا شكل ـ تشعرين بأن بإمكانك وصف ما أنت فقط بتحديد ما ليس أنت، وأنت طافية في جسد من دون

مكتبة

القدرة على التحكّم. لا يحق لك أن تقرري من تحبين أو أين تعيشين أو أين تأكلين أو مما تخافين. أنت عالقة هناك فقط، وحدك تمامًا، في هذه العتمة. هذا مخيف. هذا»، قلت وأضأت المصباح، «هذا تحكّم. هذه قوة. قد توجد جراذين هنا وعناكب وغيرها الكثير. لكننا نسلّط الضوء عليها، لا العكس. نعرف مكان الجدران، مكان الدخول والخروج. هذا»، قلت، وأغلقت مصباحي مرة ثانية، «ما أشعر به عندما أكون خائفة. هذا»، وأضأت الكشاف مرة أخرى، «نزهة في حديقة».

مشينا لفترة في صمت. «بهذا السوء؟» سألتْ أخيرًا.

«أحيانًا»، قلت.

«ثم يعمل كشافك مرة أخرى»، قالت.

«حتّى الآن».

ونحن نمشي على طول النفق، وصوت الموسيقى يخفّ وراءنا، هدأت ديزي قليلًا. «أفكر في قتل آيالا»، قالت. «هل ستأخذين هذا بطريقة شخصية؟»

«لا»، قلت. «لكنني بدأت أحبّها».

«هل قرأت آخر قصة؟»

«القصة التي يذهبون فيها إلى رايلوث لتوصيل محوّلات طاقة؟ أحببت المشهد الذي تنتظر فيه راي وآيالا ذلك الرجل في البار، ويتحدثان. أحب مشاهد الآكشن وكل شيء، لكن الحوار هو المفضل لدي. كذلك، راقني أنني أقمت علاقة مع شخص من توايليك. أو، أن

مكتبة

آيالا قامت بذلك، أعتقد. تجعلني كتاباتك أشعر وكأنها حقيقية، وكأني هناك بالفعل».

«شكرًا»، قالت. «جعلتني أشعر أنه ربما يجب ألّا أقتلها».

«لا أمانع إن قتلتها. فقط اجعليها تموت بطلة».

«بالتأكيد. هذا حتميّ. كنت أفكر في أنني سأجعلها تموت ضحية لينعم الكل على غرار فيلم روج-ون. إذا كان هذا يروقك؟»

«نعم سيروقني»، أخبرتها.

«يا إلهي، هل ازدادت الرائحة سوءًا؟» سألتْ.

«هي غير آخذة بالتحسّن»، اعترفت. كانت الرائحة أقرب إلى النفايات المتعفّنة والمراحيض التي لم يجرِ تصريفها، وبينما تجاوزنا نفقًا فرعيًا، قالت ديزي إنها تريد العودة، لكن في آخر المسافة أمامنا استطعت أن أرى نقطة ضوء رمادي، فأردت أن أرى ماذا يوجد في النهاية.

ونحن نمشي، بدأت أصوات المدينة تعلو ببطء وتحسّنت الرائحة لاقترابنا من الهواء الطلق. بدأ الضوء الرمادي يكبر حتى وصلنا إلى طرف النفق: كان مفتوحًا وغير مكتمل ـ تساقطت فيه قطرات الماء الذي افتُرض أن يجري تحويله من النهر الأبيض، بعمق طابقين تحتنا.

نظرت إلى الأعلى. كان الوقت قد تجاوز العاشرة، لكنني لم أر المدينة مضيئة بهذه الدرجة الساطعة من قبل. استطعت رؤية كل شيء: الطحالب الخضراء على الصخور في النهر تحتنا؛ رغوة الفقاقيع الذهبية

مكتبة

في قاع الشلّال؛ الأشجار في الأفق منحنية على الماء مثل سقف كنيسة؛ أسلاك الكهرباء المتدلّية عبر النهر تحتنا؛ طاحونة حبوب ذهبية اللون متوقّفة عن الحركة في ضوء القمر؛ أضواء نيون سبيدواي ومصرف تيشز في الأفق.

إنديانا بوليس مسطّحة مستوية إلى درجة أنك لا تستطيع تأمّلها من علوّ؛ ليست مدينة بمناظر لا تقُدّر بثمن. لكنّ لديّ هذا المنظر الآن، منظر لا يُتوقَّع أن يكون هنا، حيث تبدو المدينة تمتد تحتي وأمامي. مرّت دقيقة واحدة حتّى تذكّرت أننا في الليل، وأنّ هذا المنظر الطبيعي، بإضاءته الفضية يراه مَن في الأعلى مجرّد ظلمة.

فاجأتني ديزي بالجلوس، ساقاها تتدلّيان على الحافة الخرسانية. جلست على الجهة الثانية من قطرات الماء الساقطة، وتأمّلنا المشهد نفسه معًا وقتًا طويلًا.

ذهبنا إلى المرج تلك الليلة. تحدثنا عن الكلية والتقبيل والدين والفن، ولم أشعر بأنني أشاهد فيلمًا لمحادثتنا. كنت أعيشها. أصغيت إليها وعرفت أنها كانت تصغي إليّ.

«أتساءل إن كانوا سيكملون هذا الشيء يومًا»، سألت ديزي في نقطة ما.

«أتمنّى ألّا يفعلوا ذلك نوعًا ما»، قلت. «أقصد، أنا مع الماء النظيف لكنني أريد أن أتمكّن من العودة إلى هنا بعد عشر سنوات أو عشرين سنة أو شيء كذلك. عوضًا عن الذهاب إلى حفل جمع الشمل للثانوية العامة، أريد أن أكون هنا». معك، أردت أن أقول.

مكتبة

«نعم»، قالت. «حافظوا على قذارة مجرى بوغ، لأن المنظر من نفق معالجة المياه غير المكتمل رائع. شكرًا يا راسيل بيكيت، لفسادك وعدم كفاءتك».

«مجرى بوغ»، تمتمت. «انتظري، أين يبدأ مجرى بوغ؟ أين تقع فوّهته؟»

«فوّهة النهر هي المكان الذي ينتهي فيه، لا الذي يبدأ منه. هذه هي الفوّهة». تأمّلتها وهي تدرك المغزى. «مجرى بوغ. يا إلهي، هولمزي. نحن في فم العدّاء».

وقفت. شعرت لسبب ما بأنّ بيكيت قد يكون وراءنا، وكأنه قد يدفعنا من حافة نفقه إلى النهر تحتنا. «الآن بدأت أشعر بالرعب»، قلت.

«ماذا سنفعل؟»

«لا شيء»، أجبتها. «لا شيء. سنستدير، نعود إلى الحفلة، نقضي الوقت مع أهل الفن الراقين، ونعود إلى المنزل في الوقت المحدّد». بدأت المشي إلى الوراء تجاه صوت الموسيقى البعيدة. «سأخبر دايفيس، كي يعرف. سنترك له الخيار إن أراد أن يخبر نوا. عدا ذلك، لا نتفوّه بكلمة».

«حسنًا»، قالت، وهي تمشي بسرعة لتحاذيني. «أعني، هل هو معنا هنا الآن؟»

«لا أدري»، قلت. «لا أعتقد أن علينا أن نعرف».

«حسنًا»، قالت. «لكن، كيف ظلّ هنا طول هذا الوقت؟» كان

مكتبة

عندي حدس، لكنني لم أقل أيّ شيء. «يا إلهي، هذه الرائحة..». قالت، صوتها يخمد تدريجيًا وهي تنطقها.

تعتقد أن حل القصص الغامضة سيريحك، أن إغلاق الحلْقة سيريح ويهدّئ فكرك. لكنّ ذلك لا يحدث أبدًا. الحقيقة تخذل دائمًا. ونحن نقطع المعرض، بحثًا عن ميكال، لم أشعر بأنني عثرت على الدمية الصلبة. لم يجرِ إصلاح أي شيء، ليس بالفعل. كان الأمر أشبه بما قاله عالِم الحيوان عن العلوم: لا تحصلين على الأجوبة بالفعل. بل تتكوّن لديك أسئلة أفضل.

وجدنا ميكال أخيرًا مستندًا على حائط مقابلٍ للوحته، يتحدّث مع امرأتين أكبر منه سنًا. قاطعتهم ديزي وأمسكت بيده. «أكره أن أفرّق هذا الجمع»، قالت، «لكن لدى هذا الفنان الشهير وقت محدد للعودة إلى البيت».

ضحك ميكال، وتوجّهنا ثلاثتنا إلى خارج النفق، إلى إنارة موقف السيارات الفضية الساطعة، ومنها إلى سيارة ميكال. في اللحظة التي أغلقتُ فيها الباب، قال، «كانت هذه أروع ليلة في حياتي شكرًا لحضوركما يا إلهي كان هذا أفضل شيء يحدث لي على الإطلاق أشعر وكأنني سأصبح فنانًا، فنانًا كبيرًا. كانت ليلة رائعة جدًا. هل تمتعتما؟»

«أخبرنا كل شيء»، قالت ديزي، من دون أن تجيب عن سؤاله.

عندما وصلت إلى المنزل، كانت أمي تجلس حول طاولة المطبخ، تشرب كوب شاي. «ما هذه الرائحة؟» سألت.

مكتبة

«مجارٍ، عرق، عفن ـ خليط من الأشياء».

«أنا قلقة يا آزا. قلقة لأنك تفقدين صلتك بالواقع».

«أنا لا أفقدها»، قلت. «أنا متعبة فقط».

«الليلة، ستسهرين وتتحدثين معي».

«عن أي شيء؟»

«أين كنت، ماذا كنت تفعلين، مع من كنت تفعلين ذلك. عن حياتك».

فأخبرتها. أخبرتها أنّ ديزي وميكال وأنا حضرنا عرضًا فنيًا يستمر ليلة واحدة تحت الأرض في وسط البلد، وأنني مشيتُ مع ديزي حتّى نهاية نفق بيكيت الذي لم يكتمل، وأخبرتها عن الذهاب إلى المرج، وأخبرتها عن فم العدّاء، عن اعتقادي أن بيكيت قد يكون في الأسفل هناك، عن الرائحة النتنة.

«ستخبرين دايفيس؟» سألت.

«نعم».

«لكن لن تخبري الشرطة؟»

«لا»، قلت. «إذا أخبرت الشرطة وإذا كان ميّتًا هناك، فلن يصبح بيت دايفيس ونوا ملكهما بعد ذلك. سيصبح ملك توَتارا».

«توَ... ماذا؟»

«توَتارا. تشبه السحلية، لكنها ليست سحلية. من نسل الديناصورات.

مكتبة

تعيش لمئة وخمسين سنة تقريبًا، ووصية بيكيت تترك كل شيء للتوَتارا، حيوانه الأليف. البيت، الشركة، كل شيء».

«جنون الثروة»، تمتمت أمي. «أحيانًا تظنين أنك تصرفين المال، لكن طوال الوقت، المال هو الذي يصرفك». نظرتْ إلى كوب الشاي، ثم إليّ. «إذا عبدته فقط. فأنت تخدمين ما تعبدينه فقط».

«لهذا يجب أن نحاذر من نعبد»، قلت. ابتسمت، ثم أرسلتني لأستحمّ. وأنا واقفة تحت الماء، تساءلت عمّا سأعبد عندما أكبر، وكيف سينتهي ذلك بتكوين قوس حياتي بهذا الشكل أو ذاك. كنت ما زلت في البداية. من الممكن أن أصبح أيّ شخص.

مكتبة

٢٣

استيقظت صباح اليوم التالي، يوم سبت، أشعر بأنني تناولت قسطًا كافيًا من النوم، قطرات المطر المتجمّدة تومض على نافذة غرفة نومي. في إنديانا بوليس، نادرًا ما يمنحنا الشتاء ذلك الثلج الجميل الذي تتزلّج وتتزحلق عليه؛ التساقط الشتوي المعتاد عندنا هو خليط اسمه «مزيج الشتاء» من حبيبات الثلج، المطر المتجمّد، والرياح.

لم يكن الجوّ حتى بتلك البرودة ـ درجة مئوية ونصف درجة تقريبًا ـ إلّا أن الرياح كانت تعوي في الخارج. قمت وارتديت ملابسي، تناولت الإفطار، ابتلعت حبّة دواء، وشاهدت القليل من التلفزيون مع أمي. قضيت الوقت في المماطلة ـ أُخرج هاتفي، أبدأ ببعث رسالة نصية إليه، ثم أعيد الهاتف. ثم أعود فأُخرجه، لكن لا. ليس بعد. لم يبدُ أبدًا أنه الوقت الملائم. لكن بالتأكيد، لن يكون أبدًا الوقت الملائم.

مكتبة

تذكّرت بعد وفاة أبي، لفترة، بدا الأمر حقيقيًا وغير حقيقي لي. لأسابيع، بالفعل، كنت أستطيع استحضاره إلى الوجود. كنت أتخيله يدخل البيت، متعرّقًا، بعد أن انتهى من جزّ العشب، ويحاول احتضاني وأتلوّى مبتعدة عنه، لأن العرق كان يُرعبني وقتها أيضًا.

أو أكون في غرفتي، مستلقية على بطني، أقرأ كتابًا، وأنظر إلى الباب المغلق وأتخيله يفتحه، ثم يكون معي في الغرفة، وأرفع بصري له بينما يجلس على ركبته ليقبّل أعلى رأسي.

ثم أصبح استحضاره أصعب، شمّ رائحته، الإحساس به يرفعني. مات أبي فجأة، ولكن أيضًا مع مرور السنين. كان لا يزال يموت، في الواقع ـ ما يعني أنه لا يزال حيًا.

يتحدث الناس دائمًا وكأنّ هناك خطًا واضحًا يفصل بين الخيال والذاكرة، لكنّ ذلك غير موجود، على الأقل ليس لي. أتذكّر ما تخيلته وأتخيل ما أتذكّره.

أخيرًا بعثت برسالة نصية إلى دايفيس بعد الظهر: يجب أن نتحدّث. هل تستطيع الحضور إلى منزلي اليوم؟

ردّ، ما من أحد لمراقبة نوا. هل بإمكانك الحضور إلى هنا؟

أريد أن أتحدّث معك وحدك، كتبت. أردت أن أترك الخيار لدايفيس سواء قرر أن يخبر أخاه أو لا.

أستطيع أن أحضر الخامسة والنصف.

شكرًا. أراك عندئذٍ.

مكتبة

تحرك اليوم ببطء شديد. حاولت القراءة، مراسلة ديزي، مشاهدة التلفزيون، لكن لم يتمكّن أي شيء من تسريع مرور الوقت. لم أكن متأكّدة إذا كان من الأفضل أن تتوقف الحياة عند تلك اللحظة، أو عند النهاية الأخرى لما هو آتٍ.

الساعة الرابعة والنصف، كنت أقرأ في غرفة المعيشة بينما أمي تدفع الفواتير. «سيحضر دايفيس بعد قليل»، أخبرتها.

«لا بأس. لديّ بعض المشاوير. هل تحتاجين إلى أيّ شيء من البقالة؟»

هززت رأسي قائلة لا.

«هل تشعرين بالقلق؟»

«هل نستطيع أن نعقد اتفاقًا ينصّ على أن أخبرك أنا عندما أشعر بأنني قلقة بشأن مشكلة عقلية بدلًا من أن تسأليني أنت؟»

«من المستحيل ألّا أقلق يا حبيبتي».

«أعرف، لكن من المستحيل أيضًا ألّا أشعر بوزن ذلك القلق مثل صخرة على صدري».

«سأحاول».

«شكرًا يا أمي. أحبّك».

«وأنا أحبك أيضًا. كثيرًا جدًا».

مكتبة

اطّلعت على خيارات التلفزيون التي لا تنتهي، لا شيء فيها مشوّق بالتحديد، حتى سمعت قرع دايفيس ـ رقيقًا وغير ثابت ـ على الباب.

«مرحبًا»، قلت، واحتضنته.

«مرحبًا»، قال. أشرت إلى الأريكة ليجلس عليها. «ما أخبارك؟»

«اسمع»، قلت. «دايفيس، أبوك. أعرف مكان فم العدّاء. إنها فوّهة مجرى بوغ، مكان مشروع الشركة الذي لم يكتمل».

جفل، ثم أومأ. «هل أنت متأكّدة؟»

«كُلّيًا»، قلت. «أعتقد أنه قد يكون هناك. ديزي وأنا كنا هناك الليلة الماضية، و...».

«هل رأيتماه؟»

هززت رأسي. «لا. لكنّ فوّهة المجرى، فم العدّاء. يبدو الأمر منطقيًا».

«لكنها ليست سوى ملاحظة على هاتفه فقط. تظنين أنه كان هناك طوال الوقت؟ مختبئًا في المجاري؟»

«ربما»، قلت. «لكن... لا أعرف».

«لكن؟»

«لا أريد أن أقلقك، لكن كانت هناك رائحة نتنة. رائحة نتنة جدًا».

«قد يكون ذلك أي شيء»، قال. لكنني رأيت الخوف على وجهه.

«أعرف، نعم، بالتأكيد، من الممكن أن يكون أي شيء».

مكتبة

«لم أفكر... لم أسمح لنفسي بالتفكير ـ» ثم احتبس صوته. الصرخة التي انطلقت أخيرًا منه كانت مثل انشطار السماء. سقط بين ذراعي، واحتضنته على الأريكة. شعرت باختلاج قفصه الصدري. لم يكن نوا فقط من يفتقد أباه. «يا إلهي، إنه ميّت، أليس كذلك؟»

«لا تعرف ذلك»، قلت. لكنه كان يعرف. هناك سبب لعدم وجود أي أثر له أو اتصال: لقد كان ميّتًا طوال الوقت.

تمدّد وتمدّدت معه، بالكاد تسعنا الأريكة البالية. ظل يقول، ماذا سأفعل، ماذا سأفعل، رأسه على كتفي. تساءلت إن كان إخباري له خطأ. ماذا سأفعل؟ سأل مرة بعد مرة، بتوسّل.

«تستمر في الحياة»، قلت له. «لديك سبع سنوات. لا يهم ما الذي جرى بالفعل، سيظل حيًا قانونيًا لمدة سبع سنوات، وسيظلّ البيت لكما. هذا وقت طويل لبناء حياة جديدة، يا دايفيس. قبل سبع سنوات، أنا وأنت لم نكن قد التقينا بعد».

«ليس لدينا أيّ أحد الآن»، تمتم. تمنيت لو أنني أستطيع أنّ أخبره أني معه، أن بإمكانه الاعتماد عليّ، لكنه لا يستطيع ذلك.

«لديك أخوك»، قلت.

جعله هذا يتمزّق ألمًا مرة أخرى، وتحاضَنّا وقتًا طويلًا، حتى عادت أمي إلى المنزل بالمشتريات. قفزت أنا ودايفيس معًا جالسين، برغم أننا لم نكن نفعل أيّ شيء.

«آسفة لمقاطعتكما»، قالت أمي.

«كنت في طريقي إلى الخارج»، قال دايفيس.

مكتبة

«لست مضطرًا إلى المغادرة»، أنا وأمي قلنا ذلك في الوقت نفسه.

«لكنني أريد هذا»، قال. مال واحتضنني بيد واحدة. «شكرًا»، همس، برغم أنني لم أكن متأكّدة أنني أسديت إليه أيّ خدمة.

توقّف دايفيس على العتبة لحظة، نظر إلينا في ما تراءى له أنه نعيم أسريّ. ظننت أنه قد يقول شيئًا ما، لكنه لوّح فقط، بخجل وارتباك، واختفى خارجًا من الباب.

كانت ليلة هادئة في بيت آل هولمز، مثل أي ليلة. اشتغلت على مقالة عن الحرب الأهلية لمادة التاريخ. في الخارج، اليوم ـ الذي لم يكن مشرقًا على نحو خاص ـ ذاب في العتمة. أخبرت أمي أنني سأذهب إلى النوم، ارتديت بيجامتي، نظّفت أسناني، غيّرت اللصقة الطبية على الجرح المتكلّس فوق إصبعي، تمدّدت في سريري، وبعثت برسالة نصية لدايفيس. مرحبًا.

عندما لم يردّ، كتبت لديزي. تحدّثت مع دايفيس.

هي: كيف جرت الأمور؟

أنا: ليس بأحسن حال.

هي: هل تريدين أن أحضر؟

أنا: نعم.

هي: أنا في الطريق.

مكتبة

بعد ساعة، كنت أنا وديزي متمدّدتين بجوار بعضنا بعضًا على سريري، كمبيوتراتنا على حجرنا. بدأتُ أقرأ قصة آيالا الجديدة. في كل مرة أضحك على شيء، تقول، «ما المضحك؟» وأخبرها. بعد أن انتهيت من القصة، تمدّدنا فقط، في السرير معًا، محدقتين في السقف.

«حسنًا»، قالت ديزي بعد فترة. «انتهى كل شيء على ما يرام في النهاية».

«كيف؟»

«أصبحت بطلاتنا ثريات ولم يتأذّ أي شخص».

«الكلّ تأذّى»، نبّهتها.

«ما أقصده هو أنه لم يُصب أحد».

«مزّقتُ كبدي».

«أوه، نعم. نسيت ذلك. على الأقل لم يمت أحد».

«هارولد مات! ومن المحتمل بيكيت!»

«هولمزي، أنا أحاول إيجاد نهاية سعيدة هنا. توقّفي عن إفسادها لي».

«أنا مثل آيالا تمامًا»، أجبت.

«طبق الأصل».

«مشكلة النهايات السعيدة»، قلت، «هي إمّا أنها غير سعيدة، أو ليست نهايات فعلًا. في الحياة الواقعية، تتحسّن بعض الأشياء ويسوء بعضها. ثم في النهاية، تموتين».

مكتبة

«ضحكت ديزي. «كما عوّدناكم، معنا آزا هولمز هنا لتذكّرنا كيف تنتهي القصة فعلًا، بانقراض الجنس البشري».

ضحكت. «لأنها النهاية الوحيدة الواقعية».

«لا، ليست كذلك يا هولمزي. أنت تختارين نهاياتك، وبداياتك. تختارين الإطار. قد لا تختارين ما هو موجود في الصورة، لكنك تتّخذين القرار بشأن الإطار».

لم يكتب لي دايفيس أبدًا بعدها، حتى بعد أن بعثت إليه برسالة نصية بعد أيام. لكنه حدّث مدوّنته.

«مثل النسيج الهريء لهذه الرؤية / الأبراج المغطّاة بالغيوم، القصور الجميلة، / المعابد الرزينة / الأرض العظيمة ذاتها/ أنتم، كل ما ترثونه، سيتلاشى / كما تلاشى هذا الموكب العديم القيمة، / لن تخلّفوا شيئًا وراءكم».

ـ وليام شكسبير

أدرك أن لا شيء يدوم. لكن لمَ عليّ أن أفتقد الجميع هكذا؟

مكتبة

٢٤

بعد شهر، بعد انتهاء عطلة عيد الميلاد، استيقظت مبكّرًا وسكبت وعاءين من حبوب العسل لي ولأمّي. كنت آكل أمام التلفزيون عندما دخلت، وهي لا تزال ترتدي بيجامتها، مضطربة. «متأخّرة متأخّرة متأخّرة»، قالت. «أخرست المنبّه أكثر من مرة».

«أعددت لك الإفطار»، أخبرتها، وعندما انضمّت إليّ على الأريكة، قالت. «حبوب العسل ليست شيئًا تعدّينه». ضحكت وهي تأكل بضع حبات ثم أسرعت لارتداء ملابسها. دائمًا زوبعة متحرّكة، أمي.

عندما عدت لمشاهدة التلفزيون، ظهر شريط خبر عاجل أسفل الشاشة. رأيت مذيعًا يقف أمام بوابة مسكن آل بيكيت. بحثت عن جهاز التحكم عن بعد ورفعت الصوت.

«تشير مصادرنا إلى أنه برغم أنه لم يجرِ التعرّف على بيكيت،

مكتبة

تعتقد الشرطة أن الجثة التي جرى انتشالها من نفق فرعي لمجرى بوغ هي بالفعل جثة ملياردير المقاولات العقارية راسيل دايفيس بيكيت. وأخبر مصدر مقرّب من التحقيق آي ويتنس نيوز أن بيكيت قد مات في الغالب من البرد في غضون أيام قليلة من اختفائه، وبرغم أنه ليس لدينا أيّ تأكيد رسمي، تخبرنا المصادر أن الشرطة قد عثرت على جثة بيكيت بعد إبلاغ من مجهول».

بعثت برسالة نصية إلى دايفيس فورًا. شاهدت الأخبار للتو. أنا آسفة يا دايفيس. أعرف أنني قلت هذا لك كثيرًا لكني آسفة. أنا آسفة جدًا.

لم يردّ فورًا، فأضفت، أريد أن تعرف أن ديزي وأنا لسنا من أخبر الشرطة. لم نقل أي شيء لأي شخص.

الآن رأيت الـ ... التي تشير إلى أنه يكتب. أعرف. نحن من فعل ذلك. نوا وأنا قررنا معًا.

دخلت أمي وهي تضع أقراطها وتنتعل حذاءها في الوقت نفسه. لا بد أنها سمعت آخر مقطع من القصة، لأنها قالت، «آزا، يجب أن تكوني قريبة من دايفيس. سيكون هذا يومًا صعبًا جدًا عليه».

«كنت أراسله للتو»، قلت. «هما من أرشد الشرطة إلى مكانه».

«هل تستطيعين تخيّل أنّ ذلك القصر سيؤول إلى سحلية؟»

كانا يستطيعان الانتظار لسبع سنوات، قبل أن تُقرَّر وفاة بيكيت ـ سبع سنوات من ذلك البيت، سبع سنوات من الحصول على أي شيء يريدانه ـ لكنهما قررا أن يتركا كل شيء لتوَتارا.

مكتبة

«أعتقد أنهما لم يستطيعا ترك أبيهما هناك»، قلت. «ربما كان عليّ ألّا أخبره عن فم العدّاء». كان هذا، بعد كل شيء، ذنبي. اعتراني ذعر جمّدني. لقد أجبرتهما على الاختيار بين هجر أبيهما وهجر الحياة التي يعيشانها.

«كوني لطيفة مع نفسك»، قالت أمي. «من الواضح أن معرفة الحقيقة أهمّ عنده من البيت، كما أنه لن ينتهي في الشارع يا آزا».

حاولت الإصغاء إليها، لكن الشعور الذي لا يمكن إنكاره استيقظ داخلي. للحظة، حاولت مقاومته، لكن للحظة. أزحت اللصقة الطبية وغرست ظفري في التكلّس على إصبعي، فاتحة جرحًا في المكان الذي اندمل فيه الجرح السابق وباشر الشفاء.

وأنا أغسله وأعيد تغطيته في الحمام، حدّقت في نفسي. سأظلّ هكذا إلى الأبد، أحتفظ بهذا داخلي إلى الأبد. لا خلاص منه. لن أذبح التنين أبدًا، لأنّ التنين هو أنا. نفسي والمرض معقودان معًا مدى الحياة.

فكّرت في يوميات دايفيس، بقصيدة فروست: «بثلاث كلمات يمكنني اختصار كل شيء تعلّمته عن الحياة: الحياة تظلّ مستمرة».

وأنت تستمرين، أيضًا، عندما يكون المدّ معك، حتى وإن لم يكن. أو هذا على الأقل ما همسته لنفسي من دون صوت. قبل أن أترك الحمّام، بعثت إليه برسالة ثانية. هل بإمكاننا أن نلتقي أحيانًا؟

رأيت الـ ... تظهر، لكنه لم يردّ قط.

«يجب أن نغادر»، قالت أمي. فتحت باب الحمّام، أخذت جاكيتًا

مكتبة

وقبعة صوفية من علّاقة الجاكيتات، ودخلت كاراجنا المتجمّد. حشرت يدي تحت باب الكاراج، رفعته، وجلست في مقعد السيارة الأمامي بينما انتهت أمي من إعداد قهوة الصباح. واصلتُ أنظر إلى هاتفي، منتظرة ردّه. كنت أشعر بالبرد لكنني أتعرّق، العرق يتغلغل في قبعتي. فكرت في دايفيس، الاستماع إلى اسمه في نشرة الأخبار مرة ثانية. تستمرين، قلت لنفسي، وحاولت عبر الأثير أن أقول ذلك له أيضًا.

على مدى الأشهر المقبلة، واصلت المعيشة. تحسّنت من دون أن أتحسّن تمامًا. أسّستُ أنا ديزي تحالف الصحة العقلية وورشة عمل لروايات الهواة حتى نستطيع إضافة نشاطات لا منهجية لطلبات الالتحاق بالكلية في العام التالي، برغم أننا كنا العضوين الوحيدين في كلا الناديين. قضينا الوقت معًا في معظم الليالي، في شقتها أو في أبلبيز أو في منزلي، أحيانًا برفقة ميكال وغالبًا من دونه ـ عادة كنا نحن الاثنتين فقط، نشاهد أفلامًا أو نؤدّي واجباتنا المدرسية أو نتحدث فقط. كان من السهل جدًا أن أذهب إلى المرج معها.

اشتقت إلى دايفيس، طبعًا. خلال الأيام الأولى، نظرت إلى هاتفي كثيرًا، في انتظار ردّه، لكن ببطء أدركت أن كلينا سيظلّ جزءًا من ماضي الآخر. لكنني افتقدته. افتقدت أبي أيضًا. وهارولد. افتقدت الكل. أن تكون حيًا هو أن تفتقد.

ثم في ليلة من شهر نيسان، كنت أنا وديزي في منزلنا، نشاهد حفلًا موسيقيًا لفرقتنا المفضّلة، التي كانت تغنّي في برنامج جوائز. حالما انتهت الفرقة من غناء «إنه أنت بالتأكيد» طرق شخص على الباب.

مكتبة

كانت الساعة الحادية عشرة تقريبًا، الوقت متأخّر كثيرًا للزائرين. اعتراني التوتر وأنا أفتح الباب.

كان دايفيس، يرتدي قميص بلايد وجينزًا وممسكًا بصندوق كبير.

«مرحبًا»، قلت.

«هذا لك»، أخبرني، وأعطاني الصندوق الذي لم يكن ثقيلًا كما توقّعت. حملته ووضعته على طاولة الطعام وعندما استدرت، رأيته يمشي مغادرًا.

«انتظر»، قلت. «تعال». مددت يدي له. أخذها ومشينا معًا إلى فنائنا الخلفي. كانت مياه النهر مرتفعة، وكنت تستطيع سماعه يجري في الظلمة في مكان ما. شعرتُ بالجوّ دافئًا على جلدي وذراعي عندما تمدّدت على الأرض تحت شجرة المُرّان الكبيرة في فنائنا الخلفي. تمدّد بجواري، وأريته كيف تبدو السماء من منزلي، مقسّمة بالأغصان التي بدأت تكسوها الأوراق أخيرًا.

أخبرني أنه سيرحل هو ونوا إلى كولورادو، حيث قُبل نوا في مدرسة داخلية للأطفال المضطربين. سيُكمل دايفيس الثانوية العامة هناك، في مدرسة حكومية. استأجرا بيتًا. «أصغر من بيتنا الحالي»، قال. «لكن من ناحية أخرى، لا توجد فيه توَتارا».

سألني عن أحوالي وأخبرته أنني أشعر بأنني على ما يرام مُعظم الوقت. أربعة أسابيع تفصل بين زياراتي لد. سينغ الآن.

«متى ترحلان إذن؟» سألته.

«غدًا»، قال، وقضى هذا على الحديث لفترة.

مكتبة

«حسنًا، إذن»، قلت أخيرًا، «إلى ماذا أنظر؟»

ضحك قليلًا. «تنظرين إلى المشتري هناك، طبعًا. هو شديد التوهّج الليلة. وهناك السِّماك الرَّامح». التوى قليلًا ليستدير وأشار إلى جزء آخر من السماء. «وهناك الدبّ الأكبر، وإذا تابعنا خط هذين النجمين، هناك، فهذا نجم الشمال».

«لماذا أخبرت البوليس أن ينظروا هناك؟» سألته.

«كان الأمر أن يقضي على نوا، عدم المعرفة. أدركت... أعتقد أنني أدركت أن عليّ أن أكون الأخ الأكبر، تعرفين؟ هذا شغلي الشاغل الآن. هذا من أنا. وكان بحاجة لأن يعرف لما لا يتصل به أبوه أكثر مما كان بحاجة إلى المال، وهذا ما فعلناه».

مددت يدي وشددت على يده. «أنت أخ رائع».

أومأ. رأيت تحت الضوء الرمادي أنه يبكي. «شكرًا»، قال. «أريد أن أظل هنا في هذه اللحظة بالتحديد وقتًا طويلًا».

«نعم»، قلت.

خيّم علينا الصمت وشعرت باتساع السماء فوقنا، حجمها الهائل - النظر إلى نجم الشمال وإدراكي أنني أنظر إلى ضوء عمره ٤٢٥ سنة، ثم النظر إلى المشتري، الذي يبعد عنا أقلّ من سنة ضوئية. في العتمة الخالية من القمر، كنا شاهدين على الضوء، وشعرت بما دفع دايفيس إلى علم الفلك. كان هناك نوع من الراحة في رؤية صغر حجمك مجرّدًا أمامك، وأدركت شيئًا لا بد أن دايفيس كان يعرفه: الحالات اللولبية تصبح أصغر إلى ما

مكتبة

لا نهاية كلّما تتبّعتها إلى الداخل، كما أنها تصبح أكبر إلى ما لا نهاية كلّما تتبّعتها إلى الخارج.

وعرفت أنني سأتذكّر ذلك الشعور، تحت السماء المقسّمة، إلى ما قبل أن تحولّنا آلة القدر إلى شيء أو إلى آخر، إلى وقت كان بإمكاننا أن نصبح فيه كل شيء.

فكّرت، وأنا متمدّدة هناك، أنني قد أحبّه حتى نهاية عمري. كنا نحب بعضنا بعضًا ـ ربما لم ننطقها يومًا، وربما الحب شيءٌ لا تكون فيه، لكنه شيءٌ شعرت به. أحببته، وفكرت، قد لا أراه مرة ثانية، وسأظلّ عالقة بفقداني إيّاه، وذلك شيء فظيع.

لكن اتضح أنه لم يكن شيئًا فظيعًا، لأنني أعرف السر الذي لا تستطيع الأنا المتمدّدة تحت تلك السماء تخيّله: أعرف أن تلك الفتاة ستستمر، أنها ستكبر، ستنجب أطفالًا وستحبهم، وأنه برغم حبها لهم ستتعب من الاعتناء بهم، تدخل المستشفى، تتحسّن، ثم تمرض ثانية. أعرف أن طبيبًا نفسيًا سيقول: اكتبي كل شيء، كيف انتهيت هنا.

فتفعلين ذلك، وفي كتابة كل شيء تدركين أن الحب ليس مأساة أو خسارة، بل نعمة.

تتذكّرين حبك الأول لأن ذلك يريك، يثبت لك، أن بإمكانك أن تحِبّي وتُحَبّي، أنْ لا شيء في هذا العالم مُستحَقّ ما عدا الحب، أنّ الحب هو كيف تصبحين شخصًا، والسبب.

لكن تحت تلك السماء، ويدك ـ لا، يدي ـ لا، يدنا ـ في يده، ما

مكتبة

زلتِ لا تعرفين. لا تعرفين أن اللوحة اللولبية موجودة في داخل ذلك الصندوق على طاولة الطعام، بملاحظة ملصقة على ظهر الإطار: سرقت هذه من سحلية لأجلك. ـ د. ما زلت لا تعرفين كيف ستلاحقك تلك اللوحة من شقة إلى أخرى ثم في آخر المطاف إلى منزل وكيف، بعد عقود، ستشعرين بالفخر أنّ ديزي لا تزال صديقتك المقرّبة، أن بدءكما لحياتين مختلفتين جعل ولاءكما لبعضكما بعضًا أقوى. ما زلت لا تعرفين أنك ستذهبين إلى الكلية، تشتغلين، تبدئين حياتك، تراقبينها تهوي وتُبنى.

أنا، ضمير مفرد، سأستمر، حتى لو كان ذلك جملة شرطية.

لكنك ما زلت لا تعرفين أيًا من ذلك. نشدُّ على يده. يشدّ. تتأمّلون السماء نفسها معًا، وبعد فترة يقول، يجب أن أغادر، وتقولون، وداعًا، ويقول، وداعًا آزا، ولا أحد يقول وداعًا إلّا إذا كانوا يريدون رؤيتك ثانية.

مكتبة

مكتبة

شكر وامتنان

يسرّني بادئ ذي بدء أن أشكر ساره يوريست غرين، التي قرأت نسخًا متعدّدة من هذه القصة وأولتها بالغ التفكير والكرم. شكرًا أيضًا لكريس ومارينا ووترز؛ لأخي هانك، وسلفتي كاثرين؛ لأمي وأبي سيندي ومايك غرين؛ لنسيبتي ونسيبي كون كوني ومارشال يوريست؛ ولهنري وآليس غرين.

جولي ستراوس-غابل محررتي لأكثر من خمسة عشر عامًا، ولن أستطيع مهما حاولت إيفاءها حقها من الشكر والعرفان لثقتها وحكمتها خلال الست سنوات التي قضيناها في العمل على هذا الكتاب. شكرًا أيضًا لآني هيوزلر لمراجعاتها الهادفة والمثيرة للجدل، ولأعضاء الفريق كافة في داتون، وخاصة آنا بوث، ميليسا فولنر، روزان لوور، ستيف ميلتزر، وناتالي فيلكايند.

أنا في غاية الشكر لإليز مارشال، صديقتي ووكيلة الإعلام وأمينة سري ورفيقتي في السفر، وللعديدين في بنغوين راندوم هاوس الذين ساعدوا في العمل على كتبي وتَشاركها مع القرّاء. أود أن أشكر على وجه الخصوص جن لوجا، فيليشيا فرازير، جوسيلين شميدت، آدم رويس، ستيفاني سابول، إميلي روميو، إرين بيرغر، هيلين بومر، لايه

مكتبة

بتلر، كمبرلي رايان، ديبوراه كابلان، وليندسي أندروز. شكرًا أيضًا لدون وايزبيرغ، ولروزيانا هالس روجاس النابغة، التي وجّهت بأفكارها ورؤيتها العميقة كل صفحة في هذا الكتاب.

آريال بيسيت، ميريديث دانكو، هايلي هوفر، زوليخة رزاق، وتارا كوفياس فارسوف لقراءة نسخ من هذه القصة بأشد عناية وتمعّن. قدمت إليّ جوان كارديناس فراسة وآراءً قيمة. ولمساعدتهم بأشكالها المتنوّعة، شكرًا لآيلين كوبر، بيل أوت، إيمي كراوس روزنثال، رينبو رويل، ستان مولر، ومارلين ريدر.

جودي ريمر وكاسي إيفاشيفسكي، وكيلاي المتميّزان، أفضل حليفين بإمكان أي كاتب الأمل بهما ـ والأكثر صبرًا. شكرًا لفيل بلايت لمساعدته في ما يختصّ بعلم الفلك؛ إ. ك. جونستون لخبراته في حرب النجوم؛ إد يونغ لكتابه أنا أحوي الكثير؛ دافيد آدم لكتابه الرجل الذي لم يستطع التوقف؛ إلين سكايري لكتابها الجسد الموجوع؛ ستيوارت هايات الذي عرّفني بمجرى بوغ (Pogue's Run)؛ ولجيمس بيل، ميكيلا آيورنز، تيم ريفيل، ليا شايفر، وشانون جايمس لخبراتهم القانونية. وبعد، فإن معلومات الجغرافيا، القانون، محوّلات الطاقة، السماء الليلية، وكل شيء آخر في هذه الرواية هو من نسج الخيال وعومل من هذا المنطلق وأي خطأ هو خطئي بالكامل.

وأخيرًا وليس آخرًا، غيّر د. جويلن هوزلر ود. سونيل باتيل حياتي إلى الأفضل بما قدّماه من أفضل أنواع رعاية الصحة العقلية بأرقى المعايير التي لسوء الحظ تظل خارج متناول الكثيرين. عائلتي وأنا شاكرون لهما. إذا كنت بحاجة إلى خدمات الرعاية بالصحة العقلية في

مكتبة

الولايات المتحدة، الرجاء الاتصال بخط الإحالة للعلاج SAMHSA على: 1-877-SAMHSA7 قد يكون الطريق وعرًا وطويلًا، لكن الأمراض العقلية من الممكن علاجها. هناك أمل، حتى عندما يحدّثك عقلك أنّ الأمل معدوم.

للحصول على كتبنا قبل الجميع
بروابط تحميل مباشرة
تابعونا
على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
facebook.com/ktabpdf
على تيليجرام
telegram @ktabpdf

المزيد عن الرواية:

«أفضل أعمال غرين حتى الآن»

BUSTLE

«هذه الرواية، الشديدة التعاطف، حول تعلّم المرء العيش مع شياطينه وحبّ ذاته الناقصة، رواية مهمّة جاءت في وقتها»

PUBLISHERS WEEKLY

«رواية مؤثرة لها صداها الواسع، تفيد القرّاء وتنيرهم، حتى وهي تفطر قلوبهم»

SCHOOL LIBRARY JOURNAL

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

مكتبة

للكاتب أيضاً

«إنها، ويا للعنة، تكاد تلامس العبقرية... ما تخبئه لنا النجوم، قصة حب، وواحدة من الروايات الأميركية الحديثة الأكثر صدقاً وتأثيراً، لكنها أيضاً مأساة وجودية فيها ذكاء بالغ وشجاعة وحزن»

LEV GROSSMAN, TIME

«كتابٌ يفطر القلب، لأنه يجعله يكبر ويكبر حتى يكاد ينفجر، وليس لأنه ينهكه»

THE ATLANTIC

«صوت [غرين] مسموع باستحواذ، إلى درجة يتحدى معها أي تصنيف. ستشعر بالامتنان للقليل من اللاامتناهي الذي تمضيه في داخل هذا الكتاب»

NPR.ORG

مكتبة

281 | مكتبة

جون مايكل غرين

الكاتب الأكثر مبيعاً بحسب صحيفة نيويورك تايمز، والحائز جوائز متعدِّدة، منها «ميدالية برينتز»، وجائزة «برينتز الشرفيّة»، و«جائزة إدغار». بلغ مرتين المراتب النهائية في جائزة لوس أنجلس تايمز للكتاب. وهو مُدرَج في قائمة مجلة التايم للمئة شخص الأكثر تأثيراً في العالم، بعد أن تصدَّرت النسخة الإنكليزية من روايته «ما تخبئه لنا النجوم» قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. وقد أُدرجت كتبه في قائمة الكتب المئة الأفضل في التاريخ ضمن فئتها. زِدْ على ذلك أن غرين أضيف إلى قائمة مشاهير فوربز المئة.

"أفضل أعمال غرين حتى الآن" Bustle

في عودة شاهقة له بعد «ما تخبئه لنا النجوم»، يقدم لنا جون غرين روايته الأخيرة هذه، «سلاحف إلى ما لا نهاية»، التي تصدَّرت قوائم الكتب الأكثر مبيعاً وستتحول إلى فلم سينمائي في هوليوود وفاقت ردود الأفعال عليها الردود الأولى على روايته السابقة.

لماذا تتملكنا غالباً رغبة شديدة في إلحاق الأذى بأنفسنا؟ ولماذا تجتاحنا أفكار اقتحامية، فنحدث مثلاً جرحاً في إصبعنا، ولا نتوانى عن جعله أعمق فأعمق؟

آزا هولمزي، فتاة في المرحلة الثانوية من دراستها، فقدت أباها ذات يوم أمام عينيها، وتعيش اليوم مع أمها، أستاذة الرياضيات في المدرسة التي ترتادها آزا.

تعاني آزا حالة شديدة من القلق، تنعكس غالباً في وسواسها القهري وخوفها المرضي من الأمراض، ولا سيما من بكتيريا محدَّدة تعتقد أنها ستؤدي إذا ما أصابتها إلى موتها.

تصادفها وصديقتها ديزي فرصة ذهبية لتصيد مبلغ مئة ألف دولار، لتصبحا فجأة ثريتين، لكنها تقع في الحب، ويؤرِّقها سؤال جوهري: «**إذا لم نتمكّن من التوصل إلى اليقين، فهل يمكننا أن نثق بحواسنا؟**».

في أجواء تجمع بين الهوس والحب والصداقة والفلسفة و«حرب النجوم»، يقدم لنا جون غرين رواية واقعية يتمكن فيها من وصف مشاعر إنسانية لم يكن وصفها ممكناً قبله.

لتفهم هذه الرواية وتتفاعل معها، ما عليك إلّا أن تكون إنساناً!

ISBN 978-9953-88-994-8

9 789953 889948

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر